مي منسّى

مكتبة ٣٧٩

قتلت أمي لأحيا

رواية

القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية ٢٠١٩

رياض الريس للكتب والنشر

مكتبة | 379

قتلت أمي لأحيا

I Killed My Mother to Live

By May Manassa

First Published in January 2018

Copyright ©Riad El-Rayyes Books S.A.L.

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb
www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-21-674-4

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٨

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو — علي الحاج حسن

مكتبة ٢٠١٩٢١٣

مي منسى

مكتبة | 379

قتلت أمي لأحيا

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

«عسى تصل رسالتي بعد طول الغياب. كتبتها على الرمال المنبسطة كورقة عذراء و انتظرت رجوع الموج ليحملها إليك».

أتكون الأحلام الليلية سبيلاً إلى إعادة الاتصال بين الأحياء والأموات؟ أتكون جسر عبور من وهم الحياة إلى حقيقة الموت؟

بارع هو الليل في استحضاره أشخاصاً مرّ على غيابهم عقود وسنوات، ولم يُرحهم الموت مما تكبّدوه في الحياة من خسارات ظالمة، ولا أزاح عن كواهلهم في سكناهم الهُناك، ثقلَ أحقاد ومآسٍ بقيت حتى آخر نسمة تنخر نفوسهم. يعبرون جدار المنامات، سبيلهم الوحيد إلى تضليل الموت، ليفضّوا أموراً عالقة، غافلهم الموت من دون أن يتمكّنوا من حلّها. فلا أتفاجأ بهم. كأني في انتظارهم. من أصواتهم أستدلّ عليهم، لا بلهفة الشوق والعناق. غرباء أصبحوا، مذ انتقلوا إلى الضفة الأخرى من الوجود.

ما سرّ هذا الخزّان الدماغيّ يا تُرى، يجعل الوسادة مسرحاً عبثياً حالما أغط في النوم، ينتقل بي إلى أماكن مفكّكة معالمها، كبناء هش قام من

خلايا الدماغ بلمحة، من دون تخطيط سابق، ليحتوي الحلم وغرائبه. أتحاكى مع أشخاص أعرفهم من أصواتهم، أسمعهم، والصوت صدىً آتٍ من أزمنة بعيدة، يتشابك، في ارتداده إليّ، بهواء ساخن، مشحون بأوراق يابسة لا أرضية لها تريح زوغانها. يأتون ليتفقدوا البيت المهجور، فتسألني المرأة، التي عرفتها أمي من صورة عرسها إلى جانب أبي، عن فستانها الأسود، وفي نبرة صوتها أستشعر لوماً على استغلالي رحيلها لأعبث في جهاز عرسها.

رحلت أمي عنا بجسدها، وظلّت روحها هائمة حولنا، تبحث عني في المنام لاستعادة شبه دور، ولو شحيح، من أمومتها، وربما مكانها في صورة عرسها؛ إرث زهيد حملتُه في متاع تنقلاتي من بلد إلى آخر، ولاسيما فستانها الأسود المخمليّ الذي فرضته على ضياء العجمي المخرج، في أدائي شخصية «دورا»، المرأة الأسطورية التي أطلقتني من رحم المسرح حيث كان يجب عليّ أن أولد وأصارع قدري بقدر شخصيات التراجيديا.

الخشبة الليلية، في احتوائها جنون امرأة، بعشقها وغيرتها القاتلة وثأرها، كانت، في آن، تخرق الجدار الذي انطويت في داخله منذ الصغر، وتحرّرني منه:

«المدينة تقرع حداداً على موتي. هذه أنا أمامكم بفستاني الأسود، أنعى إليكم ما هو أشرس من الموت: الثأر»، أقولها، فيجتاحني شعور بأني آتية من عالم آخر، والواقف أمامي يحاورني هو «أنا»؛ هذا الرفيق الذي قوّى خيالي وأوهامي مذ مضيت في دروب الحياة بمفردي، أبحث عن نصفي الضائع لأكتمل.

البيت الذي أسكنه في المنام شبه مهدم، خالٍ من أي شيء سوى فوح الكمون والقرفة، المعشّشِ في مسام المطبخ. غرفة النوم التي كنت أتقاسمها مع أختي سناء إختلطت بالمقصورة التي كنت أتهيّأ فيها للخروج من أنايَ إلى جنون «دورا» ؛ الدور الذي إنحفرت فيه حتى لم يعد لي اسم سواه.

دورا، دورا، كيف تغلغلت فيّ هذه الشخصية لتقودني إلى اكتشاف مَن أنا، إنسانة منسية في فقاعتها، لا اسم لي في ذاكرة الناس سوى اسمها، حالما أتدثّر بفستان أمي الأسود أصير هي، فأشعر بطاقة خفية تأخذني إلى أمكنة عالية. ومن صوتي الآتي من الجحيم أصرخ:

«ها أنا أهب روحي للظلمة، للصمت، للغياب».

ليالي المنامات، كانت غالباً ما تأخذني إلى بيت عين الشمس، المغلقة شبابيكه على غياب المرأة التي عبرت في حياتي كالخيال، ولم تترك أثراً يحكي عنها، سوى ما ظلّ معشّشاً في مسام المطبخ من أعشاب فوّاحة، كانت تأتي بها غمرات من غدواتها في البراري. فما كانت سلمى جدة والدي ترويه لي في أثناء إقامتي عندها، تحوّل مع الوقت إلى قنوات الأحلام، أجمع عند اليقظة من أسمالها مادةً للكتابة، وعند مراجعتها، أتحسس الفاجعة التي واكبت حياتي، بتمزقاتها، إنطوائية في عالمي الجوّاني، ومنفيّة من حياة مَن كنت في حاجة إلى جناحهم لأتدفأ. المنامات كانت تفوّقي على العدم. لقد أعادتني إلى حيث كان يجب أن أكون.

كنت في حيرة من أمري أبحث عن فستان «دورا» الأسود، المخمليّ، في خزانة أمي المقفلة بعد رحيلها، ولا أجده. يتناهى إلى سمعي نتفُ أصداء أعزوها

إلى تململ الجمهور في الصالة، سببه التأخير الناجم عني. أصبحت المنامات البديل عن الذاكرة، تتسلل إلى مناطق اللاوعي وتكشف نوره الضئيل. هو هذا المختبر الذي يعجز الوعي عن تحليله الذي دلّني على الكتابة. أهبّ من نومي قبل أن تذوي ملامح البيت والأشخاص الذين أتوا على غفلة وفي نياتهم عتاب وفض حسابات عتيقة. أتكمّش بذيول الحلم، وأبدأ أحفر على الورقة ما لم يمحُه بنزوة طائشة من كفّ يده. الصلة المعقودة بين المنام ولحظة الصحو كنت اتصوّرها في هذا الخط الوهمي الفاصل بين الليل والفجر الشحيح، أتأمّله بأسراره، مسنوناً بيد ذلك المهندس الذي استعمل العدة ذاتها في فصله الماء عن اليابسة. أهبّ من نومي كقارئ الغيب، وفي أصابعي شعوذات، أطيّرها في سماء الورقة كالعصافير التي يخرجها المشعوذ من كمّه ليبهر بها الأولاد. المنامات، لا تزال مذ اختارتني الوحدة لأسمع رنين الوقت أعلى، صلتي بالأموات وكل من أسدل الغياب بيني وبينهم. يأتون إليّ ليلاً لأحرّرهم عند الصباح الباكر على ورقتي من سلطان الموت، كأني بإعادتهم إلى عالمي الافتراضي، أكشح شبح الوحدة عني. هكذا صارت الأحلام مورد وحي للكتابة. أدمنت على الليل لا للراحة والنسيان، بل لأتموّن من كليشيهات سلبية مرميّة بين نفايات الذاكرة، أعيد تظهيرها في محلول الحبر، مادة لرواياتي، إلى أن تفاجأت بالبرقية الصوتية، وأنا في حال من الشرود الصحويّ؛ هذه اللحظة المجنّحة التي تكسر في عبورها حكايات الليل.

«عسى أن تصل إليك رسالتي بعد طول الغياب، كتبتها على الرمال المنبسطة أمامي كورقة عذراء وانتظرت رجوع الموج ليحملها إليك».

الصوت، عرفته من دون أن يتلعثم به خيالي، فكيف عساي أنساه وهو من فئة الدم ذاتها التي تكوّنا منها في رحم أمّنا. صوت سناء، إن غضبتْ أم ضحكتْ كان دوماً تعبيراً عن تمرّد متأجّج في داخلها، بدأت تظهر بوادره في باكورة مراهقتنا يوم أصبحتُ مكتفية بظلّها رفيقاً لي. إبتعادها عني كان سببا لتفاقمات صامتة زعزعت حجارتي. الكتابة صارت أنيسي. بات الدفتر تحت فراشي ينتظرني لموعد سريّ حميم، حتى إدماني على الكلمة، أتنشّقها بملء رئتيَّ لأتحسّس في العمق، مفعولها السحريّ عليّ، ألوذ إليها للتفوّق على ما أنا عليه. قد يكون الانفصام الذي أبعد التوأمين إحداهما عن الأخرى، وإن ترك جرحاً لم يندمل، تحوّل على ورقتي إلى موقع أركيولوجي. أحفر في أعماقه، ككشّاف الينابيع، بحثاً عن توأم ألده من ذاتي، أبديّاً فيّ، لا يرحل، يعيرني قلمه لأكتب، يحرّر اللحن العالق حسرةً في حنجرتي، فأسمع من واحة صمتي شدو عصفور يبهج ليلي بتغريده.

مع الوقت، حين تمكّن ذلك الشعور فيّ، اكتنزت كتابتي بالحوارات، وصار تلقائياً للسؤال جوابٌ، وللجملة المتعثّرة، أصابعُ تهرع إلى نجدتها وتحل عقدها. فالمتوحّد يتمتّع دون سواه، بهذه العشرة الدائمة مع ذاته، يتقاسمان الحلو والمر، الحر والبرد، يتدفآن في معطف واحد، يأكلان في صحن واحد، يتسامران، والتبادل بينهما حوار بصوت واحد.

خلال السنوات التي أمضيتها في المدرسة الخاصة بالمتوحدين، كان دفتري حواري الوحيد مع ذاتي. فالمتوحّد رفيق ذاته. أمّا رفاق المدرسة، فلم يكونوا أفضل مني للمسايرة، فالانطوائيون لا يضحكون، لا يلوذون إلى بعضهم،

لا يتواطأون. عزلتهم مفروضة عليهم، كالمنفيين عن أرضهم، كالمقتلعين من جذورهم. هذا ما كنت أستشفّه لدى أمثالي بمقارنتي بهم. الوحدانيّ يعايش السلام والسكينة، فهو لا يصبو إلى السعادة ولا إلى أمل يسرّحه من قيده. هنا في رحم هذا الداء يبقى جنيناً لا خلاص له.

إلى سن المراهقة، كان إلتصاقي الكليّ بسناء يحميني من أي دليل ظاهر لهذا الداء الصامت الذي لا صوت له ولا لون. كان دائي مختبئاً في ظلّها، إلى أن شرّعني للشمس بابتعادها عني. كان من الطبيعي أن تلتحق سناء بمعهد تتعلّم فيه لتلبي طموحاتها، بينما اختصر عالمي المقفل على ما يشبه الحضانة، أقرأ في الكتاب ذاته. أرسم شجرة، عارية من أوراقها، تفرش أغصانها كذراعَيْ متسوّل يطلب رمق حياة. صرت، بأقلام التلوين، أحمي العطب المتأصّل فيّ. داخل شرنقتي أبحث عن أنايَ، أستمتع بالحديث معها، توأمي الحقيقي، إلى يوم أخذتني سلمى، جدة والدي، إليها، ووعدها لحفيدها بأن ترعى صمتي بما بقي لها من مواسم في جسد استهلكت عافيته الأرض.

في سن المراهقة، بدأ تمرّد سناء على الخنوع الذي شرّعته تربية والدنا فينا، بسطوته التعسّفية، على أمورنا الحياتية. بنباهة وطول باع، مضت تتحرّر من هذا القيد، بإزالتها، شيئاً فشيئاً، كمخة الزنجار العازلة نهارنا عن ليلنا. فأوّل ما أقدمت عليه، كان انتقامها من شَعرنا المشعث، الجاف، ككومة قش بعد الحصاد، بقصَّة صبيانية لم تُشركني فيها. في بريق عينيها السوداوين، قرأتُ تنكّراً لهذا المركّب الكيميائي الذي فرض في عملية التكوين شبهاً بين التوأمين. الخروج من ثياب الطفولة العجراء، ومن تلك القمّاطات الملازمة نموّنا، لم يكن مجرّد نزوة للإفلات من قبضة والدنا والتحرّر من كابوس موت أمّنا، بل انتفاضة جريئة تخطّت عتبة البيت يوم نزل والدي مرغماً عند إرادتها تكملة تحصيلها العلميّ في الجامعة، مكلّلة بالتفوّق على مدى سنوات دراستها في معهد راهبات المحبة. طموح سناء إلى العلم والاختصاص، اعتبره والدنا إفلاتاً من

سطوته وعصياناً على إرث العائلة الزراعي، برفضها قسم الزراعة اختصاصاً، اقترحه عليها ترمياً لكرامته المخذولة. العلوم الإنسانية كانت خيارها. أذكر ما قالته لي، ولم تكن انشقت عنّي تماماً ولا راودها شك بعدُ أني مختلفة عنها:

«الحياة لا معنى لها إلّا إذا وضعناها في خدمة الإنسانية التي لا حدود لها».

كانت سناء حصني الوحيد. أقاوم الخوف من العتمة والناس بالتصاقي الدائم بها إلى أن أصبحت العلّة واضحة بيننا: هي في مقدمة القطار، وأنا في مؤخّرته. تزعزعت العلاقة بيننا يوم اكتشفتْ أن أختها مختلفة عنها، انطوائيّة، ما معناه أنها لن تسير معها في مغامرة الحياة. بدأ التمرّد يتفاقم في سلوكها تعبيراً عن الخواء الذي صارت تعانيه في بيت، الأم غائبة عنه في دنيا الأموات، والوالد حي- ميت، يقوم بواجباته بهمّة ماكنة أوتوماتيكيّة لا تخطئ أبداً. أعود بذاكرتي إلى الوراء أبحث عن الصورة الهزيلة، الباهتة، التي خرجنا بها معاً إلى الدنيا، نسخةً عن سلوك البيت بتقشّفه وصرامته. هذا العصيان الصامت، صرت شاهدة على تطوّره لديها، من دون أن أكون شريكة فيه. التغيير الذي قرّرته، كان لمحارب واحد، محا وجودي من الصورة الجامعة بيننا منذ ولادتنا. فهل كنت على قدر أن أفهم ما قالته لي، وهي مسرعة، للإفلات من ضجيج حزني الصامت على هذا الفراق؟

«اعلمي يا رشا، ولادتنا من رحم واحد، لا تعني ارتباطاً أبدياً سنّته الطبيعة. إنها فقط حدثٌ بيولوجيّ لا علاقة له بالنفس التائقة إلى الحرية». بمنطقها

هذا تحرّرتْ مني، وبثورتها الصارخة من عمق مراهقتها، فكّت الارتباط الذي عوّلتُ عليه للخروج تحت جناحها من نفقي المظلم.

بوقوفها الطويل أمام المرآة تحاكي توأمها الجديد وتخطط معه لغد أفضل، انغلقتُ على عالمي الجوّاني ألقّم وحدانيتي بتوأم افتراضي صار إلهامي في الكتابة ورفيق صمتي، يُملي عليّ أبجدية العبور خارج إمكاناتي الجسدية والنفسية، أشعر بيده تحمّلني القلم حين أتكاسل عن الكتابة، ساهراً على هذه الاستمرارية من دفتر إلى آخر. في هذه الازدواجية صرنا نتخاطب بصيغة الأنا.

بقيت دفاتري لغزاً لم يشجّع والدي على نبش ما يجول في غربتي. في تلك الفترة القاحلة التي قضت على مواسم كانت تعد بالخير، إلتمّ والدي على حاله، رفيقه «النبي» لجبران، وما يدور حوله خواء. صار يرمق سلوك سناء، المتحرّرة من جمهوريته، باستخفاف ولامبالاة. الغربة الفاتكة بأهل البيت كانت أكثر ضراوة من الرياح الساخنة الحاملة غبار الصحراء كفناً للكروم وبساتين الزيتون.

خرجت سناء من باب ليلنا وشمس المستقبل في انتظارها، تتعلّم من حروقها أن تقاوم آثار الأثلام التي حفرتها تربية البيت في نفسها الثائرة. لم تكن يوماً على وفاق مع والدي؛ هذا المنفيّ من الفصل الأول لسِفْر التكوين.

كبر والدي مبتوراً من طفولته، محاصراً في ظل جدّته، لا أفق لخياله سوى الأرض المسيّجة بمواسم الكروم و الزيتون، والكتب التي كانت تثير خياله حين يستلقي بعد عناء القطاف في ظل السنديانة الهرمة. فكيف

كان في وسعه، حين أطللنا على الوجود طرحين من بطن تعثّر لإنجابنا، غير موعودتين بالحياة، أن يستبشر بنا خيراً ويهلّل لمجيئنا، بينما أمّنا تصارع الموت؟

كنّا أشبه بالجفاف الذي قضى على مواسم الزيتون والكرمة، إلى أن ظهرت رياح التمرّد والعصيان في تصرّفات توأمي. نشلها هذا الصحو من عتمة ليلنا، بينما كنت ككفيف يستدل دربه على نور شمسه الجوّانية.

هذه الحسرة، التي كانت تنهش والدي بصمت صارخ، كان يفضي بها إلى أبونا مخايل، كاهن الرعية، كلما مضى إلى البلدة لتفقد مأساة الأرض وأنا برفقته. فيعزو مصابه إلى عقاب يلاحقه منذ ولادته، ولاسيما حين اكتشف التقرير الطبي مصابي بداء التوحّد؛ حالةٍ مزمنة ينطوي فيها المصاب على عالمه الداخلي غير مبال بما يحيط به. من غشائي الذي كان يعتبره عازلاً سميكاً بيني وبينه، وعاراً على العائلة، كنت أقرأ في تعابير وجهه الملفوح بشمس الكروم، أسفاً وخيبة. أستمع إلى اعترافات رجل منطوٍ تحت وابل من المآسي، ولا يدري كيف يضع حدوداً لكل هذه العذابات. ولم يكن في جعبة أبونا مخايل سوى الصلاة، ومسبحة الوردية، إرشاده الوحيد لخلاص النفوس.

تيتّم والدي مرّتين: يومَ تخلّت أمه عنه وكان طفلاً لم يُفطم بعد، فحلّت جدّته سلمى بديلاً عنها، و يومَ ماتت ثريا، حبيبته. الحب الذي لم يعرف حتى ذلك اليوم، سبيلاً إلى قلبه، شعر به كشعلة دافئة تخرق مسامه ما إن سمع صوتها الشجيّ يعلو من بين أصوات جوقة أخوية «الحبل بلا دنس»،

مرتلاً «يا أم الله يا حنونة». لمّ هذا الغناء، الذي استولى على تفكيره، في أعماق نفسه ويقينه، أن للأصوات الملائكية مهمةً سماوية، تعيد إلى الأرض الجافة محاصيلها وخيراتها. في ذلك اليوم، عادت المياه إلى مجاريها، تسقي الزرع وتُفرح قلوب المزارعين.

سلمى جدّة والدي التي اختبرت صقيع الحياة وشراستها من دون أن تكسرها أو تهزم إيمانها بالأرض، كانت اليد التي امتدت إليّ لتقتلعني من قضبان عزلتي. فحين لم يعد لمراهقتي المتقدّمة، كرسيّ وطاولة في معهد التوحّد، رحّبت سلمى بابنة حفيدها في بيت العقد والقناطر المثلّثة. قالت لي «الطبيعة بفصولها الأربعة سوف تفرش ألوانها على ورقتك ولن تبخل بوحيها عليك».

هنا أصبح بيت العقد خلوتي، أحمي فيه عالمي الجوّاني من أي تطفّل على غربتي، وأطمئن الخوف المعشّش في عينين تترقبان باستمرارٍ خطراً قد يداهم توازني الهش. سناء، في عرف والدي، كانت ربما الوحيدة، القادرة على أن تمسك بخيط هذا العصفور وتعلّمه على الطيران. سناء، المتفوّقة ذكاءً وحسناً وطموحاً، لم يكن ينقصها لتبلغ الكمال، سوى قطرة حب تروي بها قلوبنا العطشى إلى الحنان. قلبها المغلق كان شبيهاً بالأبواب التي كان يوصدها والدي عمداً، حتى نظل في أمان تحت جناح الليل. بتمرّدها عليه، أفلتت الخيط الذي كان رباطي بها.

انتقالي إلى القرية بمتاعي الزهيد، كان كهدية العيد من سلمى الجدة إلى حفيدها الضائع في أبوّة لم يكن على قدر استيعابها.

وقف بعيداً عني ينتظر رحيلي من بيت المدينة، ودمعة كارجة على خده. كنت أود لو تصطلح أموري مع ذاتي لأفرش جناحي عليه. كنت مكبّلة، عاجزة عن الإقدام بخطوة، ربما كان بها شفائي. وبقيت مسمّرة في مكاني، وفي سرّي يقينٌ بأني من ضلعه، وريثة حقوله الجوفية اليابسة. سوى سناء التي استولت، بنجاتها من هذا الإرث القاحل، على كل ما حرمت إياه صغيرة، الشمس والحرية والعبور أبعد من ذاتها.

في ذلك اليوم وأنا في انتظار سيارة الأجرة لتقلّني إلى قرية سلمى، كانت سناء تؤدي واجبات الضيافة لرفيقتها «هلا». فجأة، أحسست بذراعها تغمرني مودّعة، وبسخرية ظريفة، تعرّفها عني بالتلميذة المتفوقّة، الحائزة من معهد المتوحدين العالي، جائزة في رسم الأشجار العارية. الأصحّاء لا يُعيرون أهمية لأحاسيس المتوحّد المقشعرّة لأي ملمس ولأي مسمع.

«هلا»، الفتاة الفلسطينية، حلّت مكاني. أصبحتا لا تفترقان. تأثيرها فيها كان، بنظر والدي، إنحرافاً عن معاييرنا الحياتية المتواضعة. اختيارها العلوم الإنسانية اختصاصاً، ظهرت علاماته الأولى في تخلّيها الفظ عني واللحاق بـ «هلا» إلى المخيّمات الفلسطينية. وحجّتها أمام ذهول والدي، أن العمل الإنساني في بؤرة الفقر والحرمان هو من صميم اختصاصها الجامعي. معايشتها المأساة الفلسطينية عن كثب، خلقت فيها حقداً على المجتمع اللبناني وخصوصاً على ثراء طبقة منه، تنعم بالرفاهية والترف على هامش ما يؤاسيه اللاجئون. الصور المذلّة، المعممّة على صحف العالم وشاشات تلفزيوناته في الشرق والغرب، بعبورها السريع أمام المشاهدين، لم تكن توازي قيراطاً من

هول الأنغماس، جسداً وفكراً، في روائح البؤس وألوان الفاجعة. من هذا الاحتكاك شبه اليومي في جحيم المخيم، لقّمت سناء حواسها بالفظائع التي ارتكبتها إسرائيل بشعب، مَسمرَ مفتاح البيت في عبّه وقطر شجرة الزيتون وراءه. الذاكرة تعلّم المنفي عن أرضه أن يوقد حطبها باستمرار حتى لا تذوي رماداً. هذا ما كانت تجمعه على مسجّلتها، موضوعاً حياً لأطروحتها:

«على عتبة التخشيبة التي ألفَتها العائلة مسكناً موقّتاً إلى أن يحين فرج العودة، التقيته، ساهماً في ماضيه، ينفخ من سيجارته دخان ذكرياته. خليل، والد «هلا» أصيب بعد النكبة بداء الأرض، يراها في اليقظة والمنام تنزف دماً من شرايينه. أجلس بالقرب منه لأجني من شهاداته ما يغني دراستي، فأسمع عويل فتىً ما زال هناك، مختبئاً وراء سياج العلّيق يرى بأمّ العين مصرع والديه، بينما مأساة الاقتلاع عن الأرض والهوية كان لها بلسان سهام، الوالدة، إيجابياتها:

«في هذا المخيّم المتخم بالذلّ والقهر، خفق قلبي لشاب وحدانيّ، كان يجلس تائهاً، على الحدود المرسومة للاّجئين، كمن يرسم في خياله درباً للحرية. صرت شيئاً فشيئاً أقترب منه إلى أن صرت بمحاذاة صمته، أبوح، بصمتي، حبي له. هذا الصمت بنى عائلة، لولا المخيّم لما كانت. كان المشيّعون يقولون، خليل وسهام كشحا بحبهما الحداد عن وجه فلسطين. لكن، بعدما كبر الأولاد وعلى صفحات دفاترهم يصرخون كلمة ثورة، عاد وجع الحنين إلى خليل، لاجئاً في منفى صمته. أسمعه يرندح مواويل من هاك الزمن ثم يمسحها بكف دموعه». هكذا حكت والدة هلا.

وتضيف سناء: «في الطبق الذي غمستُ فيه لقمتي مع أفراد عائلة «هلا»، ومعهم مضغت طعم العلقم، أحسّست بالطّلْق الموجع لمسودّة، سهرت عليها الليالي، وريشتي تدفق على الورقة بكل ما تتأزّز منه الحواس وترفضه العدالة الإنسانية، لألد بعد أربع سنوات مرجعاً أكاديمياً لطلاب العلوم الإنسانية، وشهادةً قيّمة ختمت بها سنواتي الجامعية».

من بين الأشياء الباقية في البيت المهجور من أهله، وبعد غيابي سنوات عنه، صورة سناء تتصدّر بين الكتب المنحنية بعضها على بعض ضجراً. وقفت وجرح الفراق ينزف من جديد، أتأمل الفرح المشع من عينيها وهي تتسلّم من عميد الجامعة، الميدالية الذهبية على أطروحتها القيّمة «العلقم في فم أطفال فلسطين». امتدت يدي تلقائياً إلى المجلّد البنيّ، أنفض عنه الغبار بحثاً عن أخت فقدتها، لأجدها في رسالة موجعة، أهدتها إلى الإنسانية المعذّبة. شعرت فجأة، وأنا أمام الصفحة الأولى، بأن الجدار الذي كان مرتفعاً بيننا، زال بفعل الزمن. عدت توأمها، أناها الأخرى، وحدسي يُنبئني، من الإهداء في بياض الصفحة الأولى «إلى ماهر... كنتَ تسمّي مساحة جسدك وطناً»، بأن أطروحة سناء كانت من غير أن تدري، تعبيراً عن الثورة المتأصّلة فيها، والتي اجتاحتها شيئاً فشيئاً حتى انخراطها في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

أعدت المجلّد البني إلى الرّف إلى جانب صورة سناء، وأنا أتصوّر حياة شقيقتي الغامضة في الكلمات الأخيرة التي ختمت بها خمسمئة صفحة من التنقيب في مأساة المخيّمات الفلسطينية، تفوّق فيها النفس الإنساني الشاعري أحياناً على المادة الأكاديميّة.

«الطبيعة هي الحضن الواقي لمن يُحسن الإصغاء إليها».

هكذا كانت سلمى تقول لفارس، وفي نبرة صوتها سطوة المعلّمة الحائزة أرقى العلوم من مدرسة الأرض. حفيدها هو رهانها حتى لا تتوقف الحياة.

كلمة قالتها يوماً ولم يكن الفتى تعدى العاشرة، دخلت في قنوات فكره وتحصّن بها:

«الأرض إن أهملنا رعايتها تصبح كفناً للذاكرة».

«والأم يا ستي؟» سؤال قاضم كالخوخ الفج كان يربط بشباكه لسان فارس وينهيه عن تكراره.

من مصرع والده رفيق، واختفاء أمّه هدى، حفظ فارس الصغير لمامات من حكاية، حبستها سلمى زمناً في عبّها، ولم تتفوّه بها إلى أن ضاقت بها ذرعاً. فمن دون أن تدري أن لهذا الطفل الذي كان البارحة مقمّطاً، سارحاً

بين رجليها كهرّ لقيط، أذناً تسجّل، كانت عند الظهيرة حين تشتد حرارة الشمس، تجمع تحت أغصان السنديانة الألفيّة، الرجال والنساء الآتين من كل صوب للقطاف، لتروي لهم، مع لقمتهم المغمّسة بالعرق والفقر، الفاجعة التي زعزعت حياتها وحياة الطفل:

«ولم أيأس، بل واظبت على اهتمامي بالكرم و بستان الزيتون، وفاءً للإرث العائلي الذي لم يبق منه سوى حفيدي فارس. تولّيت تربيته يتيماً، بعد مصرع والده في عز شبابه، يا ولدي، واختفاء أمّه حالاً بعد الجريمة».

لم يحفظ الصبي من حكاية كانت تدور وتدور على لسان جدته دونما ملل، ما دام في الكرم عنقود لم يُقطف وحبة زيتون منسية على غصنها، سوى أنه ولد لا أب له ولا أم. إلى أن أتى زمن الكتابة.

«غياب الأم تعادل ذات يوم بتعلّقي بالنقّافة. أصبحتُ ملمّاً بها إرضاء لطبيعتي المتوتّرة. كانت سبيلي إلى أعشاش العصافير ومطاردة السقايات وزيز الحصاد والكلاب الشاردة. كلّما عدتُ إلى سنيّ طفولتي، تذكّرت النقّافة والأذى الذي كنت أقترفه بلذّة على كائنات ضعيفة، لا حصن لها ولا حماية، فأقشعر اشمئزازاً من الولد الذي كان، من حيث لا يعي، يمارس عليها ما كان في ودّه اقترافه على ذاته، كأنه في قرارة نفسه، ينتقم من هذا الوحدانيّ، الشارد في القرية ككلابها، حين تغفل عين جدته عنه، فيسمعهم يتهامسون: هذا فارس ابن هدى المجنونة».

للذاكرة جيوب تخزن في الصغر بذوراً كالتي يحفظها المزارع إلى أن يحين

طمرها في التربة، أينع الولد وكبر في ظل رعاية سلمى، وفي فكره المضطرب سرٌّ أقفلت عليه الجدة: هدى المرأة التي تخلّت عنه بعد أن أطلقته إلى الحياة.

التاريخ منقوش على جبين سلمى، المرأة التي لم تُحبط المآسي عزيمتها، بل ظلّت تصارع القَدَر ووصيّة يونس لها تدوّي في ضميرها، يوم اقتلعه العسكر التركي من بستانه أمام عينيها، واقتادوه إلى سفر برلك مع شبّان انخرطوا في المقاومة من جميع أنحاء القرى اللبنانية، الجبلية والساحلية، دفاعاً عن الحرية واستقلال بلدهم عن التركي المغتصب أرزاقهم وشرفهم. نظر إليها مكبل اليدين وقال:

«إيّاك يا سلمى أن تُهملي الأرض، بل ثابري على إيقاظ مواسمها حتى لا تصبح كفناً للذاكرة».

كيف في وسع هذه المرأة التي وجدت نفسها المسؤولة الوحيدة عن الرزق وتربية طفلها، أن تنسى:

«تجذُري بالأرض كان وعداً مطلقاً للذي كان يتنبّأ بكوارث طبيعية على محاصيل الخل والزيتون حيناً، وحيناً أسمعه يرفع صلاة الشكر أمام منظر الكروم المكتنزة عناقيدها بحلاوة الخالق، وأغصان الزيتون الملتوية تحت ثقل حملها. والدك يا رفيق، هاجر إلى أوستراليا هرباً من الفقر، هذا العالم الجديد الذي دخل بإغراءاته في دم رجال هذا الوطن.

شبّ رفيق، بلا أب يحتذي به. وكانت سلمى حين يسألها عنه، تتخيّل قصصاً تغمر قلبه الحزين بالفرح:

«والدك يجمع الذهب في أوستراليا. بثياب العيد والزغاريد سنستقبله حالما تصل باخرته إلى المرفأ، وفي متاعه ألماس وياقوت وقمصان من الحرير».

وينام رفيق على هذه اللازمة التي كانت سلمى تؤجّج بها خيال ابنها زاداً، يحمله معه إلى مناماته. فحتى بعدما أتاها خبر وفاته بداء التيفوس في سفر برلك، كان لا بد للحكاية من أن تكمّل مسارها إلى حين أصبح الولد على قدرٍ من الإدراك بين الواقع والخرافة.

الولع بالأرض إنتقل بالوراثة إلى فارس إلى أن أصبح مع الوقت خبيراً بين المزارعين. كان يتطلّع إلى المستقبل، تاركاً الماضي ومآسيه لهذه الجدّة التي كانت، بجلوسها على عتبة البيت عند المساء، تعود تتذكر الأهوال المتراكمة على الوطن كعقاب، لا فسحة أمل له.

كالوشم الأبدي، كانت الجدّة تجترّ الماضي في ذاكرتها، ترويه للمرّة الألف لحفيدها فارس، وهو مُنصت إليها، إلى أن بات لا يسمعها، تائهاً في سأم حاضره.

هي هذه الوصية التي نقلتها بالحرف الواحد إلى فارس، يوم سلّمته شؤون الإرث، ولم يكن سواه لهذه الأمانة بعد وفاة والده، وفي سرّها يقينٌ بأن هذا المكفهر دوماً، لا يبتسم، صاحب السجلّ الأسود في محكمة الكلاب الشاردين وأعشاش العصافير والزيزان، سوف لن يحب الأرض ولن يسهر على رعايتها. هاهو يوماً ما سمعته من ابن السادسة:

«أنا لست أفضل من كلب جربان يستحق أن يموت».

سلمى، الصبية التي لم يسمح لها فراقها الأليم عن يونس بأن تحقق أمنيتها في بناء عائلة تنغل بالبنين، وهبت أنوثتها المتفجّرة شهوةً كتومة، للأرض. كانت تشعر برحمها ينبض لذةً حين يبرعم العنقود على أمّه وتلتوي أغصان الزيتون بحمولتها. رحمها والأرض لم يعودا يفترقان. من قشعريرات واحدة وعطش واحد إلى النكش والري كانا. فكيف كان في وسعها أن تأخذ إجازة من قرانها الأبدي بكل حبة تربة، و هذا الفتى الغامض لم يبشّر، منذ أن انفصل عن حضنها، بأنه سيكون وريث وصيّة يونس.

«بعد سنوات في مدرسة الرهبان الداخليّة، عدت إلى حضن الأرض وفي أعماقي الصامتة لهفٌ إلى حضن آخر، ظل يراود خيالي طوال الأعوام التي عشتها بعيداً عن القرية. ثمة رائحة معشّشة في خلايا شمي، كانت تذكرني بحليب الأم. في سن المراهقة، كنت أغدو باكراً إلى المعلف الخاص ببيت سجعان وأتفرّج على العنزة البيضاء تدرّ من ثديها حليباً لجديها الرضيع. أعود إلى البيت ومعي الإبريق طافحاً بالرغوة الدسمة، ونفسي طافحة بطعم عتيق، تبحث عنه وتمقته في هذه التناقضات التي تعايشتُ معها من دون أن أجد توازناً أبني عليه أساسات لحياتي.

«كنت أهرب إلى الليل وفي خيالي قصةٌ أستهلّها من الفصل الأول للتكوين، من ذلك الرحم الذي أطلقني إلى الوجود. فبينما الجدة تغط في نوم التعب وشقاوة الأرض، كنت أحمل القصة إلى مناماتي لعلّي أفض

الغموض المحيط باختفاء أمي. المشهد المنساب في كسور المنام والذي عبثاً كنت أحاول رتق شقوقه عند اليقظة، بان لي شيء من مغازيه حين أصبحت على عتبة الشباب، حرّاً من جدتي الرقيبة، والمتجسّة على أحلامي وصحواتي. ففي الليلة الأولى التي غادرتْ فيها جدتي القرية مع نساء الأخوية لزيارة مقدّسة إلى حيث ظهورات السيدة العذراء في لورد، تحرّر المنام من رقابتها داعياً إياي إلى فك أحجية، ولو مبهمة، من ولادتي. صوت الأم أتاني من قارة بعيدة:

«ما زلت يا فارس بانتظار رسالة منك».

لتلك الليلة من إعتدال الخريف، ذاكرتها. فبعد سنتين من شحّة الينابيع وعطش التربة إلى قطرة ماء، الأمل منها أن تعيد إلى الأشجار الشاحبة نضارتها وإلى سنابل القمح الملتوية على حالها كبرياءها، استفاق الناس على دويّ رعد مصحوب ببرق خاطف ترك في أعين الشهود، ما يشبه إشارات مكتوبة بأحرف من نار. أمام هذه الخطوط التي كانت تمزّق بشرة السماء كشفرة حادة، انقسمت القرية والجوار إلى قسمين: مؤمنون مستسلمون لإرادة الخالق، قرأوا في هذه العلامات بشارةَ مطر وجيز، جزاء إيمانهم الصامد وابتهالاتهم الحارة، كما فسّرها أبونا مخايل في عظة الأحد. وفي الجهة الأخرى، ملحدون، متمون إلى تيارات فكرية يسارية وأيديولوجية. هؤلاء، نكاية بالكاهن ومواعظه، قرأوا في الشهب المسنونة كسيوف محاربة، علاماتٍ تخريبيةً، قد تعيد النزاعات الدموية التي كان لا بد منها في كل موسم من مواسم الحصاد، لا حصاد القمح والذراة والبطاطا، بل محاصيل

الحشيشة التي كانت تؤجّج الأطماع فور ارتفاعها في أكياس الخيش على الميزان، وتحوّل الشراكة إلى منافسات أقوى ضراوة من المنافسات في أقلام الاقتراع. التصفيات كانت جزءاً لا يتجزأ من هذه الفاقة التي كانت تجني لزارعيها الغنيمة وفديتها.

آثار الدماء التي تغلغلت في الأرض، على مدى سنوات طوال، تركت بذوراً للذاكرة، ولاسيما كلما أزهرت مع كل ربيع، أجمام حمراء من شقائق النعمان، في المكان الذي هدر فيه دم رفيق بطعنة سكين في خاصرته.

زراعة حشيشة الكيف وبذور القنّب المستوردة من الهند، مشروعٌ جَسور، حلم به مزارعان مرموقان في القرية، من آل شيبوب و آل كيرواني، بعد أن يئسا من موارد زراعة الحبوب والذراة والبطاطا، الضئيلة، نسبة إلى ارتفاع كلفة الأسمدة والمبيدات وشحة مياه الينابيع، موسماً تلو آخر. بالحيلة والرشوة، استطاع رفيقا الصبا أن يحقّقا حلمهما، بإخفاء معالم هذه النبتة الفوّاحة، ضمن سياج من دوار الشمس، مدعوماً بأشجار السرو حين بدا إدمان هذه الزهرة الشمسية الجميلة على عبق حشيشة الكيف، ظاهراً. ففي ترنّحها نشوة مع كل هبّة نسيم، صار المستور مكشوفاً للعيان.

الغاية من إتلاف براءة التربة ووداعتها من جذورها، وتحويلها إلى سموم قاتلة، لم تكن للتنعّم بالمال الوفير فحسب، فالمال سلطان، كفيل بأن يبلغ به الثري أمانيه من أين جاء بثروته. فيوسف شيبوب استطاع، بكرم الضيافة والرشوة، الوصول إلى المخترة، بينما أنيس الكيرواني، باستثماره ببلديات المنطقة، فحّت روائح حشيشة الكيف في جيوب الفقراء وحسّنت أحوالهم

المعيشية. فبعد أن خدموا أرض الأجداد بدمائهم و كانوا عبيداً لها، أصبحوا عبيداً لأرض آل شيبوب وآل الكيرواني وخدّاماً في فردوسهما.

التواطؤ الذي قام على قدم وساق بين الجارين، وفي اعتدال تام بما كان التجار في تجوالهم بين الشتول المتعجرفة، الشامخة كبرياء، يسعّرونه بالتساوي، تحوّل مع الوقت إلى منافسة حادة بين الأبناء. فالمال القذر الذي نشأ عليه أمين شيبوب وكريم كيرواني، وتصادقا معاً على تبذيره في الملاهي الليلية في بيروت وعلى الحسناوات، أصبح له طعم الغيرة القارصة، وسلطة عمياء كان يسعى كل منهما لممارستها على الآخر.

النزاع الذي شبَّ بينهما في ساحة القرية في تلك العشية، اختلطت فيه الأسباب بالاتهامات والشتائم. كان اسم جيهان يلعلع كالرصاص، ويتفشى بين الشهود، حاملاً ملامح امرأة، قادرة بسحرها على أن تفرّق بين الصديقين، وتجعل من المعركة الكلامية، شراراتٍ من فوّهة بركان. بلحظة، كان أمين يستل من جيبه سكيناً، والغضب كزئير حيوان جريح، يرغو من فمه، وقبل أن يقترف جريمته، كان رفيق، بإسراعه إلى الفصل بينهما، يتلقى الطعنة القاتلة. هوى على الأرض متخبطاً بدمائه، وسلمى المفجوعة تولول:

«اللعنة على حقولكم، تدرّ لكم المال الملوّث بالخطيئة، وتجلب الويلات على القرية».

اقتلاع إرث عائلي من جذوره، كان تحدّياً كبيراً لقرية نموذجية، ظلّت متمسّكة بالأرض، حاضنة بوفائها لها، وصايا الأحرار الذين هدرت

دماؤهم بخناجر العسكر التركي، وعُلّقوا على المشانق، أو اقتيدوا إلى المجهول. كان التاريخ يتنقّل من جيل إلى آخر، لا كما جاء في الكتب المدرسية، بل بلغة عاميّة ولهجة أهل القرى، الأقرب إلى الأرض من صفحات مكتوبة بالحبر المغشوش أحياناً كثيرة.

المعذّبون يحفظون الأحداث الدامية والمآسي التي يقترفها الأشرار بحذافيرها. سلمى لم تنس. انتظرت أن يصبح حفيدها راشداً، لتقصّ عليه الحكاية قبل أن يباغتها النسيان. لكنْ، من كل ما خزّنته جدّته في رأسها لم يحفظ فارس الوحدانيّ، سوى الوصيّة التي تركها جده يونس لجدّته، يوم اقتاده العسكر التركي إلى المجهول: «الأرض إن أهملتها أصبحت كفناً للذاكرة».

لم تكن تدري سلمى في ذلك الوقت أن خزّان حياتها الذي راكمت فيه الذكريات الحلوة والمرّة، سيكون له أذنٌ، فتيّة، مصغية، وقلمٌ يكتب الأحداث بخط التلميذة المبتدئة.

«يوم فتحت لي جدة والدي قلبها والبيت، ويقينها أن حياة البرّية سوف تمنحني الحرية الشافية من هذا الداء الغبي، كما كانت تسمّيه، انتقلت الحكاية إليّ، تعيد استذكارها كي لا تنسى. كان والدي يقول عن جدته بأنها حكواتية من طراز الحكواتية القدامى، تروي الأحداث بأسلوب من التشويق. أمّا في ذلك الصباح ورائحة الزيزفون تطيّب جو المطبخ، فقد نادتني لأحتسي معها نقيع هذه العشبة اللذيذة التي كنت أطوف البراري برفقتها للعثور عليها. كنت المصغية الوحيدة إليها. في عينيها المسوّرتين بتجاعيد الهمّ والعمر، قرأت مشروع مذكرات في حاجة إلى قلم يدوّنها، بينما استبشر والدي من الإملاء الصباحية خيراً، كتمارين مفيدة لذاكرة جدته، وفي آن انعتاقاً ولو شحيحاً من ظلمة ابنته. لم يكن والدي، بانحباسه في مضيق تربيته، قادراً على أن يقشع النور الذي بثّ عليه أشق درب خلاصي.

الأرض التي تلقّتني في رحابها، لفتت انتباهي المغلق إلى ذلك الحين، على علاقتي الوطيدة بها. فالصوت المنبعث منها وأنا أدوسها برجليّ، بات في كل خطوة، كنداء جوفي، يستوقفني في أثناء نزهاتي الباكرة في البرية، ليؤكد لي فراري من سجن علّتي إلى رحاب لا حدود لها. أمشي وأمشي كمن يقرأ رسالة مكتوبة في حفيف الأوراق اليابسة، تحثّني فجأة على التوقّف حيث أنا، بلا حراك، فأسمع همسات عجيبة، تعيدني إلى الثواني الأولى من سِفْر التكوين. هذا اللقاء الباكر مع الطبيعة، أصبح له مردوداً على نفسي التائقة إلى سر الله. كائناً مقشوراً عن غلافه الواقي صرت، أتحسّس الكون بحذافيره، وكلّي اندهاش أمام روائع الخلق. حتى إذا حان وقت الإملاء، أعود إلى بيت العقد وسلّتي مملوءة بالشمّر والجرجير والزعتر. أُلقي بحملي الخفيف على عتبة البيت، وأقف هنيهات لأتنشق فوح الزيزفون يغمر أنفاسي. من هذا النقيع المندّى من مسام الإبريق، كانت صبحيتي مع سلمى وذكرياتها مع الماضي.

«قلمي المتأهب، كان ينتظر كلمة منها ليباشر بالكتابة. شرودها في ذلك الصباح بعيداً عني، كان مؤشّراً على أن هنالك أكثر من الذكريات تودّ أن تفصح عنه هذه المرأة التي ما زالت تحارب القَدَر وتسعى لأن تتساوى ببراثنه. نظرتْ إليّ ملياً وقالت:

«اسمعي يا رشا! لعلّ ما سأقوله اليوم لأول مرّة، لن يروق لك سماعه. الصراخ في صدري بات كالعواء، وقد آن لي أن أطلق سراحه قبل أن أموت».

«أحسست بقبضة حديدية تعيدني إلى القفص الذي خلتني تحرّرت منه. «المتوحّد لا يشفى» قالها الطبيب، ثم تداركاً للصدمة التي تلقاها أبي، بشّره بلباقة، بأن في بعض الحالات، يصل المصاب إلى درجة كافية من الاستقلالية. لم أنسَ. جرعة الزيزفون كانت حارقة في حلقي، حارقة سلمى في محاكمتها القدر الذي أبلاها بنساء جلبن النحس على العائلة:

«على الرغم من الصمت الذي يلفّك أحياناً يا رشا، فإن البيت تروحنَ بوجودك وزالت عنه رائحة القبور. والدك، وإن أخذ عنّي عبء الأرض، بوفائه لنصيحة جده يونس، رجل حيٌّ- ميّت، قليل الكلام، عديم الشهية على الحياة. مأساته، مذ أطلّ على الحياة، هي المرأة. أمه هدى تخلّت عنه رضيعاً. ثريا زوجته، أضافت إلى حزنه المزمن فاجعةً بموتها، تاركة له أثقال أبوّة لم يستطع مجاراتها. سناء المتمرّدة، حملت جفاف قلبها إلى المخيّمات الفلسطينية، لعلّ هذا القلب، في البؤس والحرمان، يرتوي، من دون أن تتأثّر من بعيد أو قريب بالكوارث التي عانتها عائلتها. وأنت يا رشا، القابعة في صمتك، ومَن يدري ما تقشعين وما تسمعين مذ انطلقت في الحقول والبراري، تعودين صامتة كما ذهبت، يحكي عنك ما جمعته في سلّتك من تسليق وبلّوط وأعشاش هجرتها البلابل. أتطلّع من خلال كل ذلك إلى المستقبل ولا أرى شيئاً. أما لهذا التاريخ الأسود نهاية؟»

فتحتُ الدفتر على الصفحة الأولى، أنتظر منها إشارة. كأني لم أسمع شيئاً. المتوحّد لا يتفاعل بسرعة مع ما يجري خارج فضائه البخاريّ، بل يخزّنه مؤونةً إلى أن يجد التربة الصالحة لزرعه. فتجربتي مع هذا الداء، وسعيي

الذؤوب لاكتشاف النواة المعرقلة دربي إلى الضوء، لم يقلاّ أهمية عن تجربة علماء الفيزياء مع نواة الذرة التي منها كان كل شيء.

انتظرت، وقلمي واقف على السطر، أن تبدأ حكاية كنت متشوّقة إلى كتابتها:

«في ذلك الزمن لم يكن للفتاة حرية اختيار عريسها، ولاسيما في هذا المجتمع الفلاحي الذي كنا نعيش فيه، مستعبَدين من نزوات الأرض، مستعبَدين من طغيان الإقطاعيين، الذين كانوا يسلبوننا أتعابنا باستيلائهم على خيرات الأرض وجودة محاصيلها. الظلم كان عقيدة من مبادئ الحياة، يستسلم له الفلاّح الفقير قدراً سنّ له من الخالق. فبعد زواج شقيقتي نزهة الشقراء، الحلوة، من نايف المعلّم في مدرسة الضيعة المجاورة لنا، بدأ الاستعداد لأنفاق لبيبة لأي طالب زواج، غير أن وفاتها بالسل، حلّ لوالدي مشكلة الجهاز وفستان العرس والطرحة، وظلّت والدتي تشك الإبرة استعداداً لزواج ابنتها الثالثة. فوالدي كان على أحرّ من الجمر ليزوّجني بأي عابر سبيل قبل أن تفسد البضاعة في بيته.

«كانت هي المرّة الأولى التي أقف فيها ملياً أمام المرآة، أحدّق في هذه الصبيّة، ابنة الخامسة عشرة، المطلوبة للزواج، لأسألها من تكون.

«أذكر يوم دخلت مرتا، زوجة حنّا منصور المغترب في أوستراليا، وأمنية والدي أن تكون الغاية من هذه الزيارة غير المعتادة بين العائلتين، طلبَ يدي. فبينما كنت أقوم بواجبات الضيافة، صرت أتحسّس نظرات هذا

الشاب، ممعنة فيّ، تلملم حبّات من أنوثتي الضائعة بين أكوام الحطب، ولمّ الزيتون، وعصر العنب خلاً، ولمّ الجرجير والسمّاق من الحقول. كنت أنثى في ذلك اليوم الذي ارتعشتْ فيه يدي خجلاً وأنا أناوله قدح شراب التوت، وأسترق في آن معاً ما كان يقال بين والدي والست مرتا. بدا التفاهم تاماً حين وقفت مرتا مودّعة، ووالدي عند عتبة الدار يؤكّد لها، بأسلوب الفلاّح الذي لم يَر في المرأة سوى صورة عن الرزق الخصب حيناً، والقاحل حيناً آخر، أن سلمى هي كمواسم الخير، واعدةٌ بالخير والبركة.

«بالكد والعناء والتوفير، تحرّر نبيه رستم، والدي، من طوق الظلم والابتزاز الذي كان الإقطاعيون يمارسونه على الفلاّحين، باقتنائه بسعر زهيد، بستان زيتون كسدت موارده وما عادت صالحة للاستهلاك، بعد أن تخلّى مالكه كميل السمراني عن استثماره والعناية به. الحلم الذي راود كميل السمراني مذ شبّ ولمس سُبل العيش الزهيدة في المنطقة، كان على خطى من سبقوه، الاغتراب إلى المكسيك. انتظر الناولون ثلاث سنوات، إلى أن أتاه أخيراً كالمعجزة من خاله، بعد أن كاد يفقد الأمل. بغضون سنة على اغترابه، صار اسمه كاميليو، يبعث إلى خطيبته هند، رسائل كلها شوق وحنين، مرفقة بصور يعتمر فيها حيناً السومبريرو، وحيناً ملتفاً ببانشو اللباس الفولكلوري التقليدي، من دون أن يسهو عن باله أن يخط على ظهر الصورة: «حتى لا تنسيني». مكتبة

«مضت الأعوام، وبستان نبيه رستم يزهو بأجمل مواسم الزيتون، بينما راحت رسائل كاميليو تشح كمياه الينابيع، إلى أن توقّفت نهائيّاً مع إعلان

الحرب العالميّة. الإبرة، التي كانت تخرّم بها جهازها، ملّت الانتظار ولم تملّ هند من وعد كاميليو لها، إلاّ حين استيقظت والعسكر التركي في عين الشمس، يفرض بالسوط والشتائم سلطته وطغيانه على الناس. كنا نتلطى في القبو، السبيل الوحيد لنبقى أحياء. وهل يبقى الدم يسري في العروق ومحاصيل العمر تُنقل على ظهور الخيل مبلّلةً بعرق الفلاّح وشقائه، مخضّبةً بدم النبيذ والخل والزيت؟»

فجأة، توقّفت الجدّة عن الكلام، كأن سدّا وقف مانعاً أمام هذا السيل الجارف. سلمى الفلاّحة، الجبّارة التي لم تهزها العواصف، لا الطبيعية ولا الحياتية، تذكرت وهي تُملي عليّ حكايتها، بأن ثمة ديناً باهظاً سهت عن إيفائه للمرأة المعشّشة فيها. كان البوح مغمّساً بالأسى:

«لمّا انتهت الزيارة، والمعنيُّ الوحيد في هذه الصفقة المتواضعة، والدي، جمعني مع أمي ليُعلمنا بأن العرس حدّده مع الست مرتا في شهر أيار:

«أمامك يا سلمى سبعة أشهر تتحضرين خلالها لأن تصبحي زوجة يونس. فيونس سيكون لي أكثر من صهر، الابن الذي لم أُرزق به. سوف أدرّبه على هذه الرسالة المقدسة، لنجعل منها إرثا يكمّله البنون من بعدي.»

نبيه رستم كان فلاّحاً عاطفياً، أقام مع الأرض علاقة الرجل بالمرأة، يُفرغ في تربتها نخوته وشغفه بها. كان يعتبر خيانةً كبرى، تخلّي الأنسان عن أرضه. من هذا المبدأ، ولاسيما أن مواسم الزيتون صارت تدر عليه مكاييل من عرفانها لما فعله من تضحيات لإنعاشها، كان مشروعه الثاني،

الكرم اليابس الذي تركه أبناء توفيق بعريني بعد وفاته، للواوية، طمعاً بحياة المدينة.

يونس وإخوته، وعوا على الحياة بعد رحيل والدهم في نهاية القرن التاسع عشر إلى القارة الأوسترالية مع أوائل الذين أخذهم البحر إلى الاغتراب. شباب في مقتبل العمر، استهوتهم المغامرة في المجهول هرباً من الفقر واستعباد أسياد الأرض أتعابهم وشقاءهم. آباء تركوا عبء العائلة على أمهات تولّين تربية الأولاد بالصلوات والنذور، في انتظار مرسال أمل من الغيّاب.

أقبل يونس على سن الشباب وفي قلبه عتبٌ على هذا الوالد الذي لا يتذكر منه سوى أنه هاجر من دون أن يترك في قريته لا مدفناً لرفاتهم، ولا حقلاً يعتاش منه، ولا عريشة على سطح البيت تفرحه بعناقيدها. كبر والأرض حلم مستحيل يقرض من روحه نسرات، غير مبال لنداء إخوته إليه. الاغتراب كلمة، كانت توحي إليه بالغربة القاتلة. والمال الشحيح، الذي بات يصل إليه بين الفينة والأخرى، لم يكن ليلبي حاجاته مع والدته، أو ليحقق، على المدى الطويل حلم اقتنائه حقلاً.

أبونا مخايل الكاهن المعتّق في أبرشية الضيعة منذ عقود، ظلّ على الرغم من تقدّمه في السن، حريصاً على جمع الشباب بعد قداس الأحد والاستماع إلى مشاكلهم. كان يونس الغائب دوماً عن هذه الأجتماعات، شارداً في البريّة بحسب ما كان يتناقله الناس. بهمته المتثاقلة، أخذ أبونا مخايل عصاه ومضى في البراري يبحث عن ابن مرتا، حتى إذا رآه من البعيد جالساً تحت شجرة الجوز الهرمة، إقترب منه دون أن يحدث صوتاً وجلس في محاذاته.

للطيور حدس، تأتي حين يناديها الواجب. كان الشحرور أسرع من الضوء حين غطَّ على الغصن مؤرجحاً الهواء حوله. أبونا مخايل الخبير بنيات الطيور، لاحظ أن هذا الشحرور يحمل في بهلوانياته على الغصن المتدلّي فوق رأسه، مرسالاً، تلّقاه بفطنته ودعوته الروحية، لإنقاذ من هم في حاجة إلى يد تنشلهم من الغرق. كان يونس واحداً منهم. الشحرور، حين تأكّد من رسالته، قام ببهلوانيات أخيرة على الغصن، ومضى مرفرفاً بجناحيه إلى البعيد، تاركاً ريشةً منه، ظلّ الهواء يلوّحها إلى أن استقرّت بين العشب، تحاكي قلب هذا الشاب الذي جعله اليأس رفيق الثعالب والأرانب البريّة.

لّمها الأب مخايل من بين العشب حيث رست، وقال:

«افتح قلبك يا يونس واعترف لهذا الطير بما يؤلمك».

أجابه يونس فوراً، كثقل وجد الوقت المناسب ليفرغه ويرتاح منه:

«يا أبتِ، الغربة تخيفني ولا أرى نفسي مجبراً على الرحيل. أبي لم يترك وراءه حفنة أرض في القرية. وأسوةً بالرجال الذين نادهم الأغتراب، مضى مغامراً في المجهول، حالماً بخيرات البلدان البعيدة. من عامل في ورش البناء، أصبح صاحب معمل صغير للبلاط. إخوتي تأقلموا وتكيّفوا بقوانين هذه القارة ولغتها، بينما بقيت هنا مع أمي التي ترفض رفضاً قاطعاً الهجرة. كيف عساي أتركها وحيدة هنا، علماً بأني أكثر منها تعلّقاً بالقرية وطبيعتها، ولا أصلح سوى لأن أكون فلاّحاً».

كانت الفرصة مؤاتية ليفصح هذا الكاهن، المعروف في الضيعة والجوار بوساطاته لعقد الزيجات:

«سلمى ابنة نبيه رستم، فتاة يانعة برسم الزواج. والدها، أصبح، بتعبه وشقائه، سيد الأرض، بعد أن كان عاملاً فقيراً فيها. بزواجك منها تكون الصهر الذي يبحث عنه ليُلقي بجزء من حمله الثقيل عليه. اذهب مع أمّك واطلب يدها. فقد تكون سلمى رفيقة حياتك».

وتعود الجدّة تروي حياتها كما سنَّها لها القدر، شتلة، تربّت بلا ماء ترويها:

«بجرعة مطيّبة من شراب التوت، تحقّقت الصفقة بين مرتا منصور ونبيه رستم. خلال المهلة المخصّصة ليوم الزفاف، صار خيالي يدور في فلك هذا النهار الذي سيجعل الفتاة النحيلة، إمرأةً، كأن لا شيء حدث قبله أو سيحدث بعده. خِلتُ الزمن واقفاً، أبدياً وأنا بالفستان الأبيض والطرحة المعقوصة في شعري المجدّل، يرسمني الكاهن زوجةً ليونس؛ هذا الشاب الوسيم الذي علّق نظراته فيّ يوم جاء مع أمه يطلب يدي، بينما كنت أناوله كأس شراب التوت، ويدي ترتجف على إيقاع نبضات قلبي».

ما لم يفعله نبيه رستم لعرس ابنته الكبرى، زمن الفقر والقحط، عوّضه مع صغيرته سلمى بما درّت عليه المواسم المباركة من محاصيل الكرمة وبستان الزيتون. في ذلك اليوم السعيد الذي لطالما حلم به عرساً له يفوق عرس ابنته، وإيفاءً للإذلال الذي لبسه طويلاً، فاعلاً، محتقراً في أرزاق الإقطاعيين، كانت أعين الفضول مصوّبة إلى سلمى بفستانها الأبيض

والطرحة المعقوصة بالدبابيس في جديلتها، تجوب القرية في اتجاه الكنيسة، على ظهر عنترة الدابة التي استبدل بردعها الخشن للمناسبة، بأريكة من المخمل المطرّز.

«هذا الاستعراض، شاء به والدي أن يمحو من أذهان الناس ماضيه التعيس، بينما كنت في سرّي أعدّ الثواني التي تفصلني عن يونس. في داخلي المحجوب بفستاني الأبيض والطرحة الملوّحة في الهواء، كان إحساس غريب يغمرني، وأنا أحاول أن أكشح عن فكري هذا الشيء المُعيب الذي سيحدث بيني وبين يونس في العرزال الذي فرشته والدتي لاستقبالنا ليلة عرسنا. الفتاة البريئة، الماضية إلى الكنيسة على ظهر عنترة، كانت، من حيث لا تدري، تنضح من مسامها بخطيئة لذيذة، منبعثةٍ من أسفل بطنها إلى وجنتيها المتوهّجتين بأحمر الشهوة.

«هذه الخطيئة المباركة من الزواج، كانت أساس سعادتي مع يونس. ففي تلك الليلة وأنا أخلع عني فستان العرس الأبيض، رمز الطهارة والعفّة، نويت أن أرمي ورائي النصائح التي أسدتها إليّ أمي. فحتى آخر لحظة لم تنفكّ توصيني بألا أتصرّف كفتاة رعناء، خجولة:

«تذكَّري أنه زوجك ومن واجبه أن يجعلك إمرأة».

«لم تلاحظ أمي يوماً، أني من طينة مختلفة عنها. هذا الجسد التي تدرّب منذ الصغر على أشغال الأرض، لم يكن مرصوداً للآلام والشقاء فحسب، ففي كل ملمس غير إرادي من يدي على أعضائي، كنت أشعر من حيث لا

أدري بقشعريرات، تشرد بي إلى عوالم غامضة، ممنوعة، أعزوها إلى الخطيئة التي طردت حواء من الفردوس. هذه القشعريرات التي كنت أطردها في البدء من خيالي، حتى لا أقع في نار الجحيم، تأجّجت فيّ وأنا في فراش العرس أنتظره. كان البارحة غريباً عني، وها هو الآن مالك هذه الأرض، حارثها، وساقيها. شوق واحد جمعنا، كأننا طبيعة واحدة. بجسدينا صرنا زوجين و بقلبينا حبيبين».

أقفلت رشا الدفتر لاستراحة موقّتة، تعود بعدها إلى الإملاء في الصباح التالي، وخلايا فكرها مضطربة من اعترافات امرأة تجاوزت تقاليد زمنها، وما كرّسته التعاليم التربوية في عقول الفتيات عن الخطيئة الأصليّة، لتتبع نداء غريزتها، وما زال فيض الرغبة فاعلاً في جسدها المهدّل، لم تطفئه الشيخوخة ولا كوارث الحياة. تاهت في سرّ الله الذي ساوى الإنسان والحيوان، بتلك الجاذبية العجيبة بين جسدين دونما تمييز.

«بالرغم من السدود التي وقفت حاجزاً أمام غرائز أنوثتي، فإن قلمي كان في كل كلمة تمليها عليّ سلمى عن ليلة عرسها، يرتعش نشوةً. أسرعت إلى الطبيعة البكر، المكان الذي انطلق منه كل شيء، لأغتسل من آثار البركان الذي خرق مسامي، وفجّر فيّ حمماً كانت مكلّسة، لا حياة فيها. سلمى الجريئة، الوقحة في استذكارها الأيام الملاح مع يونس، لم تجد سوى قلمي المتعثّر على الأسطر، ينقل كما تمنّت، سيرة حياة بحذافيرها، بحميمياتها وتجاربها. مَن تكون هذه المرأة التي لم يَر فيها حفيدها سوى المثال للنضال والانتصار على هزائم العمر؟

«القدر، يا رشا، كان قاسياً و ليله طويلاً، لو لا هذه اللذة الخفيّة التي كنت دوماً عطشى إليها بين ذراعي يونس، تنسيني التعب والمشقّات. هذا الاتحاد الكلّي بين جسدين عاشقين، كان يشعرني، وأنا في ذروة السعادة، بأنه عطيّة ثمينة من الخالق، ينزل عن كاهل الإنسانية اليأس والحرمان.

«بنخوته وحبّه الأرض صار يونس الصهر، إبناً لرجل رزق بناتاً ثلاثاً، وظلّت شهوته للصبي عجوةً عجراء في بطن نجيبة، لم تتوّج بالزغاريد، إلى حين أتى وحطَّ في العائلة عافيته الجسدية الواعدة بالبنين.

«قدح النبيذ في المناسبات كان سكرة يونس، يخرج عن ورعه، يرفع الكأس قائلاً: أشرب نخب الامرأتين اللتين أغدقتا عليّ رغادة الحياة، سلمى والأرض.

الرسائل التي كانت تأتيه من إخوته، كان يشتم منها مادة إغراء وتشجيع له على الاغتراب، ولاسيّما في وصفهم له هجمة العالم على مناجم الذهب في هذه الجزيرة الكبيرة. لكن حبّه لسلمى كان أقوى كثيراً من ذهب أوستراليا. وبقي بلا تردد يزرع الأرض ويسقيها بعرق دمه. كان يجيب كلَّ من يسأله، بأسلوب ساخر عن سبب بقائه في فقر القرية على الإثراء بعيداً عنها:

«الأرض منجم ذهب أغوتني المغامرة الكبرى فيها، فلا هذا العالم البعيد أغراني، ولا البحر الذي بلع العديدين ممن حلموا بالذهب قبل الوصول إليه».

لكن أكثر ما كان يوتّر طمأنينته، أسئلة أمه الملحاحة، عن صحة ما كانت تسمعه من نساء القرية. تقصده بين أثلام الكروم بعيداً عن سلمى المتكمّشة

بزوجها، خوفاً عليه من الرضوخ لإغراءات إخوته والتخلّي عنها لذهب أوستراليا. لم تحبّ مرتا كنّتها التي أخذت منها ابنها وجعلته صهر بيت. كانت تتأبىّ مسايرتها، حتى لا تخرج هذه القطّة المتوحّشة أظافرها المسنونة وتخرمش بها كل متطفّل على حياتها.

«سنتان مضتا على زفافكما ولم يتكوّر بطن سلمى. خلال قداس الأحد، تتجه العيون إلى بطنها، تتفحّص أي تغيير طرأ على هذا الجسد الذي ما زال مسطّحاً كالمصطبة، كما قبل الزواج. فهل من أمر ما؟ هل هي عاقر، أم أنك غير صالح للزواج؟».

كلامها الجارح هزّه في الصميم. مرتا، التي لم تنسَ أن بقاء يونس في القرية، كان أكثر ما فيه تضحية لها. كان ردّه عليها واضحاً، صريحاً:

«سلمى ما زالت صغيرة على الإنجاب، فأمامها عمر الشباب كلّه لتصبح أمّاً. اطمئني يا أميّ، كل شيء يجري على ما يرام بيني وبين زوجتي. الولد يأتي في أوانه».

عادت مرتا صامتة، منكّسة من حيث أتت، ويونس في دوّامة من القلق. فكرة البنين شقت أثلاماً في نفسه، أكثر فلوعاً من أثلام الأرض. فأيُّ أب سيكون، وهل سيبقى له مكان في فراش سلمى وبين ذراعيها، بعد أن يأخذ الطفل منها كلَّ شيء؟

حتى ذلك اليوم، لم يفكّر يونس قط في ولد يرث اسمه. كان ما يكفيه مع سلمى التي لملمت تيهه في البراري، واحتضنته. تذكّر هذه الصبيّة النضرة،

التي من اللحظة الأولى من زفافه بها، شعر بها جاهزة لأن تهبه أنوثتها المبرعمة كأزرار الورد قبل أن تتفتح.

سلمى كانت مختلفة عن سائر بنات الضيعة. في سن الخامسة عشر، حين جاء يونس مع أمه يطلب يدها من والدها، كانت الفتاة المتفتّحة على الحياة، جاهزة لهذا الامتحان، وقلبها، في قفصه، ينبض بفرح التوق إلى الحرّية.

«كنت صغيرة في عرف الجميع، لكن عالمي السرّي امتلكته باكراً، وحلمي أن أتشارك به مع الذي سيصبح رفيق دربي. عينا يونس المحملقتان فيّ، أكّدتا لي أني في الطريق الصحيح. حكايتنا مع هذه التجربة الحميمة بدأت فوراً بعد مراسم الزواج ولم نخطئ. خوفي كان دوماً أن يجف عطشه إليّ.

«في الثامنة عشرة حين بدأت عوارض الحمل تهدّ عافيتي، تلقاه الجميع بالفرح والزغاريد، وكالصاعقة وقع على يونس. فالغثيان، والدوران، والتقيّؤ، أبعدته عن فراشنا، عن حياتي معه. بعد عمله في الكروم والبستان، عاد إلى حياة العزوبية، تائهاً في الضيعة، متمماً عمله الفلاحي على أكمل وجه، ثم يغدو في ساعات متأخّرة إلى العرزال الذي هجرناه مذ عمّر لنا والدي بيتاً متواضعاً لحياتنا، متاخماً لبيت العقد، وعذره لوالديّ أن المرأة الحامل في حاجة إلى الراحة، بينما كنت أشعر بإن وراء أعذاره، جيشاناً أقوى تأثيراً فيه من الغثيان الذي أذبل نضارتي، وأضعف عزيمتي وشهيّتي على الحياة...

«أطواره الغريبة انكشفت لي وأنا أقاسي من التغيّرات التي طرأت عليّ، ولاسيما بتبرّئه من وضع كان فيه الشريك الأساسي. ابتعد يونس عني.

الحمل اعتبره خيانة اقترفها بحقه هذا الجنين، الذي بتطفّله على حياتنا، احتل مكانه في البيت الحميم الذي كان له وحده حقُّ السكن فيه. حبي له أعطاني الصبر لأتحمّل هذا الهجران النابع من غيرة أكولة. فأسمع أمي تقول لي «شهران ويمرّان، يعود بعدها إلى ما كان».

عندما أصبحت سلمى في شهرها التاسع، وبطنها يكاد لا يتسع في فستان الحمل، جاء إليها مستغفراً. سلوكه المعبّر عن ولد أناني لا يقبل منافساً وإن كان ابنه، كان صريحاً في اعترافه لها:

«أنا منفيّ معذّب من مملكتي. الغيرة من هذا الشيء الذي تحملينه في رحمك، والتي كان في ودّي أن أصرخها عالياً بالبكاء والدموع لتعرفي مدى حبي لك. فليس لديّ سواك في هذه الدنيا يا سلمى. وتالياً من القساوة أن يأتي هذا القابع كالملك في داخلك، ويقتسم معي هذا الحب كله».

أمسكت بيده في رفق ووضعتها على بطنها لعلّه يتفاجأ بحركة الحياة النابضة في داخله، تنذر بقدوم الطفل إلى الحياة. ظلّت يده بلا حراك. انتظرت منه انفعالاً، يعيد اللحمة إلى ما كانت. كلمة قالها قبل أن يخرج من الباب هائماً في أفكاره العكرة:

«سيربى في دلالك. وسأحاول أن أكون له خير رفيق».

رفيق، هذه الكلمة الأخيرة التي تفوّه بها، ظلت في فكر سلمى:

«رفيق، سيكون اسمه».

«يونس، زرع فيّ روح الأرض. كيف أنسى ذلك اليوم الحزين الذي ألقى العسكر التركي القبض عليه، ونحن في عز قطاف العنب والزيتون، ونقل الغلات على ظهور البغال إلى المعصرة. وقفت والدم في شراييني كالحصى، أنظر إليه مقتاداً إلى منفاه، بينما ولدُنا الوحيد، رفيق، يلوّح بيده، مودعاً مسافراً، لن يطول به الغياب. كلمة أخيرة قالها، سوف تبقى تهدس في بالي، لا وداعاً، لا خذي بالك من رفيق، بل هي الوصية ذاتها التي نقلتها إلى والدك فارس، «الأرض إن أهملتِها أصبحت كفناً للذاكرة». المآسي لم يكن لها من نهاية.

«فبينما الغزو التركي ممعناً في القتل والتهجير وتعرية الناس من أرزاقهم وبيوتهم، لُذنا إلى الصمت، السبيل الوحيد إلى البقاء أحياء. لكن، هل يبقى الدم يسري في العروق ومحاصيل العمر ترحل على ظهور الخيول، مبلّلةً بعرق القمح والذراة والزيتون، مخضّبةً بدم النبيذ والخلّ؟

«التاريخ لا ينسى. يبقى ينضح من مآسي الماضي، ويُصدر أزيزاً من شقوقٍ لم تستطع الذاكرة الواقفة هناك، تطيينها، وقد أصبحت جزءاً مفحّماً من الحقول المحروقة. وهل ينسى التاريخ لعنة الجراد؟

«فبعد رحيل يونس، كانت الأمانة وعداً مقدّساً. بالدموع والحسرة أروي الشتول الجديدة الخضراء، أملاً في أن تزهو بالخيرات مع عودته.

«عند تباشير الفجر، رأى الصاحون، المبكرون في الذهاب إلى الحقول قبل شروق الشمس، ليلاً أكثر ظلمة من الليل. كانت جحافل الجراد مبعوثةً

من الباب العالي في مهمة مستعجلة. من أجنحتها، كانت تبعث صريراً مروّعاً، قبل أن تغط في ثوانٍ على الزرع وتقش بلمحة، الأخضر واليابس، تاركةً وراءها صحراء قاحلة. بدت أشجار الزيتون كهياكل عظمية تتحدى الموت في وقفتها الأبيّة. منها أخذتُ قوة للأستمرار، ومن رفيق، الناضج قبل أوانه، الصامد أمام ويلات القدر، درساً نتخطى به المآسي من أجل صيانة هذا الإرث، ومعه ذكرى والده يونس. صارت إرادة البقاء تحفر فيّ يوماً بعد يوم، ولاسيما بعد رحيل رفيق، تاركاً لي إرثاً أكبر من الأرض، فارس. أضمّه إلى قلبي لأخفّف بكاءه، كحَمَلٍ صغيرٍ يبحث في لحمي المتهدّل، الجاف، عن ثدي أمه ليرضع.

«سرحنا بين الأثلام ننكشها بأظافرنا لعلّنا نعثر بين شقوقها اليابسة على رأس بطاطا، فجلة، جزرة، نسيها الجراد، نسد بها جوعاً. كان القهر أقوى من الجوع والذلّ أمام عدو قاهر وإقطاعيين استولوا بولائهم له على أرزاق الفلاّحين.

«كيف أنسى هزة الضمير لدى ابني الوحيد رفيق، أمام هول الفاجعة. سمعته يناديني وفي يده حفنة تربة بزغ منها شرشٌ أخضر:

«بهذا العسقول يا أمي سنعيد إلى الأرض عزّها وزهوها». هل كان يتنبأ لنفسه، وكله رجاء في أن يعيد إلى الأرض عزها، بأنه سيرحل باكراً، ضحية نخوته لفض النزاع بين من لوّثوا الحقول بزراعة الحشيشة والقنّب؟ فهل كنت، وأنا أهدهده لينام، أتنبأ له، بميتةٍ بيد الإجرام، في السن ذاتها التي نُفي فيها والده؟»

الحكاية التي كانت تنتقل من رفيق إلى فارس، أصبحت في دفتر رشا مصونة من الضياع. بأسلوب الحكواتية، صارت رشا تضيف إليها من خيالها ما محاه النسيان.

«حين كبر والدي، صار يقرأ الحكاية أثلاماً مسطَّرة على جبين جدته، لا لينام، لا كالتهويدة التي ترافق الأطفال إلى الأحلام، بل فصلاً من فصول الحياة، كانت تودّها سلمى عالقة في ذاكرته حتى لا ينسى:

«كان والدك عريساً، لم يمض على زواجه من هدى، إبنة يوسف شيبوب، سوى سنة، حين ولدتَ ثمرة هذا الزواج الذي لم يكتب له الدوام. كان القدر لنا بالمرصاد. كيف تقرأ المكتوب يا فارس؟ في ذلك اليوم الذي سقط فيه رفيق قتيلاً، سلّم أمين شيبوب نفسه إلى العدالة، بينما فرّ كريم الكيرواني في البراري كعادته، كلما وجد نفسه مطارداً من عناصر مكافحة المخدرات، أما هدى، التي بقي اختفاؤها سرّاً لم ينبلج عليه الضوء. ابنة زارع الحشيشة يوسف شيبوب ومصدر النكبة التي حلّت على القرية، تخلّت عن أمومتها بعد مصرع زوجها على يد شقيقها. عدت من المأتم ونفسي طافحة بهذا المكيال من العذاب، لأجدك في سريرك غارقاً بالبكاء، وما من أمٍّ لتخفّف عن كربتك. أصبحتَ بسكين مدمنٍ على المخدرات، يتيمَ الأب في السن ذاتها التي تيتّم فيها والدك. يا لهذا القدر».

«والأم يا ستي، أما من خبر عنها؟» كانت المرة الأولى التي يسأل عن هذه الغائبة منذ عشرين سنة. لم تسمعه رشا يذكرها مرّة، كما لم يأتِ يوماً على ذكر ثريا، بل كلّف صور عرسه أن تتكلّم عنها، دون أن ترتكب كبرياؤه

زلّة تشي على حزنه. عرفته صامتاً كصمتها داخل قضبان قفصها. وحدها سناء وقفت في وجهه وطلبت منه أن يحرّرنا من هذا الصمت المتسلّط على البيت. مرّة واحدة خرج عنه، سائلاً جدّته:

«والأم يا ستي، أما من خبر عنها؟»

وتجيبه سلمى والتنهيدة تلو التنهيدة:

«ماذا كان في إمكان مجاملات التعازي من آل شيبوب أن تفعل؟ فهل كانت ستعيد ابني إليّ؟ هل ستنسى الضيعة ما سبّبه فحش الزراعة الممنوعة من كوارث خرّبت أسسها المبنيّة على البركة والسخرة؟ بعد أسبوع، حملتُك ورحت بك إلى المدفن. بكائي ملأ الكون وأنا أقول لك، هنا يرقد والدك. تحاملت على نفسي وأنا أسمع رياء رفقا شيبوب، تواسيني:

«مصيبتك يا ست سلمى، هي في آن مصيبتنا. رفيق في المقبرة، أمين في السجن، وهدى، إزاء ما حدث، أصابتها نوبةٌ من الجنون. عثر عليها المكارية هاشلةً في البراري لا تلوي على شيء. أخذنا القرار السريع بإبعادها عن البلدة وأرسلناها إلى البرازيل حيث عائلتي، أملاً في أن تسترجع عافيتها وتعود إلى ابنها».

آثرت سلمى الصمت، تاركة الكلام الفارغ المجبول بالكذب، لهذه المرأة، التي لطالما اشتهرت في القرية بثرثراتها وتشييعها النميمة أينما جلست:

«هل كان يليق بهذه المرأة أن تكون جدة لك؟ هالني ما رأيت. حمرة الشفاه الفاقعة في انسجام مع فستانها الأسود المحلّى بالشذرات الفضية. خلتها

والرضيع في حضني، آتيةً إلى مربعٍ ليليّ، لا إلى حيث البكاء والمستقبل الغامض. لم تلتفت إلى حفيدها، ولا يوسف شيبوب رمقك بنظرة. آل شيبوب أزالوك من فكرهم يا فارس. وحسناً فعلوا. فهل كنتَ كما ربّيتك، سترضى بأن تكون وريث خطيئتهم؟»

كان رضيعاً، تغمره في حضنها و تهدهد بكاءه، حتى إذا غفا على صوت المناجل، لفّته بالغطاء الصوفي وأودعته تحت السنديانة على فراش من القش والزغب، وتعود تشمّر عن ساعديها لمسؤولية أكبر، من حاضنة لطفل يسربلها بكاؤه ولا تدري أي وجع ينغص سكينته، إلى فلاّحة، تعلّمت أن تتهجأ أبجدية الأرض ومزاج الطبيعة في كمشات التربة ورائحتها، بينما على بعد بضعة دنمات من أرضها، كانت شتول الحشيشة، المسيّجة بزنار من دوار الشمس، وأشجار السرو التي تلهي العين كاحتياطات واهنة، تعلو بشموخ وكبرياء، متحدّية الحقول المروية بالعرق والدم.

ما لم يكن في حساب يوسف شيبوب وأنيس كيرواني، هو ذلك السم الذي أغدق على عيالهما ثراءً وحياة ترف، فكان مردوده أقوى مفعولاً في دم ابنيهما. من بائعي كَيْفٍ وزهو في المقاهي الشعبية أصبح أمين وكريم مدمنين على هذا العبق و عبدين له.

ظلّت الألسن في البلدة تتلكأ الحدث، طوال فترة من الزمن، ولكل لسان ترجمته بما يخدم صاحبه. بعض الشهود روى أن المعركة الهمجية التي نشبت بين رفيقي الطفولة والصبا، لم تقتصر على الشتائم والأتهامات الدنيئة، بل تطوّرت بتدخّل المغرضين، لا لفض النزاع بقدر ما كان الهدف منه إضرام

ناره بين الخصمين، بالتحريض واستثارة النعرات. كانت ساحة الضيعة في ذلك اليوم أشبه بحلبة صراع بين ديكين مسعورين، حتى إذا همّ أمين بسكينه على كريم استعجله إبن سلمى وكبّله بذراعيه مستدركاً بنخوته وقوع جريمة قتل. وخرقت السكين بردة فعل جنونية، خاصرة رفيق وأردته قتيلاً.

ماجد مزرعاني، أستاذ التاريخ، استوحى من رواية «الجريمة والعقاب» لدوستويوفسكي، مسرحية ذات طابع تربوي، تثقيفي، ووزّع أدوارها على تلامذته. وظلّ الأهالي، الذين حضروا العرض في نهاية الموسم الدراسي، يتذكرون العبرة التي استخلصها هذا المربّي الغيور على نشأة الجيل الصاعد، من الكارثة التي وقعت في القرية:

«للمعلّم رسالة تُلزمه بأن يكون مربّياً ومدرّساً معاً. فبعد مصرع رفيق، هذا الشاب المثالي، والذي كان في المدرسة وفي الحياة، قدوةً يحلو الاحتذاء به، وددتُ، إحياءً لذكراه، أن تحمل هذه المسرحية المتواضعة اسمه حتى لا ننساه».

كان يتكلّم بأسلوب فيلسوف الضيعة، كما كان الأميّون فيها يلقّبونه، ولم يكن يأبه بما يشاع عنه: عانساً، استعاض عن عجزه الجنسي بالكتب ونظم الشعر، وتأليف مسرحيات لطلاّبه؛ وحدانياً لا يزور أحداً ولا أحدَ يزوره.

شَغُفَ ماجد مزرعاني بالمسرح وواكب إنطلاقتَه في بداية الستينيات. وهذا ما دفعه إلى تأسيس خليّة مسرحية في المدرسة تُغْني فكر الطالب وروحه في

آن، مع كتب التاريخ و العلوم الطبيعية و الرياضيات. فمن المشهد الذي هزّ في ذلك اليوم ركن القرية، تشخّص مسرحاً مجازياً، كان من الصعب إيصال معانيه إلى العامة.

الناس، الذين كانوا شهوداً على الجريمة، تخيّلهم في جوقة موشّحة بما يشبه الأكفان، حملت الشموع ودارت حول المتخاصمين احتفالاً بطقوسية الموت. والتراتيل الهادرة من أفواه الجوقة تلقاها الحضور بهمهمات من الأستياء والسخرية.

«الكتب التي كنت أطالعها بنهم في استراحاتي القصيرة، تحت ظل السنديانة الهرمة، لم تكن على قدر إنارة شاب وهدايته على الدرب الصحيح. كنت من خميرة جدتي التي عجنت شخصيّتي بكفّيها المدعوكتين في مزاج التربة وقساوتها. صغيراً، ولم يكن لي حضن سواها، أركن إليه كلّما فاجأني البكاء على حين غرّة، تأصّلتْ في ذاكرتي، روائح أعشاب كانت تنضح من ثيابها وهي تروي لي لأنام، حكاية العسكر التركي الذي اقتاد جدي يونس إلى المنفى، تليها في مسلسل واحد مأساة الجراد التي أضافت إلى اللعنة التركية فصلاً مريعاً من تاريخ الوطن. فهل كانت، بذكرياتها المرّة، تربّي حفيدها على أن يكون مغواراً أمام أهوال الحياة؟

«قمت من فراشي مرتبك الفكر، أحاول أن أفك عقدة المنام. الصوت آت من البعيد «ما زلت يا فارس بانتظار رداً على رسائلي إليك». الخرافات

والمعتقدات كانت جدتي سلمى خير خبير بها. قصدتها في الكرم، والعناقيد في هذا الموسم متكئة على أوراقها، تريح عليها ثقلها. تفاجأت بقدومي المبكر. قرأت على جبيني المتغضّن، أمراً، سرعان ما رمت سلّتها أرضاً ودعتني إلى الجلوس قربها. كان لها الكلام كالمعتاد:

«لقد حان الوقت كي أفرح بك. بشرودك في الحقول، تذكّرني بيونس جدك الذي لم يجد الاستقرار إلاّ في الزواج. لا تفكّر فيما مضى. الإنسان لا ماضي له إلاّ إذا عاشه وتذكّره. هدى، التي أنجبتك من رحمها، ذهبت وأنت رضيع، ولم يُرجعها شوق الأمومة إلى وحيدها بعد طول الوقت، كأنك طرحٌ في بطنها آثرت قتله قبل أن يأتي إلى الوجود».

كأني كنت ما زلت في المنام. صوت جدتي، وأنا معها في الكرم، بدا آتياً من البعد ذاته الذي منه وصل إليّ صوت المرأة، يطلب منّي ردّاً على رسائلها. حاولت تحليل الرابط بينهما. فما قالته جدتي عن أمي، يوحي بأن الصوت في المنام صوتها. أفتكون هدى وسلمى في تخاطر على مسافات بينهما؟

تركتُ جدتي تعدُّ العدة لعرس فرضيّ لم أفكر فيه البتة، ومضيت عند المساء إلى المعلّم ماجد مزرعاني، أستطلع منه عمّا حدث. هذا الإنسان الغارق في كتب الفلسفة والماورائيات، لا بد من أن ينير أفكاري المضطربة.

كان يعيش في بيت منعزل عن قلب الضيعة، بعيداً عن تطفّل أيّ كان على خلوته، مكرساً الوقت الباقي له بعد ساعات التدريس اليومية، للمطالعة والكتابة. كان حين يأتي إلى السوق لشراء حاجاته، يجمد الزهر في كفّ

لاعبي الطاولة وتسكت مياه النرجيلة عن «القرقرة». الأستاذ مزرعاني، بمجيئه النادر إلى ساحة الضيعة، كان يوقع أهلها في خطيئة النميمة؛ هؤلاء الذين مذ أخذ لبنان إستقلاله، فقدوا نخوة المقاومة والنضال من أجل إعطاء الحرّية معاني ساميةً. ترك الجيل الجديد الأرض بوراً ومضى ينهل العلم والترقية في المدينة، بينما كان الأغتراب حلماً يراود الطامحين إلى الثراء في القارات البعيدة. الباقون في هذه الضيعة وجدوا سلواهم في لعبة النرد ونَفَس نرجيلة، والبحث بين الأهالي عن ضحية ملائمة لصبحيّاتهم، ينهشون لحمها بألسنتهم الشبيهة، بحسب سلمى، بالمطرقة التي تفتت الحجارة. بقهقهاتهم السمجة، كانوا يستوحون من عزلة ماجد مزرعاني فرائد، توقظ غريزتهم الميّتة، ولاسيما عن غيباته من وقت إلى آخر في العاصمة بيروت. افتراضات من نسج الخيال تضيف إلى هذا المنزوي عن الحياة، فصلاً تشوبه نقاط الأستفهام، ويعود الزهر يتدحرج، وفي نقاطه البيضاء نيات ملطّفة، عرفاناً بالتضحيات التي لم يكف عن بذلها هذا المعلّم الغامض، سبيلاً إلى الأرتقاء بالمستوى التعليمي في مدرسة القرية، حتى لا يهجرها أبناؤها.

وصلت عند المساء. الطقس في هذا الشهر الخريفي، نقي، يدعو إلى التأمّل. كان جالساً في كرسيه الهزّاز على المصطبة، هائماً في البعيد. وباقترابي منه، لاحظته منخطفاً في معجزة الكون، يترقّب شروق القمر من خلف الجبل، ولم يكن بانَ منه سوى خيط رفيع، بطيء في هذا التمخّض، قبل أن يعلو في قبة السماء. انتظرت عودته من سَفَرِه الكوني، لأُفضي إليه ما يقلق توازني العقلي والفكري. كان الليل قد انسدل على المصطبة ولا نور يُريني ملامحه

سوى شعاع شحيح من كومة نجمات، بدت لي على مقربة منا. ظلّ في كرسيه صامتاً، ملتفّاً بسرّ الكون، وأنا في انتظار إشارة منه.

صوت الليل يأتي إلى السمع صافياً، لا تبعثره ضوضاء ولا صدى. قال:

«تحرّر يا فارس من تربية جدتّك الصارمة حتى تليق بك الحياة. سلمى امرأة باسلة، صارعت المآسي وظلّت قدوة للرجال قبل النساء. حضنتك يتيمَ الأب والأم، وعلّمتك وأمّنت لك إرثاً يحسدك عليه الناس. أنت اليوم تملك بيتاً وبستاناً وكروماً وعلماً، وأيضاً، ما ورَثتَه عنها من قساوة بحق ذاتك وإجحاف».

شبّ فارس في حضن الأرض، وفي أعماقه الصامتة لهفٌ إلى حضنٍ، ما زال في ذاكرته البعيدة يرشح برائحة حليب الأمومة. صغيراً كان يهرب إلى الليل وفي خياله قصّة يستهلّها من الفصل الأول للتكوين؛ أي من ذلك الرحم الذي سكن فيه تسعة أشهر قبل أن يطلقَه إلى الوجود.

«من ليلة إلى أخرى، كنت آخذ القصة إلى مناماتي لعلّها تفض الغموض المسربل خطوات حياتي».

كان ماجد مزرعاني، يصغي إلى هذا الشاب المتفوّق بالعلم، إنما أسير رؤاه وخياله، إلى أن أعاده إلى الواقع:

«في ذلك اليوم، ووالدك، مضّرج بدمائه، يلفظ أنفاسه الأخيرة، كانت سلمى الثكلى ترمي اللعنة على من لوث القرية بالفساد والمال القذر. من

هذا الجرح الذي لم يندمل، أرضعتك حزناً مزمناً وأحقاداً لا تزول. هذه مقدمة صغيرة أستقبلك بها. الكلام لك الآن».

«سمعت صوتاً، إخترق نومي «ما زلت بانتظار رداً على رسائلي إليك» الصوت أتاني كروح معذّبة، تشقى للوصول إليّ. أيكون الصوت، صوت أمي؟».

طال الصمت بيننا، والقمر في قرص السماء ساهراً كان على حديثنا، إلى أن قلت:

«المنام ازداد تفاعلاً في نفسي حين رأيت جدتي في الكرم، تكنّس أكواماً من الأوراق اليابسة، وتبادرني، قبل أن ألقي عليها تحية الصباح، بعبارة لم أستشفّ معناها:

«هذه الأوراق اليابسة، يا فارس تشبه كل ما خزّنته في زوايا دماغي من أسى إلى أن حان نقله مني إليك».

تراءى لي، في بادئ الأمر، أن المعلّم يرفض كل حكمٍ ظالم في حق الجدة سلمى، حين قال:

«الضغينة المعشّشة في نفس جدّتك تشبه الأوراق اليابسة التي تحاول عبثاً إزالتها من غير جدوى...».

قاطعتُه حتى لا يكون الهدف من زيارتي له، حفنة أوراق يابسة:

«أستاذ ماجد، اسمعني جيداً، هنالك أمور عجيبة، تشابكت بين المنام والصحو جئت أستشيرك فيها. فإلى الصوت الذي حاكاني في المنام، ثمة أهم من ذلك كله، وهو ما فاجأتني به جدتي، كأنها كانت على تواصل مع صوت المنام. كل الغضب المخزّن في ضلوعها تفجر في تلك اللحظة:

«الأم التي أنجبتك تخلّت عنك رضيعاً. لست بالنسبة إليها سوى طرحٍ، آثرت قتله في بطنها قبل أن يُولد». كيف تفسّر هذا التشابك بين المنام والصحو؟

انطوى على ذاته ورأسه بين يديه. خلته لهنيهات بعيداً عني، تائهاً في ماورائياته، إلى أن عاد إليّ وفي نظراته دلائل على مأساة محنّطة، لا سبيل إلى استرجاع الحياة إليها. خشيت أن يصف جدتي سلمى ببصّارة برّاجة تقرأ البخت في الكف، كما في الفكر. كان متأنياً في كل كلمة، كما كان بالأمس حين كان يُملي علينا الإملاء:

«لن أتشاطر على علماء النفس الذين عجزوا، على الرغم من اجتهاداتهم، عن إعطاء معان علمية لتوارد الأفكار، لكن من تعمّقي في مضمار الوعي، صرت أؤمن بإمكانات الفكر الواعي الذي لا حدود له، على اختراق اللاوعي. وهذا ما حدث لك. قد تكون جدّتك سلمى من حيث لا تدري، قارئة غيب. هي لم تتواصل بصوت المنام، بل معك، إذ تزوّدت من فكرك لتفجّر العفن القابع في نفسها. الصوت الذي أتاك في المنام، صوت أمك، تحاول الاتصال بك عن طريق الحلم بينما جدتك تريدك أن تنساها».

لم أكن على سعة فصاحته.

«ليتك يا أستاذ ماجد توضّح ما في فكرك ببساطة لسان القروي الذي أنا منه».

ماجد مزرعاني، الباحث عن المعرفة في الكتب، كان يعلم بأن الشرح الذي يعطيه في الصف لم يكن يوماً مؤهّلاً لبث شيء نافع في أذهان تلاميذه. الدروس الطويلة التي ادخر خلالها علمه ومعرفته لينشّط ولو خليّة واحدة في رؤوسهم، راحت سدىً. كان واثقاً بأن حشيشة الكيف التي فاحت سمومها من حقول شيبوب والكيرواني على مدى سنين طويلة، ما زال مفعولها المخدّر سارياً في خلايا الأدمغة، متنقّلاً في النسل من جيل إلى آخر. ومع ذلك، كان ضمير المعلّم يتجدّد فيه مع مطلع كل سنة دراسية، بأمل العثورعلى تلميذ، ولو واحد، نجا من آفة هذا الإرث، قادرٍ على أن يحفظ غيباً، سطرين من قصيدة الشاعر إلياس أبو شبكة:

«أرجع لنا ما كان/ يا دهر في لبنان...».

إلى أن فكّر في المسرح علاجاً له ولهم. «المسرح اخترعه الإنسان ليحمي نفسه من داء القلق الوجودي. أمّا في هذه القرية، فكان سعيي الدائم لأن أخلق إنساناً يقظاً، شريكاً فيما يجول في العالم».

«الفيلسوف العانس»، هذا النعت الذي لبسه كمعطف أجرد، لم يغيّر منهجيته في التعليم وسعيه الدؤوب لبث شعلة ضوء في عقول تعمّها الظلمة. فما يشاع عنه في البلدة لا يعتبره مذلّة، ما دام صادراً عن رجال تعلّموا القراءة في أثلام الأرض وبرعوا في فهم لغتها، أما لغة الكتاب،

فكانوا على نَفَس نرجيلة ورمية زهر على الطاولة، تأتيهم القريحة لينسبوها علّةً. والوثيقة القابعة في افتراضاتهم لا تكذب، ما دام وصل إلى هذا العمر من غير زواج ونسل، ومن غير امرأة تؤنس حياته.

كان يعلم بما يقال عن المعلّم ولا يأبه، ما تسنى له أن يشيّد من عزلته واحةً للتأمل والكتابة والمطالعة. ماجد مزرعاني، صنع من هذه الغربة، وقاءً له وحماية للوقت. ابتعد عن مشاركة سكّان عين الشمس في مناسباتهم، أفراحهم وأعيادهم، سوى في الموت. ما إن يسمع جرس الحزن يقرع في القرية حتى يقوم بالواجب. توحي المدافن إليه بالسكينة. ينفرد بحزنه أمام انتصار الموت على الحياة. الدموع المالحة، بات يعرف طعمها، مذ حوّل مجراها إلى الداخل حتى لا تُهدر نداوتها سُدىً.

«العزلة هي الواحة الخصبة للكتابة، فالكلمة تموت وينزف دمها إن لم نتعشها بقطرة حبر». هكذا كنت أتلقى كلامه وأحفظه في دفتري المدرسي، إلى أن قادني القدر على خطاه، أنعش وحدتي بالكتابة».

انتماؤه إلى الحزب الشيوعي لم يعد سرّاً على أحد، يوم بدأ مالكو الأراضي يشيّعون أن الأستاذ ماجد مزرعاني لم يأت إلى القرية معلّماً، بل في نياته البولشيفية إشعال ثورة بين الفلاحين وأصحاب الرزق، بحشوه فكر طلاّبه بأن للفلاّح الذي يهدر عافيته في النكش والزرع والسهر على نتاج المواسم، حقوقاً في الأرض تعادل حقوق أصحابها، بينما يبقى فقيراً من كده وعرقه في إخصاب مواسمها، يعتاش من فضلاتهم. والشكوى التي قدّمها الميسورون إلى وزارة التربية في حق أستاذ، خرج عن منهج الدراسة

وفي نياته فتنةٌ قد تمزّق التعايش في هذه البلدة، أدّت إلى حضور مسؤول في التربية، وفي يده كتاب التاريخ:

«الأستاذ مزرعاني أديب ومؤرّخ، وعلى هذه البلدة الكريمة أن تقدّر رغبته في توظيف مستواه العلمي العالي في هذه المدرسة. هو لم يحذف من الكتاب الذي بين أيدي الطلاّب، فصلاً مهماً من تاريخ هذا الوطن، إرضاء للبعض. فبإثارته النقمة على الأقطاع، يكون في صدد حث حلم التحرر من السلطوية القمعيّة في عقول تلاميذه. ألا تتذكرون ثورة الفلاّحين، بقيادة طانيوس شاهين، وانتفاضتهم على الإقطاعيين في منتصف القرن التاسع عشر؟ فلعلَّ هذا الفصل من كتاب التاريخ هو المذنب في استثارة الشكوى، بينما هو من العوامل الجوهرية التي تساعد في نمو روح الثورة لدى الأجيال الطالعة، الثورة لا بالسلاح بل بالعلم واليقظة.

«اعلموا بأن هذا الرجل سائر على خط مفكّري ذلك الزمن، كناصيف اليازجي وبطرس البستاني والجمعيات الأدبية. فليكن كتاب التاريخ ليس بين أيدي الطلاب فحسب، بل وأوّلاً بين أيدي أهلهم».

الوحدانيّ يثير الفضول حوله، وتكثر الأقاويل عنه، ولاسيما أيام العطلة، يفتقدونه سرّاً، فيجدون نوافذ البيت مقفلة وأحواض الحبق والمنتور عائمة بما يكفيها من الماء في أثناء غيابه. والأكثر فطنة كان يكيل الغياب بمقدار ما في الأحواض من ماء.

بيروت، المدينة التي تربّى وتعلّم فيها، كانت في نهاية كل أسبوع موعده

مع رفاق كبر وإيّاهم وتقاسم معهم أحلى أيام الشباب وأحزانها، بينما ظلّ فصل من حياته صامتاً كالمقبرة التي دفنت فيها نسرين بلا وداع، بلا رثاء.

الشوق المتأجّج بينهما، يوماً بعد يوم، لم يعد يكتفي بالجلوس معاً في المقهى المجاور للمعهد. يده الممسكة بيد نسرين، كانت بوحاً عما عجز اللسان في تلك اللحظات المحمومة عن قوله. العصفور في يده بات ملكه. لم تتردد. كانت له، جاهزة لهذا الحب المتحرّر من القيود التي يفرضها الدين والمجتمع. لم تسأل، وهي بين ذراعيه، عن أيّ ملّة ينتميان إليها. ففي التخشيبة التي استأجراها من صيّاد سمك، ليختليا بحبّهما، كان انفصامهما عن العالم الخارجي. على فراش نتن، خزّن في قطنه رائحة السمك العفن، تركا لأحاسيسهما الملتهبة حرية التعمّق في أسرار الجسد، ولا يرتويان، غير مدركين أن لخطيئة الحب فدية في عالم يدين الحب الحرام ويرمي حجر الرجم على المرأة. نسرين، الواقفة أمام ديّانها، تنتظر مصيرها، ظلّت وفيّة لماجد، لم تُفشِ إسمه، خاضعة لأي عقاب، باسم هذا الحب الطائش، الذي زرع في بطنها بذرة عجراء، لن تحظو بعفو يجعل منه ثمرة حب. مضت كالنعجة إلى الذبح بينما لاذ ماجد بالفرار، حاملاً الذنب في فراره الجبان، أثقالاً من الندم، وصوت نسرين يترصّده أينما ذهب.

كانت تأتي في المنام مطعونة في أحشائها، دامية، تذكّره بتلك الكلمة التي قالتها وهي مكبّلة بين ذراعيه:

«هذا الجنين الذي زرعته في أحشائي، يا ماجد، لن يرى النور».

الكلمة مضى عليها أكثر من ربع قرن، وما زال الندم يعصف رياحاً هوجاء في نفسه. بعد زمن على الفاجعة، خرج عن الصمت أمام الرفاق، في إحدى جلساته الأسبوعية معهم، في مقهى اعتادوا اللقاء فيه على الروشة. في البوح كان ديّان ذاته، خاطئا يستحق الموت:

«كيف تركتُ نسرين بين أيدي قتلتها ولم أقْدم على عمل شجاع لأنقاذها مع طفلنا؟»

نسرين حبّه الأول والأخير، استقرّت في خلايا ضميره، تأتيه في المنام لتذكّره بهذه الكلمة الأخيرة التي أرست في خلاياه ورماً لا شفاء منه. مقتها ومقت نفسه. لقد أدرك ماجد، وأمّه تصب لعنتها عليه، أنّه فقد أجمل أيام عمره. فالقلب الذي كان ينبض حباً لها ولنسرين، تحوّل إلى حطب يابس ترفضه النار. صار، إن تجرّأ وفتّش عن ملامحه في المرآة، أطلّ عليه ضميره بملامح عجوز لم يتجاوز الخامسة والعشرين.

السبيل الوحيد إلى الخروج من هذا النفق الذي ما بعده نور، كان الهرب بعيداً من ذاته ومن محيطه. شهادته العالية في التاريخ كانت إشارته. في حقيبته، كتبٌ وأوراقٌ وماضٍ قريب لم يجف دمه بعد، وربما لن... من وزارة التربية حصل على موافقة إرساء مادة التاريخ واللغة في قرية لم يكن آنذاك العلم فيها وجوارها، أهم شأناً من النكش والزرع في الحقول. مزارعون طيّبون صنعوا على مرّ العهود من الأرض مدرسة، ومن الزرع لغة يتحاكى بها الناس، ومن المواسم صفحات حفظوها للذاكرة، يشكون فيها أهوال الطقس، ويسبّحون خيرات الله. تاريخ الأرض كان حديثهم في السهرات.

المعلّم ماجد كلّم طلاّبه على الأرض أولاً قبل الكتاب، لغة شاء بها اكتساب ثقتهم به وترويض العلاقة الفجّة بينه وبينهم. لقد أتى إلى هذه البلدة بأمل أن ينسى، مراهناً على الوقت شفيعاً، لعلّه يغفر له ويخلّصه من العذاب الأكول الذي نهش حياته، فإذا به يجد الوقت قابعاً في جماجم ضجرة، تعبة من الحياة قبل أن تجبلهم في قوالبها. أحياناً كان يرى الوقت لعبة بين أصابعهم. بورق دفاترهم يصنعون عصافير تحلّق في فضاء الصف، وشخاتير تأخذهم إلى أحلام بعيدة. من شبه إنسان جاء إلى هذه القرية ليلملم فتات عمره، خرج بظرف أسابيع عن حدود ذاته، لمهمة عاجلة، إنقاذ الوقت من براثن الضجر. من التاريخ وتصريف فعل كان، راح خياله إلى المسرح، هذه اللعبة السحرية التي تحوّل الوهم إلى حقيقة، وتمنح إنساناً لا معنى له في الوجود طاقةً حيّة، ما إن يدخل في الدور، حتى ينسى من هو. يمتطي الدور المعطى له وينطلق على صهوة خيالية، لمحاربة الشر حتى بلوغ النصر أو... الانكسار.

المسرح الذي انتهجه خطّاً موازياً لمادة التاريخ، أصبح، مع الوقت، موعداً إحتفالياً في نهاية الفصل الدراسي. فمن اقتباس إلى ابتكار، جعل المعلّم المسرح عيادةً لنفسه المضطربة. ومن شعوذاته السحرية، أيقظ في تلامذته، هذا الكائن الآخر الراقد في أعماقهم، الضاحك حيناً، التراجيدي حيناً آخر.

كان القمر متباطئاً في صعوده إلى قمة الجبل، متمهّلاً في ارتكازه عليها هنيهات، قبل أن يكمّل مساره في السماء، حين فاجأه فارس بزيارته، يستعلم منه عن سرّ هذه الرسائل.

انتظر فارس تفسيراً يريحه من الهواجس الغريبة التي تدفّقت عليه منذ تباشير الصباح وما انفكّت تطارده. سمع كلام المعلّم كالصدى، آتياً إليه من خلف أسوار عالية:

«بمجيئي إلى هذه البلدة، كنت أبحث لي عن مقبرة أدفن فيها نفسي. لقد كنت ذلك المجرم الذي اقترف فعلته وتبرّأ منها بالفرار، تاركاً المرأة التي أحبّها بجنون شبابه وطيشه، هي والجنين في بطنها، في صراع رهيب مع محيطها. كبرياؤها حرّرتها في الموت، بينما بقيتُ من بعدها أسير عقابٍ دهريّ، أحاول التخفيف من ثقله في مهنتي التعليمية والمسرح الذي وددته علاجاً لروحي القاتمة وسلوى مفيدة لطلاّبي. أنتيغون، هذه الفتاة الميتولوجية المتمرّدة على التقاليد والأعراف، منها استوحيت مسرحية، وكان جرحي ثاخناً لم يندمل بعد. كنت في سرّي، كمن يقوم بفعل التوبة لنسرين الحبيبة التي حمتني من غضب عشيرتها بكتمانها اسمي، ومضت هي والطفل إلى الموت باسم الحب. المسرحية لم تكن خلاصي، بل حبة من ذلك العقاب الذي لن ينفك منه أسري أبداً».

القمر في مغامرته الليلية كان موشّحاً بهالة دكناء، تنذر في قاموس القرويين بالمطر. بدا لفارس شريداً، متنسّكا، يضفي على المكان وحشة وضلالاً؛ صورة عن ماجد الملتف في صمته بعد هذا البوح. هذه الأمسية كشفت علامات شبيهة بينهما: قمر يتحاشى معشر النجوم وثرثراتها، وفي مكان ما على هذه الأرض، إنسان يضيء بعلمه عقول تلامذته نهاراً، ويلوذ إلى عزلته عند المساء، فلا يعود أحد في القرية يلمح ظلاً له. بين القمر وماجد تراءت له تراجيدية الوحدة، على جغرافيتين مختلفتين، كادتا في تلك الأمسية

تتلامسان. كسر فارس الصمت، هذه النعمة التي تدلق عنفوانها من العُلا، فيلتف بها من كان أهلاً للصمت والتأمّل:

« هدى، أمي، تركتني رضيعاً. لماذا تعود إليّ في المنام؟»

وكأن ماجد انتظر هذه الكلمات ليكمّل ما في نيّة فارس:

«بل هي تبحث عنك، فهل في العثور عليها تعود إليك الحياة؟».

«هذا ما أودّه. الحياة مجبولة بالمرّ والحلو. لقائي بها والاستماع إلى أسباب هجرانها لطفلها الرضيع، قد يعيدان إلى هذا الطفل الذي فُطم باكراً من ثديها وحُرم حليبها، العضو الأساسي الذي بتر منه، قلب الأم، أم أني في هذا الموعد المنتظر، والذي لن يكفّ يوسوس في رأسي، سأتفاجأ بامرأة غريبة، لن تعيد إليّ الاتصال مع رهجة الحياة. فكيفما يكُن هذا اللقاء الوهمي، يكُن شفائي».

تفاجأ ماجد بمنطق هذا الشاب الرزين الذي مرّت على جذعه الطري عواصف هوجاء ولم تطوه. من مقاومته للأرض وتخصصه بالهندسة الزراعية صار فلاّحاً، ومن الكتب على اختلاف مواضيعها، تغلّب على محيطه القروي الذي نشأ فيه، وحدانياً، يمضي ساعة الاستراحة بعد عناء الرش والقطاف والتشحيل، تحت أغصان السنديانة الهرمة للمطالعة.

«بستان الزيتون الذي سيّجه والدي بما يضمن حق العائلة في ملكيته، دفع بطموحي إلى تكملة اختصاصي بالهندسة الزراعية وتربية المواشي.

لأجل هذا الأب الذي لم أعرفه وهذه الجدة التي هدرت شبابها لتربيتي مكان الأم الغائبة، قرّرت أن أَفي ديناً متراكماً على كاهلي، فأجعل من الإرث اختصاصي، وهؤلاء الآتين من ديارهم البعيدة للعمل وكسب لقمة العيش، مدرسةً، لن أقرأ نماذج شبيهة بها في كتب الهندسة. صرت أترقّب عوداتهم مع مطلع كل موسم قطاف، وكلّي شوق إلى فوح البراري المعشّش في مسامهم. باختلاطي بهم، تعلّمت العلاقة الوثيقة بين الإنسان وطبيعته. الفقر، كما اخترقت آثامه تجاعيد وجوههم المبكرة وأياديهم المفلّعة، لا يتنكّرون له كعلّة ينبغي لهم اقتلاعها لعيش أفضل، بل كمصير مرتبط بالمطر والجفاف، بالبرد والحرّ، بالغذاء تارة والجوع تارة أخرى، يتدثّرون به دونما عتب أم ملامة. هو قدرهم، وتالياً يتعاملون معه بقبول ورضى».

«هذا الفتى يفوق بتفكيره الحكماء»، قالها ماجد في سرّه، والدهشة بادية على أساريره. هفّ قلبه إليه، وقام عن كرسيه فاتحاً له ذراعيه. عناق الأب لابنه دام، ما دامت الدموع المالحة تمطر على أرض طال فيها الجفاف حتى ارتوت.

طال المساء بينهما وصار ليلاً، والمعلّم منخطفٌ في هذه المسارّة الخارجة عن المألوف. ففارس استحوذ على توازن ماجد وعقله الراجح، وأخذه إلى عالم لا يطأه سوى المتأمّلين و الرؤيويّين. خشي أن تكون الوحدة التي تغمر حياة هذا الشاب اليانع، قد فصلته عن الواقع.

«كأنك يا فارس لم تأخذ ذرة من حيوية جدتك، التي غلبت اليأس، وأكملت دربها الشائك. وعدها ليونس، صار الكلمة التي يرثها الابن

عن أبيه. جدّتك واقعية لا تفلسف الحياة، بل تعجنها طحيناً من أجود حبوب القمح، وتصنع منها خبزاً رافخاً. أقصدها بين الفينة والفينة في القبو لأتموّن من خيرات أرضها، فتدعوني إلى الجلوس على هذه الأريكة المغطاة بجلد الماعز، ولا تنشغل عني في أثناء توضيب ما طلبته من زيت وزيتون وخلّ ونبيذ، بل تطرح عليّ عشرات الأسئلة الخاصة بحياتي، ولا ألبي فضولها، بل أوارب؛ أختلق أسباباً حالت دون زواجي. فحين لا تتلقى مني ما تشتهيه حشريتها، تندار إليك، توصيني بك، فماذا يستطيع وحدانيٌّ مثلي أن يقدم إلى وحدانيّ آخر، سوى دعوته إلى مشاركته عزلته وصنع أخوية الوحدانيين منها».

«جدتي، يا ماجد، بالرغم من ثقتها بعلمك ومعرفتك، تعتبرك إنساناً ملحداً لا تشارك البلدة في أعيادها وطقوسها الدينية. من بين الكتب الفلسفية والأدبية التي تعمّ رفوف مكتبتك، خصّصتَ ركناً، جمعت فيه العهد القديم والجديد والقرآن و»يسوع ابن الأنسان« و» النبي« لجبران، و» هكذا تكلّم زرادشت». أقف متأملاً هذه الثروة الفكرية والروحية، وألف سؤال يساورني: أين الله في حياة هذا الإنسان الغامض، المتوحدن، الواهب أولاد هذه البلدة معرفته؟».

فكّر ماجد مليّا كي يأتي جوابه لفارس، نقياً لا إبهام فيه:

«الله، يا فارس، موجود أينما نكون، في كل لحظة يحياها الإنسان بحواسه ومشاعره. لا أقصد الكنيسة لألقاه، فاختباري إياه يفوق الدقائق التي يمضيها المؤمن في تمتمة صلوات محجّرة لا تتغيّر، بينما الكون حولنا في تحوّل دائم، يسيّره

الله كقائد أوركسترا. الأرض، هذا الكوكب الذي يُمعن فيه المخرّبون تمزيقاً وتدميراً، هو آية فنيّة من إبداعٍ يفوق قدرات العقل البشري على استيعابه. تطلّع إلى نجمة صغيرة هائمة في الفَلك. في هذا الجسم المشع في الليل، تكمن حكاية الكون؛ حكاية ذرة انفجرت منذ مليارات السنين محدثة بداية الخليقة بعجائبها وغرائبها، فما دور الإنسان في تعامله الفيزيقي والميتافيزيقي مع الكون؟»

كان في ود فارس أن يستعلم أكثر عن هذا الله الذي يتكلّم عليه ماجد بفكر الإنسان المعنيّ بالخليقة منذ الأزل، والمواكب تجارب علماء فيزياء الفلك من نقطة الانطلاق الأولى للخليقة. كيف السبيل إلى التقاط طرف الخيط اللامرئيّ، فينكشف هذا الغموض الذي يسربل خطاه؟

من نظراته المحدقة فيه، أدرك ماجد أنه استعمل لغة هجينة بلبلت فكر هذا الشاب الذي على الرغم من مطالعاته المتعلّقة بالفلسفة والماورئيات، فإنه بقي ملتزماً بحرارة إيمانه؛ هذا الشعور الدافئ الذي لم يتخلّ عنه في الحالات القاسية التي مرّ بها. يأتي كل أسبوع إلى مكتبته، يعيد إلى الرف ما قرأه، ويختار من بين عشرات المؤلّفات ما يستنير به ويدعم توازنه. سمعه يقول:

«من عظات السيد المسيح على الجبل، حفظت تلك العظة التي اكتسى بها إيماني «طوبى للساعين إلى السلام فإنّهم أبناء الله يدعون». فليتك يا معلّمي تمزج علم الكون وحساباته الفيزيائية برحمة الله وحنوّه. نحن، على هذه الأرض، في حاجة إلى خيط من نور نتعلّق به لنحيا من دون أن نسخّر فكرنا بلا جدوى في سؤال ليس له جواب» كيف بدأ الكون». ما دام الغموض يلفّ الخالق والكون، فلندعْ هذه المسألة في فرضيات الفيزيائيين وعلماء

الفلك وظنونهم. أنا من فئة طالبي السلام أكثر من المعرفة. أما أنت، فأين تجد سلامك بعد التجربة المريرة التي مررت بها؟»

لم يتوقّع فارس، من جواب ماجد، أن يكون هذا المعلّم الذي فرض المسرح مادة حيّة تبث الحياة في العقول النائمة وتصقلها، في علاقة حميمة بالموت:

«بين الأموات. أتوق إلى هذا السكون الذي يغمرني في سيري بين المدافن. أتأمّل ملياً في الموت؛ أسمع همسات تروّض عقلي على هذه الفرضية التي لا بد منها. نسرين، التي أشتاقها كل يوم أكثر، وأكرهها في آن معاً، كلما جاءتني في الحلم، تسلّمني من يدها شبه جنين، تناديني في اليقظة إلى حيث هي. أزور هذه الحبيبة في خيالي وأنا أتأمل في سر الموت. هذا الجسد الذي أعطى حباً بلا حساب، بلا تردّد، نال عقاب الفناء مبكراً تحت كومة من تراب».

لمس فارس لدى معلّمه، قعر الحزن، شرياناً خفياً ينزّ باستمرار، بينما أعطته إرادة الحياة إزميلاً لينحت ظاهره ويصنع منه تمثالاً مالساً كالرخام. بصوت خافت حتى لا يزعزع الصمت الذي عمّ بينهما، قال فارس:

«ليت روحي تعرف معنى الحب. قلبي كحصاة لا غناء ينضح من ملوستها ولا قشعريرات تليّن قساوتها. لعلّ الزواج الذي ترتئيه جدتي عليّ، حلّ مناسب لتكملة نسل عائلة، انقطع خيطه مع يونس جدي ورفيق والدي. حياة بكاملها مع كائن واحد، أراها قبل أن أقدم عليها، طويلة ومملّة. فكم من الوقت تدوم نشوة اللقاء بين رجل وامرأة؟».

«إلى حين تقع الكارثة وينفضح أمر علاقة لم تُبارك بالزواج. جدتك على حق، فلا شيء سيقتلعك من وحدتك سوى امرأة إلى جانبك تحبك وترزق منها ولداً».

في طريق عودته إلى البيت والليل يسايره، فكّر في ثريا، فتاة الأخوية، والتي تضمرها سلمى عروساً لحفيدها. قال لليّل:

«ثريا! كيف عساي أتذكر ملامحها ولم أحفظ منها سوى ذلك الصوت الرخيم المتعالي منفرداً من بين منشدات الجوقة، مرنّماً «إليك الورد يا مريم...». فهل يكفي الصوت الشجيّ لبناء أسرة تُفرح قلب سلمى قبل رحيلها؟».

خرج من قميص الخجل مفكّراً في العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة؛ هذا السر الذي يولّد تجاذباً ولو خجولاً بين جسدين، حالما يجمعهما سرير واحد، دونما سابق اختبار.

حاول أن يرسم في خياله مشهد الخطيئة التي دمّرت حياة ماجد ونسرين، لكن عدم ممارسته فعل الحب حتى في الخيال، بقي كاللص خارج المشهد، يسترق من خرم الباب شعوراً حارقاً كالنار، يلذع أسفل بطنه.

جلس على حافة الطريق يمسح العرق المتصبب من أنحاء جسده، وهو على قناعة بأن الزواج المبارك لا يختلف شأناً عن الزنى، ما دام الفعل النهائي واحداً، وفي أي سرير حطّ، أكان لممارسة واجباته الزوجية بهدف الإنجاب، كما تفرضه التعاليم الدينية، أم في إدامة المتعة بين عاشقين إلى أن تصاب بالرتابة.

«الطبيعة مدّت إليّ يدها الخضراء لأتحرّر من سجني، وأكشح عني هذا الغموض الذي يلفّ المصاب بداء التوحّد. في هذا الشرود الصباحي المبكر، برفقة شمس لم تستيقظ تماماً من ليلها، صرت، وقشرة الوقت الملتصقة بجسدي تتلاشى و تسقط كأوراق الشجرعن غصنها، أتحسّس عُريي، بينما أصابع الشمس تلامسني لتلدني من جديد، على شكل الطيور الهائمة خارج مدار الوقت وقيوده. فمن لا يجد مكاناً له بين الناس، فلا بد من أن يبحث عنه في بهاء الطبيعة وسلامها.

«والدي المتشائم دوماً، حكى لنا قصة رجل صدمته الحياة، فمضى يبحث عن السكينة ليلاً في تجواله بين المقابر. يومها، لم تكن بوادر التوحّد قد انقشعت بعدُ في تصرّفاتي، ما دام كان ظلّ سناء كان كافياً لحمايتي. لم تستثر حكاية المقابر مشاعري، ولم تقطع هذا الخيط الرفيع الذي تقوم عليه غربة

المتوحّدين، لكنها حرّكت طبيعة سناء المتمرّدة. كحيوان مسعور، هبّت إلى والدي تريد تمزيقه. خرجت كلمات كالعواء من حنجرتها، واستوت في خلايا ذاكرتي لا تبارحها. سناء، ابنة الثانية عشرة، بدت في هذه المحاكمة العادلة كإنسان تعتّق في محن الحياة:

«لو كان لنا أمّ لحكت لنا قصصاً من تلك القصص التي تهدهد الأطفال وتقودهم إلى النوم مع أحلام هنيئة. رحلت أمّنا تاركة لك عبء تربيتنا، فلم تفرّق بين الخراف التي ترعاها وبيننا، حتى إنّك لم تخصّص لنا، على رفٍّ صغير من رفوف مكتبتك المكتنزة بعشقك للمطالعة، ما يحتاج إليه الصغار من أحلام ودهشة لنمو سليم، بل كنت تصادر الكتب المصوّرة التي كانت تُهدينا إيّاها خالتنا روزا في عيد الميلاد، حتى لا نلهو عن الكتاب المدرسي. هل تتذكّر؟ كبرنا كالعشب البرّي الذي لا يحتاج إلى السماد والري لينمو. مسكين أنت يا أبي، لكونك لم تحفظ، من آلاف القصص التي كتبت على مرّ الأزمنة للأولاد، سوى قصة الرجل الذي صدمته الحياة فمضى يبحث عن السكينة ليلاً في تجواله بين المقابر. تريدنا على مثال هذا الرجل و نجحت. فلو كشف طبيب نفساني علينا، أنا ورشا، للمس فوراً علّة وجودنا، متحالفتين مع الموت لا مع الحياة. سوف أقهر القبر الذي زججتنا فيه وأحلّق إلى الحرّية».

«لم أسمع دويّ الصفعة التي فجّرها أبي على وجه سناء. حلّقت يده أعلى منه، كطير كاسر كيّل ارتفاعه على قدر انقضاضه على فريسته. رأيت الدم يفور من أنفها ولم تحرّك ساكناً. نظراتها الحادة المحدّقة فيه كانت نفياً قاطعاً لعلاقة لم تبدأ حتى يكون لها نهاية.

«سناء، في هذه المواجهة الجريئة لوالدنا، لم تبال بالأحمر القاني الذي كان يشق ساقية على وجهها. خلتُ أختي في ساحة معركة أقدمت عليها رغبة منها في قتل عدوٍّ، بينما كنت أتابع مسار الدم الدافق، حتى إذا وصل على شفير ذقنها، تروّى لحظة وعاد إلى نزفه قطرة تلو أخرى، ليستكين بقعاً قاتمة على قميصها. منذ ذلك المشهد، أقلعتُ عن رسم أشجار عارية، بعدما أصبح اللون الأحمر هاجسي، يقودني إلى أماكن أملأ فيها الفراغ الذي أنا فيه. الطبيب النفساني الذي عاينني من خلال رسومي القانية، أفاد والدي بأن علّتي بدأت لحظة ولادتي في آن مع النزف الحاد الذي كان سبب وفاة أمي:

«في شعورها الباطني، دم قاتل. عاجزة عن التعبير عنه سوى بأقلام التلوين. ربما ستتحوّل هذه الرسوم إلى كتابة مفيدة لو تسنى لها مؤسّسة في أوروبا ذات الاختصاص العالي في داء التوحّد. المناطق المظلمة لدى رشا، خزّان مقفل لا بد من مناخ مؤات لها لإخراجه إلى الضوء».

«كنت تلك التي قتلت أمّها. وبتشخيص الطبيب لهذا الداء، أضفت إلى مأساة والدي، مأساةً. لمّا قرأ ضياء العجمي، المخرج المسرحي، النص الذي سلّمته إيّاه، في أثناء زيارته لمؤسسة المتوحّدين في بلجيكا؛ هذا المكان الذي بات سكني في أثناء الحرب، كان في صدد دراسة علميّة - أدبية-فنيّة عن عالم المتوحّد الخفي. بعد أسبوع أعاده إليّ. على هامش الصفحة الأولى قرأت ما كتب: «رشا لا تدري أنها بهذا النص الحاد، القوي، لمست ميتولوجيا الموت».

في ذلك اليوم الذي تسلّم فيه والدي إفادة الطبيب النفساني، شعرت لأول مرّة بها لم يعبر في بالي الضبابي يوماً: الذنب. احترمت صمته الذي تعادل مع صمتي الدائم، ودخلت غرفتنا أحمي حالي من ذنبي حتى لا أواجه طبيعته المكفهرّة. فهمت. في حين لم تفهم سناء، المتمرّدة، شقاء هذا الرجل. إستفزّته بسلاح ثورتها النامية على حياة قاتمة، بلا أمّ ترعانا، وأب، كنّا ثقلاً عليه، وسبباً لحرمانه المرأة التي يتخفىّ عنّا ليشمّ ثيابها ويبلّلها بدموعه.

«ابتعدت عني سناء حين علمت بأن لا رجاء من هذه الأخت، فمضت تبحث عن توأم لها خارج مدار حياتنا، إلى أن دخلت هلا وأخذت مكاني بسطوتها. إلى حضن الطبيعة التي فرشتها لي سلمى جدة والدي، مضيت، أرتوي من نقائها وتغريد حساسينها. في دروبها أتحسس بين أصابع قدميّ رطوبتها، فأشعر بسعادة فتيّة تغمرني، بريئة من خطأ ولادتي، أبحث عن أناي، والشمس كلّما اشتدّت عزيمتها أراها تكيّل سرعتها على خطواتي المتمهّلة. يتماهى الوقت لمن يجد السلام بعيداً عن البشر.

قالت لي سلمى وهي تسرّح خصلات شعري المتشابكة بعضها ببعض كجمّ العليق:

«غريبة أنت يا رشا، لا أفهم ما يجول في دماغك. يخال إلي وأنا ألقّم قلمك بحكايات هذه العائلة التي أنت ذرّة منها، وأنت ممعنة في نقلها على الدفتر بتأنٍّ واجتهاد، أني أمام آلة أوتوماتيكية، خالية من المشاعر، وغير معنيّة بما تكتب. لم تسأليني مرّة عن أمّك. أمّا سناء، فمن أي عرق هي؟ هجرت عائلتها لتصنع عائلة من المأساة الفلسطينية. ما نوع هذا الدم الجاري في عروقكما؟».

«أنا من عالم آخر يا ستي، وأنت تعلمين ذلك. لا أجد مكاني بينكم. ولدتني أمي مقمّطة بغشاء يكاد يُبعدني عن مآسيكم. ففي عالمي الجوّاني بنيت مسكني وسكينتي. أهرع إلى البرية، حصني الأمين، حتى لا أحزن وأنا ألمح حمرة الخجل تعلو وجنتيك بسببي، حين تسألك النساء عن علّتي».

تسربل المشط في خصلات شعري المتمرّد ولم يعد الوصول إلى أطرافه ممكناً. دمرت بكلماتي الجسر الهش القائم بيننا. المتوحّد لا يبني جواراً حوله، ولا يشعل الضوء حين تلفّه العتمة. الضوء الحقيقي في داخله، على نوره يمشي، وفي هذا النفق يتطوّر، إلى أن يبلغ طمأنينة الروح التي يصبو إليها.

حين يئس المشط من محاولات سلمى، أخذتُ المقص ومضيتُ أشحّل كومات شعري من الكعب، خصلة تلو خصلة، بالأصول التي تعلّمتها من والدي حين يمعن تشذيباً في جرزونة الكرمة التي ايبسها الخريف. نظرتُ إلى الصبيّة في المرآة فرأيتها تبتسم. كان لديها ما تقوله لي:

«آن الأوان كي تنطلقي إلى الحياة». كنت آنذاك في نفق العبور من سن المراهقة إلى سن الاتكال على الذات.

قبل أن أطوي دفتر الذكريات، ومعه تلك السنوات التي أمضيتها مع جدتي، شعرت والصفحات القليلة الباقية، تدعوني لفصل أخير، لم تأت هي تلقائياً على ذكره. زواج والديّ. لعلّها تركت لي المبادرة على الرغم من اعترافها بأني أتلقى منها أحداثاً درامية حصلت من دون أن يرف لي جفن. «آلة أوتوماتيكية أنت، أخالك من معدنها، خالية من أي شعور».

سلمى هي ابنة الطبيعة. في معاشرتها التربة و كلَّ ما ينبت منها، صارت جزءاً من نبضاتها وتقلبّاتها وارتعاشاتها. لم تخجل كبنات الأخوية من جسدها النامي. أحبّته عارياً كأغصان الكرمة حين تُسقط الأمطار آخر ورقة عنها. ربيعها كما تمنّته أتاها مبكراً، دافقاً، ويونس كان شبيهاً بها، تربة عطشى إلى ري دائم حتى لا تجف. هذا الزواج السعيد الذي انطلق ليلة عرس من عرزال مفروش بزغب العصافير وكلّه وعود ليدوم، التقطه القدر الظالم بمخالبه. مضى يونس منفياً إلى سفر برلك إلى حين توفي بداء التيفوس. وظل الغراب معشّشا على القرميد، ينذر سلمى بمآس أكبر، فكان مقتل رفيق.

تذكّرت سلمى بينما كانت تملي على رشا حكايتها، وجه وجيهة، المرأة الحورانية ذات الوشم الأزرق على الذقن وحول العينين وعلى اليدين:

«كانت بقامتها المستقيمة وجمالها البدوي متميّزة بين النساء اللواتي اعتادت المنطقة الزراعية مجيئهن من بلاد حوران، بصحبة رجالهن ودوابهن في موسم القطاف. كنت ألاحظ نظرات فارس متفرّسة فيها حين تُخرج من شقبانها طفلاً مقمّطاً بخرق بالية، تضعه على مرأى من الجميع على ثديها وتُرضعه:

«كان والدكِ في ذلك الحين في الخامسة، يأتي معي ليظل تحت حراستي. كنت أراه، والرضيع على ثدي أمه، محدّقاً في هذا المشهد الذي عبرت طفولته عنه، فظلّت حياته على مرّ السنين تعاني فراغ الأم. أدركت وجيهة ما في نظرات الولد. اقتربت منه وفي كفّ يدها كمشة أصداف صغيرة، حرّكتها وهي تتمتم آيات لم أفهم منها شيئا. لم يحرّك فارس ساكناً، خلته

مفتوناً بنظراتها الحادة، إلى أن تكلّمت. في كل كلمة كان حجرٌ من حجارة بيتي يهوي ويتساقط غباراً:

«سوف تبحث يا فتى دوماً عن الأم ولن تجدها. لا أقرأ على جبينك حظاً مع جنس حوّاء. السعادة عابرة. زواج حب كبير سيتعثّر بعقد لن يحلّها سوى الموت. ذريّتك من الأناث هي، تضيف إلى مأساتك مآسٍ. بينك وبين النساء هاوية كبيرة».

هجمتُ على بصّارة الشؤم وانتزعت منها الأصداف ورميتها إلى البعيد:

«ساحرة شرّيرة أنت، جئت لترمي النحس في عائلتي؟ لا أريدك بعد اليوم في هذه الأرض».

توارت وجيهة خلف الرجال، بينما أخذت فارس في حضني أهدهده وأرسم إشارة الصليب على جبينه لأطرد الروح الشريرة التي هامت حوله.

تعود سلمى بذكرياتها السوداء إلى تلك البصّارة:

«وجيهة الحورانية قرأت قَدَر فارس بحذافيره. فبالرغم من رفضي التنجيم والسحر، رمت هذه المرأة الشك في نفسي. نذرته للقديس أنطونيوس البدواني وفي صلواتي أذكّر الله بالمصائب التي حلّت بي وتحمّلتها مثل أيّوبِ من هذا الزمن، بإيمان ورجاء، حتى لا يعيد الكرّة معي. الصلاة يا رشا تسكّن الوجع ولا تشفيه. أرتني الأيام حقيقة ما توقّعته هذه المرأة، وظلّ وشمها يوسوس في رأسي. من يا ترى أعطاها هذه القدرة على اختراق

الغيب؟ كأن ما قالته في ذلك اليوم، ويدها المنقوشة بالدق الأزرق، على رأس فارس المستسلم لشياطينها، كان مكتوباً سلفاً قبل ولادته في كتاب القدر. صرت أؤمن بأننا نأتي إلى الوجود وكتابنا معنا، فالصدفة بنت اللحظة كما نعتقد، ونحن لا نملك ذرّة وعيٍ لاختراق المجهول؛ هذا العالم الآخر، الذي منح وجيهة العدسة السحرية كي تقرأ اللامرئي».

الذاكرة كآلة التصوير، تخزّن في خلايا الدماغ صوراً، تبعث بها برقيات عاجلة، يعجز الفكر عن فضّها وجمعها في قراءة جليّة.

كانت سلمى في غاية الانفعال وهي تستعيد وقائع، استندت إليها حياة والدي تماماً كما تنبّأت لها وجيهة. شعرت بسيفها مصلتاً عليّ، وعلينا كلّنا، ما دام لم يخرم أحد من شباك هذه اللعنة.

سؤال ساذج خرج مني وأنا أبحث في أكوام الزؤان هذه، عن حبة قمح، أزرعها و أعلو على سنبلتها لألتقي الشمس:

«هل فرح فارس بزواجه من ثريا؟»

«كانت ثريا الضوء الذي كشح العتمة عن حياة فارس. هو المتحرّر من التقاليد والواجبات، دخل بيت أهلها ذات يوم وعرّف عن نفسه:

«أنا فارس رستم، مهندس في الزراعة وفلاّح في أرزاقنا. تولّت جدتي سلمى رستم تربيتي وروت شغفي بالأرض. هل هذا كاف كي تحبّني ثريا وتقبل بي زوجاً؟»».

هذا كل ما رواه لي وهو يقهقه ضحكاً. كانت المرّة الأولى التي أرى فيها أسارير حفيدي منشرحة، من دون أن يطلعني بالتفاصيل عن زيارته بيت عفيف معتوق. لم أتطفّل على موضوع، ربما كان في ودّه أن يبقيه سرّاً حتى لا تمضغه ألسن البلدة بتأويلاتها. حتى أنا، سكتتّ بعزّة نفس لم تخلُ من الحزن. الكبرياء كانت خطيئتنا الكبرى. لا أتذلّل؛ لا أتزلّف، حتى فيما يخص هذه الفلذة من كبدي.

مع أوراق أيلول الملوّحة بالأصفرار، أقفلت عائلة معتوق نوافذ بيتها الصيفي ونزلت إلى المدينة. كان قلبي دليلي. فغياب فارس عن القرية لم يكن مألوفاً. صارت حياته مغلّفة بالأسرار ولا أحرّك ساكناً في انتظار أن يبوح بما في نفسه. إلى ذلك اليوم الذي فجأني به، وكنت جالسة تحت القنطرة، أنقّي العدس، رأيت سيّارته تتوقف بمحاذاتي، وإلى جانبه ثريا. الفتى المكفهرّ دوماً، بادرني بابتسامة مشرقة:

«باركينا يا أحلى جدة. أنا و ثريّا صمّمنا على الزواج».

«فلطالما حلمتُ بثريا لفارس، كلما سمعتُها ترتّل في قداس الأحد، فأستدل من هذا الصوت المغزول بشرانق القز، على ينبوع روح تقيّة، وأتمنى في سرّي فتاة مثلها تليق بوسامته وعقله وثقافته وإرثه. يوم كلّمته عليها، بادرني بكلمة قاطعة: «تخلّي أمي عني،علّمني ألاّ أقع في فخ امرأة». فعدلت عن هذا الموضوع وفكري يؤرجحني بين هدى الغائبة ووجيهة البصّارة. كان فارس قريباً من ماجد، هذا المعلّم الذي وضع حاجزاً منيعا بين رسالته التعليمية وحياته الغامضة. وكان خزّان أسراره. يوم مصرعه ببندقية

صيد، وجده فارس غارقاً في بركة دم على كرسيه الهزّاز. وصار بإعلامه سريّة الدرك عن الجريمة، المتّهم الأول. بدأت التحقيقات الأوّلية معه، وهو في حال مذرية من الأحباط. بفقدانه الصديق الوحيد، أصبح متّهما بقتله. وبعد مراسم الدفن أحيل التحقيق بمصرع ماجد على بيروت. رفض فارس، بعنفوان وعزّة نفس، محامياً للدفاع عنه:

«فمن أعلم مني بحياة ماجد المغدور؟ ».

«ولكن يا فارس، من يثق ببراءتك أكثر مني أنا، جدّتك».

اسم مستتر حتى تلك الآونة، لوّح به إليّ وهو يهم في مرافقة الدركيين اللذين جاءا لتوقيفه:

«ثريا. أنتِ وثريا»

وبينما كنت أودّعه والألم ينزّ من قلبي، قال بهدوء العالم بنيات الله:

«إطمئني، ستأخذ العدالة مجراها وسيكون الوقت شفيعي. ثمة أسرار اعترف معلّمي لي بها، وسوف أبوح بها إن اضطرّني الأمر. افتحي بابك لثريّا وأفراد عائلتها. سيأتون لمواساتك. كوني جبّارة، كما عهدتك».

نشرت الصحف الخبر على صفحاتها كما صدر عن النيابة العامة: «ما لم يُثبت التحقيق بعد، معالم الجريمة التي راح ضحيتها ماجد مزرعاني، الأستاذ في ثانوية عين الشمس، والمعروف عنه حياديّته عن السياسة والنزاعات الحزبية، فستبقى أصابع الأتهام موجهة إلى فارس رستم، تلميذه، الذي

كان أوّل من اكتشف جثة أستاذه مضّرجة بالدماء، فأسرع وبلّغ المخفر عن الجريمة».

بانتظار استدعاء المتهم إلى المحكمة، وبدء التحقيق في مقتل ماجد مزرعاني، وُضع فارس رستم تحت المراقبة الجبرية في زنزانة منفردة. في تلك الأثناء، وفيما التحقيق في مماطلة خانقة، ويكاد يكون منسياً بين ملفّات المحكمة المتراكمة على الرفوف، طلب فارس كتباً للمطالعة ودفتراً وقلماً للكتابة.

يوم صدرت مذكرات فارس رستم تحت عنوان «لمّا كنت» وعلى الصفحة الأولى البيضاء كلمة إهداء

«إلى ثريا حبيبتي في الحرية والظلمة»، كان مضى سنة على إعلان براءته، وإطلاق سراحه، مغسولاً من دم معلّمه. حفلة التوقيع التي شاءتها دار»العصر» في مركزها، جلبت أرقاماً قياسية من الناس تسابقوا على قراءة سيرة ذاتية، كتبها السجين في زنزانته. فما جاء في الفقرة الأولى من الكتاب دلّ على ما حرم فارس رستم منه، النور:

«هذا الكتاب، في هذا المخاض العسير، كان في حاجة إلى ضوء ليولد، إلى قنديل، كالذي يحمله المنقبون في دهاليز المناجم. فالظلمة التي تقوقعت فيها، لم تغلبني، إذ عهدت لنفسي ألاّ أتسربل في استراق من شقوقها ولو خيطاً رفيعاً لأرى. فهل أقسى عذاباً من العتمة حين لا يعود الإنسان يدري أين يحط نظره؟».

الرسائل التي تأتيه من جدته سلمى، وكلّها تشجيع على عدم الأستسلام للظلم، كانت دوماً مرفقة بفطائر الكشك والزعتر والمعكرون بالدبس،

تحملها ثريا المتيّمة حباً به. تأتي إليه برفقة والدها عفيف معتوق الذي لم يشك لحظة في براءته.

في تلك الفترة السوداء، التي وصفها فارس في فقرة من الكتاب، بسفرٍ إلى أقصى حدود ما يتحمله المرء من إتهامات ظالمة، كانت ثريا تطلّ عليّه كشمس الصباح، وتنسيه بعناقها الدافئ عتمة الليل وصقيعه. فما إن تنتهي الزيارة المكيّلة بالدقائق وتفترق ثريّا عنه، حتى يتخلّص من وليمة جدته بإعطائها لحارس زنزانته، ويتحضّر لليل. كان كل ما يريده، قلماً وورقة و ضوءاً يستنير به.

الأخبار عن سجين يمضي وقته في كتابة مذكراته، صارت تنزّ من خروم السجن وتتناقلها الصحف، إلى أن حرّكت اهتمام دور النشر. تحلم كل دار بأن تكون السبّاقة في نشر حدث لم يسبق له مثيل في هذه البقعة من العالم العربي.

يوم فُتح التحقيق في قضية المغدور ماجد مزرعاني، أستاذ التاريخ واللغات في ثانوية عين الشمس، بدأت المحكمة باستدعاء الشهود، وفي مقدّمتهم سلمى الجدّة، التي ما إن رأت فارس في قفص الاتهام ينتظر مصيره، حتى ملأ عويلها قاعة المحكمة، ولم تستعد هدوءها إلاّ وصوت المطرقة ينبّهها إلى أنها في حضرة التحقيق، وصوتٌ من تحت القوس يسألها:

«سلمى رستم، ما هي العلاقة التي كانت تربط حفيدك فارس رستم بمعلّمه السابق ماجد مزرعاني؟»

«أصبح التلميذ مع مرور الوقت صديق أستاذه. كان يزوره في بيته المعزول عن القرية، ويعود في كل مرّة بكتاب يختاره من مكتبة المعلّم الغنيّة بأنواع المواضيع الأدبيّة والتاريخيّة، كما يصفها لي حفيدي، المولع بالمطالعة، فأنا لا أجيد القراءة. كان فارس يطلب مني أن أخصّص ماجد بوجبة تذكّره بأمه. وبطيبة خاطر كنت أجمع أنواع الحبوب وأطبخها في القِدْر حتى يعشق بعضها البعض، وتتخثّر. الكمون والقرفة يأتيان في النهاية ليجعلا من أكلة مخلوطة فلاحيّة، أميرة المائدة. واجبي، يا حضرة القاضي، كبير تجاه هذا المعلّم الذي أحاط حفيدي بعطفه، ولم ترَ منه ضيعتنا سوى الخير لأبنائها. يا حسرتي عليه».

«أين كان فارس ليلة وقوع الجريمة؟».

«عاد عند الغروب منهكاً من رش المبيدات على الكروم لصونها من الفطر. كان جائعاً. فنجان البابونج وعروس جبنة الماعز كانا كل ما طلبه ليسد جوع نهار بكامله. إستحم بعدها، وذكّرني قبل أن يدخل غرفته، بمناقيش الزعتر والكشك التي أوصاني بها لمعلّمه. في منتصف الليل، كان ما زال الضوء مشتعلاً في غرفته وهو يغطّ في نوم عميق. سحبت بتأن الكتاب من يده حتى لا أوقظه، ثم أطفأت الضوء ولذتُ إلى فراشي».

«في أي ساعة من الصباح أخذ له ما أوصاك به؟».

«باكراً، بدأت في هلّ العجين ورقّه حمل الصينية ومضى مسرعاً إليه. لم تمضِ ساعة حتى صرت أسمع جلبة آتية من ساحة الضيعة. تركت كل شيء

وهرولت إلى مصدر الصراخ وقلبي يخفق هلعاً على فارس، فمقتل والده ما زال جرحاً ينزّ في قلبي. رأيته في رفقة عنصرين من مخفر الدرك متجهين إلى بيت ماجد مزرعاني، ولم تكن صينية المناقيش في حوزته. سمعت هديراً كذلك الذي دوّى في رأسي يوم سقط رفيق مضّرجاً بدمائه. وعلمت من الناس بمقتل المعلّم. كيف لي أن أعرف ما جرى بعد ذلك، و فارس يا ولدي، في قبضة التحقيق كمتّهم أوّل في هذه الجريمة الشنعاء».

شهادة سلمى، تلقّاها فارس، براءةً معنوية لا جدل فيها، نابعةً من قدسية امرأة، تتأنىَّ في كل كلمة تقولها كما تكرج بين أصابعها حبّات المسبحة وهي تتمتم «السلام عليك يا مريم». فأيّ شهادة بعدها ستتساوى بشهادتها، فتكون لها عفّةُ العجين حين يهلّ بين يديها و يترهّب خبزاً على الصاج؟ حزيناً كان، وهو يستعيد ملحمة نسله، المكتوب له القهر والتضحيات.

عاد من شروده وصوت قاضي التحقيق يدعو عفيف معتوق إلى الأدلاء بشهادته.

تقدّم عفيف معتوق من القوس وأقسم اليمين لأن يقول الحقيقة، إلاّ الحقيقة.

«سيّد عفيف معتوق متى تعرّفت إلى فارس رستم؟»

«نحن من سكّان الأشرفية، نأتي إلى عين الشمس المنتمية إليها عائلتنا للاصطياف هرباً من حرّ العاصمة. هذه الفسحة الصيفية أمضيها للراحة والاستجمام بالتنزّه مع زوجتي في الطبيعة، وحضور قداس الأحد من

دون أن يخطر في بالنا أن نقيم أي صلة بأهل القرية. لكني كنت على بيّنة مما مرّت به القرية من أحداث أليمة، كلما جاء أبونا مخايل، كاهن الرعية لزيارتنا. فمن أجمل ما رواه لي، سيرة سلمى رستم، المرأة التي واجهت مآسي الحياة بصلابة الفرسان، حتى صارت أسطورة تُحكى للأجيال، وما زالت، بالرغم من تقدّمها في السن، مثلاً يُحتذى بين الفلاّحين. في الحقيقة، لم تشأ الظروف أن نتعرّف إليها إلاّ بعدما عقد فارس خطوبته على ابنتنا ثريا».

ويسأله القاضي:

«لكن، كيف أصبح فارس رستم خطيب ابنتك ثريا من دون سابق معرفة؟»

«الفضل كله يعود إلى صوت ابنتنا ثريا؛ هذا الصوت الذي سحر فارس. درست ثريا أصول الغناء الكلاسيكي والعزف على البيانو في المعهد الوطني للموسيقى، فصارت، في موسم الصيف، بطلب من كاهن الرعيّة، تدرّب الجوقة على أصول الترنيم، ما جعل قداس الأحد حدثاً إحتفالياً، يؤمّه المؤمنون لا إتماماً لواجباتهم الدينية فحسب، بل أيضاً كما قاله لي أبونا مخايل ضاحكاً، باتوا كثراً على غير عاداتهم، يأتون للترنّح على صوت ثريا حين تنفرد عن الجوقة، مسبّحة الخالق بشدوها المزموري. فبفضل هذا الصوت الملائكي، صار للإيمان مكان أوسع في الكنيسة. إلى ذلك الحين، لم أكن أعرف فارس رستم، ولم ألحظ بين الجموع في قداس الأحد، شاباً متميّزاً عن سواه بعلامة فارقة، إلى أن جاء في تلك المسوية يطرق بابنا من غير موعد سابق. كان صريحاً ومباشراً:

«صوت ثريا قادني إليكم لأطلب يدها. أتمنى أن تقبل بي زوجاً لها».

«جاء فارس يطلب يد ثريا بمفرده، لا كما تفرضه التقاليد، فهو لم يكن في حاجة إلى من يتكلّم عنه. فأول ما برز منه، الجانبُ المشع من طبيعته الظليلة. وريث عائلة تقدّس الأرض وترعاها، تعالى بالعلم والاختصاص والمطالعة فوق التقاليد الريفيّة. لقد دخل منزلنا كما طيور السماء، حرّاً من قيود مجتمعه. وبثقة لا تخلو من كبرياء الإنسان الذي دعكته تجارب الحياة القاسية من دون أن تذلّ ذرّة من عزة نفسه وعنفوانه، قدّم نفسه أمامنا صفحةً بيضاء جاهزة للزواج والاستقرار. إنسان يزن أمور الحياة بوزنات عادلة، لا يمكنه أن يخطئ. صرت أتعامل معه، في ترداده على بيتنا، كابن لي، أكثر من كونه خطيباً على وشك الزواج من ابنتنا».

«هل تعرّفت إلى ماجد مزرعاني بواسطة صديقه فارس؟».

«كانت تأتينا أخبار عين الشمس بالجملة والمفرّق، من أبونا مخايل. لم نكن في حاجة إلى التدخّل في شؤون الناس. فارس، كان كما علمت منه، وفيّاً لهذا المعلّم الذي هذّب ثقافته وأغنى فيه الإنسان الذي كان يطمح أن يكونه. وعدا ذلك، لم أتماد معه في الحديث عن معلّمه، أو عن أي شيء آخر، حرصاً مني على مراعاة اللحظات الحميمة التي تجمعه بثريا».

حين وقفت ثريا لتدلي بشهادتها، رقيقة بفستانها الأبيض المعرّق بأزهار الأقحوان والبنفسج، لفح فارس شعورٌ بالذنب، واغرورقت عيناه بالدموع. فهذا المكان الذي تشوبه الشكوك والنيات الأتهامية، من الظلم أن

تدوسه هذه الصبيّة التي يكفي السماع إليها تغني حتى تتوب الإنسانية عن خطاياها. رمقته بنظراتها الزرقاء، رسالة حب وصلت إليه بالبريد السريع فوراً، بعدها رفعت يدها وأقسمت أن تقول الحق، ليس سوى الحق.

حدّق قاضي التحقيق ملياً في هذه الرؤية الشفّافة الواقفة تحت القوس بسكون ناصع، لم تلطّخه رهبة المكان. لقد أدرك في اللحظة الخاطفة التي تبادلتها مع الموقوف في قفص الاتهام، أن الحب معجزة من معجزات هذا الكون، وقادر أن يبدد الظلمة ويعيد إلى الشمس إشراقتها.

عاد من شروده فوراً حتى لا يتيه في هذا الاحتفال الصامت بين عاشقين، ويفقد هيبته على المنصّة العالية:

«ثريا معتوق، تذكّري جيداً متى، وأين تعرّفت إلى فارس رستم».

«لن أنسى ذلك اليوم الذي دخل فيه بيتنا الصيفي في عين الشمس، حاملاً رسالة شفهيّة، قرأها بصوت عالٍ، يطلب فيها يدي للزواج. بكلمة موجزة، رفعني إلى مرقد الطيور. قال:

«صوت ثريا الشجيّ قادني إليكم لأطلب يدها. أتمنى أن تقبل بي زوجاً».

لم تكد تبوح بهذه الكلمات حتى علا التصفيق في قاعة المحكمة. الحب والعشق بين الطيور ليسا من عادات التحقيق في الجرائم. ثلاث طرقات بالمطرقة أعادت إلى الجلسة وقارها:

«هل تسنّى لك مذ عقدت خطوبتك على فارس أن تتعرّفي إلى ماجد مزرعاني؟».

«أجل! كان صديق فارس الوحيد. الحديث معه كان شيّقاً، غنيّاً بمختلف المواضيع المتعلّقة بالأدب والمسرح والموسيقى. أنا المتيّمة بموسيقى باخ حفظت منه عبارة، أخذتني إلى أبعد من محيطي الموسيقي والعلمي: «باخ عبقريّ ملهم، أشعل الموسيقى بخورَ إيمان بالخالق».

«لم أكن على قدر التقاط مغزى كلماته، لكن أكثر من الموسيقى مضيت أستشف من معلوماته غلاّت للفكر والروح، ولاسيّما موضوع المسرح الذي أراد به، في هذه القرية الفلاحيّة، التوعية لتلاميذ يعانون جفاف ينابيع خيالهم. فبتشييّده مسرحاً، مقتبسة مواضيعه من الأدب العالمي أم مكتوباً بقلمه، من وحي حياة القرية وأحداثها، صار يلاحظ التغيّرات على التلميذ حين يقتبس شخصيات تناضل من أجل الحرية الفكرية والجسدية».

«وعن حياته الوحدانية، ماذا عرفت؟».

«لا شيء. شعرت به متكتّماً عن هذا الموضوع، ولاسيما حين تجاسرت وكلّمته على هذا التناقض في شخصيته: من جهة، غيرته على أبناء القرية، ومن جهة أخرى، بقاؤه في عزلة العزوبيّة. لاحظت حزناً عتيقاً يكسو تعابير وجهه بالتجاعيد المبكرة. حركة خفيّة من يد فارس، أنهتني عن هذا التطفّل على حياة معلّمه. لم أفهم. شعرت بأن ثمة سرّاً، وحده فارس مؤتمنٌ عليه ولا يريد مقاسمتَه مع أحد ولا حتى معي. خرجت من بيت المعلّم، وفي حوزتي كتاب لمارسيل بروست «البحث عن الزمن الضائع» وهو يقول لي مودّعاً:

«تذكّري يا ثريا أن الكتب التي تخرج من مكتبتي تتمنى بعد قراءتها أن تعود إلى رفّها».

«لم يخالجني شعورٌ وأنا أعده بردّه إلى رفّه حالما أنتهي من مطالعته، بأني قد لا أفي بوعدي. فالزمن الضائع ما زال تائهاً على وسادتي. فراقه المفاجئ أفقد فارس أكثر من صديق ومعلّم، الأب الذي حلّ مكان الغائب. لم يتسنَّ لي تعزيته، إذ سرعان ما أُلقي القبض عليه ما إن بلّغ مخفر الدرك بالجريمة».

في هذه الخلوة التي فُرضت عليه ظلماً، عاد واستذكر على صفحة من دفتره، وجيهة البصّارة.

«كان ذلك منذ ربع قرن، كنت مع جدّتي أمرح في بستان الزيتون، حين اقتربت مني المرأة التي كانت تُرضع طفلها منذ هنيهات وأخذتني بين ذراعيها. لم أصرخ ولم أقاوم، بل كنت منصاعاً لها بقوّة مغناطيسيّة. تأثيرها فيّ، أجّجته أنفاسها العابقة برائحة الحشائش البرّية. وضعت يدها على رأسي وراحت تتمتم تعاويذ لم أفهم منها شيئاً، إلى أن بدأت رغوة بيضاء تطفو من فمها، مشحونة بأمور تخص حياتي. أدركت من عمري الرخص، أنها دخلت في عالم الغيب. كانت حياتي كلّها بين يديها، تقلّبها فصلاً تلو آخر، إلى أن انقضّت عليها جدّتي متّهمة إيّاها بالتعامل مع الشياطين. لم ترجع وجيهة في المواسم التالية إلى أرضنا وبقيت أنفاسها عالقة في الهواء الذي أتنفّسه. فهل في تلك المقاطع القاتمة من حياتي، مثلما روتها لي جدّتي فيما بعد، كي أكون حذراً من مغبات القدر، سها شيطان وجيهة البصّارة عن هذه الفاصلة البارزة في حياتي: السجن».

كان فارس يشعر خلال الأيام الأولى لاحتجازه، بعتمة الليل طاغية على ضوء النهار، فالشكوك حوله التي اقتضت معاملته كمجرم محتمل حتى تبزغ الحقيقة، زجّته في الظلمة كي يسترجع حياته بصدق، هذه الظلمة التي جعلته يتيه عن نظام الوقت الحاضر ويمتطي عجلة الزمن المتمهّلة في سيرها... إلى الوراء. فقبل أن يدخل الدفتر والقلم زنزانته، كان يملأ خزّان ذكرياته بما يودّ نسخه على الورق. السر الذي باح به ماجد في تلك الليلة التي توشّح فيها القمر بهالة من الخفر، سيكون أداته في مواجهة المحكمة. سر ماجد ونسرين لم يعد عبئاً، بل رفيق خلوته. هذا السر حين سيطلبونه للمثول أمام المحكمة، سوف يجرّ شهوداً كانوا مخفيين كأشباح نسيَهم الزمن. تلك الاعترافات كان يدوّنها على أوراق السجن كدعامة سوف تُبقيه صامداً في منفاه الجوّاني، مستقوياً بحب ثريا وزياراتها الأسبوعية، حاملة له زوّادة عشق منها، وفطائر من جدّته سلمى.

لم تكن جريمة مقتل ماجد مزرعاني، محصورة بالقرية النائية التي اختار فيها منفاه، بعيداً عن ذكرياته الأليمة. فالأشباح التي كانت ترصّده وتؤرق نومه، برزت على حقيقتها يوم وصلت إلى فارس رسالة من مجهول، استلمها مدير السجن وقرأها قبل أن يطّلع السجين على مضمونها:

«سوف نقتفّي أثرك أينما كنت، هي ذاتها الرصاصة التي استهدفت قلب المجرم الذي عبث بديننا وبتقاليدنا، سوف تنال منك. فبالثأر نغسل العار ولو بعد حين».

بين ليلة وضحاها إتخذت الرسالة المكتوبة بالحبر الأحمر، لون الدم والثأر، أبعاداً مذهبية وعرقيّة. قرأت السلطات القضائية فيها تحذيراً، لا للسجين فارس رستم

فحسب بل أكثر منه، تحذيراً لها. فكيف السبيل إلى منطق عادل في وطن هشّ، يسيطر فيه الدين على الدولة، والتعصّب الأعمى على العقل وموازينه؟

الرسالة، قرأها القاضي حميد العبدالله مرّات، مستنيراً بحدسه ليتصوّر ما قد تجلبه هذه الإنذارات من مخاطر على حياة السجين، وربما من مضاعفات على مسار التحقيق. الهواجس المتسارعة في أفكاره زرعت البلبلة في ملف الجريمة. فقبل أن يبزغ الضوء، وبعد ليلة تعارك فيها مع النوم، قام هذا الخبير المحنّك بالجنايات الأكثر تعقيداً، إلى أوراقه، مستعيناً بخبرة أغاتا كريستي التي أهدته إلى سلك القضاء، بعدما قرأ لها «عشر عبيد زغار»، وهام بعدها بكل مؤلّفاتها، يستقي في أجواء ملبّدة بالتوتر والأسرار، مسألة، وحدها أغاتا كريستي كانت قادرة على حلّها، حين يتعلّق الموضوع بالعدالة شبه المفقودة، بعاهاتها ونواقصها. فالجريمة في عرفها، ليست دائماً الفعل الشنيع الذي يقترفه المجرم بضحيّته، بل أبشع منها، التقصير الذي غالباً ما يتكرّر بحق إنسان معرّض للخطر.

كتب ما أوحته إليه أغاتا كريستي:

«كيف والحقيقة مستترة وليس في اليد إثبات صارم على مقترف الجريمة، في استطاعة المحكمة أن تتهم بريئاً وتحاكمه، والمجرم الحقيقي حرّ، طليق من يد العدالة؟».

لكن الرسالة لم تكن كافية لتبرئة فارس رستم. فأغاتا كريستي، بوسوساتها، أصبحت المحرّضة الكبرى على توسيع رقعة التحقيق، إذ طالت بحنكتها،

وتدقيقها في الشاردة والواردة، ما لا يخطر في بال المحكمة، مرجّحة كفاً لا تخطر سوى في ميزان الشيطان. قد يكون فارس رستم متواطئاً مع كاتب الرسالة للتخلّص من ماجد.

كشح حميد العبدالله هذه الفكرة الجهنّمية من عقله حتى لا يصبح عاجزاً عن التكيّف بذاته في مجريات التحقيق. لكنّ،رغماً عنه، وجد نفسه عالقاً في فخ أغاتا كريستي وشخصياتها، حائماً بظنّه حول الشهود الذين عبروا تحت القوس. وأجمعوا بصوت واحد، على علاقة فارس الودّية بمعلّمه ماجد مزرعاني، فهل هذا كافٍ - تسأله أغاتا كريستي- للتخلّص من شكوك، هي أساس اللعبة البوليسية؟ الظنون التي زرعتها في فكره قائمة على معادلة ذكيّة. كلهم متّهمون محتملون في هذه الجريمة، ما لم يكشف التحقيق عن الجاني.

بعد ليلة مضطربة أمضاها يفك أحاجي أغاتا كريستي المعقّدة،عاد إلى رشده مع أريج الهال منبعثاً من قهوته الصباحية، يفكّر في فارس؛ هذا الشاب الغامض، الحبيس في زنزانته، يكتب، ليلاً ونهاراً، كأنه وجد في هذه الخلوة المكان الذي تطمح إليه نفسه التائقة إلى الانفراد. الرسالة المجهولة المصدر، سوف لن تعرقل مسار التحقيق ولن تردع السلطات القضائية عن إداء رسالتها، ولو تحت تهديد إنسان منحرف، يضع القضاء في مواجهة مع سلطة همجيّة مستقلّة عن سلطة الدولة وقوانينها، تقترف جرائم الشرف بما تمليه عليها شريعة الغاب. القرار الذي اتخذه كان حازماً. إغلاق قاعة المحكمة أمام الصحافة واستدعاء السجين إلى جلسة سرّية للإدلاء بشهادته بعيداً عن الفضول والخطر المداهم حياته.

لم تكن شهادة فارس شفهية، بل مخطوطة بقلم الرصاص، كتبها على ضوء الزنزانة الشحيح، حيث لم يكن له سوى صوت ضميره رفيقاً يؤنس وحدته. شهادة صارخة قدّمها إلى المحكمة دليلاً ساطعاً وحرّاً عن الصداقة المتينة التي ربطته بماجد، إلى السرّ الكامن في أعماقه والذي باح به إليه في ذلك اليوم. مأساة دمّرت حياته، حملها معه إلى بلدة عين الشمس هرباً من محاكمة الضمير.

قبل المباشرة بقراءة حصيلة شهرين من الكتابة في السجن، سأله حميد العبد الله عن الرسالة التي يود التصريح بها. أجابه فارس:

«الكاهن قد يسمّيها اعترافاً، والقاضي مذكرات».

شعر حميد العبدالله بارتباك أمام هذا الشاب الرضيّ، الساكن، لا تهزّه العواصف على الرغم من المحن التي يمر بها. آمن في زنزانته بأن قلمه هو الشاهد الوحيد الذي يجعل وصول المحكمة للكشف عن الحقيقة، ممكناً. بينما كان رئيس القضاة مراهناً على أغاتا كريستي، تنير له ولو شعاعاً، يُريه الحقيقة. أخذ الدفتر وقال بعد أن اطّلع على مضمونه:

«ليت في استطاعتي يا فارس رستم، أن أخلع ثوب القضاة عن مسؤولياتي فنتحاكى من الند للند».

الكتاب الذي ظلّ فارس مواظباً على ملء صفحاته بما يدمل الجراح أو يؤجّجها، كما وصفها، عثرت عليه رشا في بيت القناطر حين لم يعد سواها فيه، إرثاً حزيناً كبستان الزيتون الذي تفوّق على الكروم اليابسة وبقي وفياً لسلمى، تنزّ حبوبه المتغضّنة، والعالقة على الأغصان، زيتاً أسود.

«ما عجز فكري عن فهم طبيعة والذي المكفهرّة دوماً، وجدته في مذكراته. في عتمة السجن استهلّ الكتابة واصفاً إيّاها بالمياه الجارية، تليّن قساوة السجن وتزيح قضبانه، فيرى ما قد تعده الحياة خارجها. هذه المذكرات التي صدرت عن «دار العصر»، تبعتها فيما بعد، كتابات أكثر عمقاً ومرارة، أدركت من أسلوبها، مأساة إنسان ظلّ مواظباً على الكتابة إلى يوم رحيل ثريا. بوفاتها جف الحبر، وأطبق الغلاف كفناً على سيرته:

«برحيلها دخلت سجناً أبدياً ما من بعده طعمٌ للحياة».

عبر ضياء العجمي كالبرق في خيالها. لم تنس ما قاله لها:

«اذهبي وادفني موتاك وعودي إليّ، إلى المسرح الذي أنجبك».

عودتها إلى الوطن، وذيول الحرب، التي ما زالت هنا وهناك على فوهة مدفع، لم تكن فقط وداعاً لوالدها الذي قضى برصاصة قنّاص على خطِ قسم بيروت العاصمة بيروتين، شرقية وغربيّة. مجيئها إلى مدينة مدمّرة، كان تلبية لما تمنّاه والدها عليها في رسالته الأخيرة:

«إبحثي عن شقيقتك يا رشا. أصبح العبور ممكناً الآن. الدول الكبرى التي أشعلت الحرب في هذا الوطن الصغير بهدف تقسيمه جزراً من عصبيّات وأحقاد طائفية، تعمل الآن على إطفائها لعدم جدواها، سوى ما خلّفته من خراب وطن ومئات الآلاف من القتلى والمهجّرين والأيتام. اسألي عنها في الجامعة الأميركية، مكان عملها، وحاولي الوصول إلى هلا بوري التي كانت سبب هدايتها إلى حرب عقوق ضد بلدها».

هل كان في وسعها أن تتغافل عن هذا النداء الآتي من حدس والد، قرأ حتفه على هذا الخط الفاصل بينه وبين ابنته سناء، فكتب إليها هذه الوصيّة؟

عادت إلى عزلتها الواقية، تحتمي بها، لتبعد عن فكرها هذا الأتون الذي يطلب والدها منها أن تزج هشاشتها فيه:

«حماني والدي من ويلات الحرب بإرسالي إلى بلجيكا من دون أن يحسب لكلفة هذا المعهد العالي الخاص بالمتوحدين، حساباً، وها هو يطلب مني العودة إلى الحرب، بعدما استقرّ وجودي في عالم المسرح ومزّقتُ غشائي العازل لأنطلق بجناحيّ إلى الحريّة. ما زلت أتذكّره على أرض المطار، يودّعني ودمعة محبوسة في كبريائه يأبى الإباحة بها».

عادت بالذاكرة إلى سنوات الغربة حين كانت بكل ما علّمتها إياها الطبيعة في عين الشمس، تسعى للتكيّف مع غربتها. كانت توأم ذاتها، تتحاكيان بالصمت حيناً وبالكتابة حيناً آخر. لكن في ذلك اليوم، رأته، هي التي لم تكن لتلاحظ أبعد من حدود جسدها، وهذا ما كانت جدتها سلمى تعيّرها به.

بشرته اللامعة كشمس سوداء، طغت على سحنات أعضاء اللجنة الباهتة. كان مدعوّاً من إدارة معهد المتوحّدين، ليكون مع اختصاصيين بعلم النفس والرسم والموسيقى والمسرح، عضواً في امتحان طلاّب المعهد وما استعدّوا ليقدّموه أمام اللجنة الفاحصة. فلعلّ هذا الامتحان يكشف مواهب مخفيّة لدى البعض منهم.

لم تلتفّ رشا كحلزونة في عزلتها. حفيدة سلمى رستم كانت مصممة على مواجهة أعضاء اللجنة بجرأة. وهذا ما صارت تعيد تكراره حتى لا تخذلها انطوائيّتها:

«منذ الصباح شعرتُ بيد القدر تقتلعني من عزلتي المزمنة وتحثّني للانتصار على علّتي. فما خطر في بالي ليلاً، قمت ودوّنته على ورقة حتى لا تتعثّر ذاكرتي أمام اللجنة. متدثّرة بفستان أمي الأسود، بدوت كما جاء في مذكرّات والدي، على مثالها: ثريا، الهاربة دوماً من واقعها لتكون كائناً آخر. سمعتهم ينادونني بإسمي. أصبح لي اسم. نويت في تلك اللحظة أن أفجّر الغلالة المقيدة جناحيّ وأتحرّر من العدم.

«إسمعوني! أنا قتلت أمي لأجل أن أحيا. الخيوط المسيّجة حرّيتي، هي عقابي. سوف أعود إلى رحم أمي وأطلق سراحي منه، فبولادتي الثانية ستكون لي الحياة التي أستحقّها».

اقترب مني الرجل الأسود وهو يتأملّني. أخذ مني الورقة، أعاد قراءتها بصوت جهور. اقشعرّت حواس المرأة الغافية في أعماقي لدى سماعه. عاد وتأمّلني. طواها ووضعها في جيب سترته وأنا معها أنطوي وأخرق في ليله، أعمق من جيبه. شعرت بكيان الأنثى تنتفض على قدرها التعيس، والرجل الأسود يكسر قضبان سجنها ويحرّرها بكلمات، كانت البداية لحياة جديدة في ظلّه:

«هل أدركت هذه الفتاة أنها بتلك العبارة الكونية لمست ميتولوجيا الموت؟»

«بل كنت في كامل وعيي، أنتظر من هذه اللجنة، أن تكون محكمة الرأي، فتبرّئني وتنشلني من منفاي. سرّ موتَ أمي لم يعد ثقلاً عليّ. ها هو يعيدني من جديد إلى هذا الرحم الذي جعل مني قاتلة».

تشابكت الأزمنة، بين مذكرات السجن والذكريات الحلوة المرّة التي عاشها والدي مع أمي. وفي قراءتها، صرت أتلقّى من هنا وهناك شظايا ثاقبة، تحمّلني مآسي قدريّة، فلشت آفاتها على كل فرد من العائلة ولم أخرم من شباكها.

كل ذلك كان بالأمس. لم أكن أعرف منه سوى القليل، القليل مما روته لي جدتي سلمى، وبقيت خالتي روزا التي تولّت تربيتنا، ساكتة عنه. بيت العقد هو حنيني إلى ما كنت، فمنه كانت انطلاقتي الأولى إلى الحريّة. في هذا الفراغ، يلتقطني الغياب بمخالبه. يعبر طيف سلمى أمامي، أتكمّش بذيل مريولها حتى لا تتوارى عنّي. الذكريات هي المصالحة الوحيدة مع الموت. أشمّها معشّشة في حنايا المطبخ. روائح الكمّون والنعنع والكزبرة المحرقصة في الزيت مع التوم، شاهدة في مسام الحجر. ألتفّ بشالها الصوفي وأغدو إلى الكرم لأستعيد في خيالي المشهد الذي رواه لي والدي في رسالته:

«رأيتها تلوّح لي، وإشارة النصر في العنقود الأحمر المرفوع عالياً، كفعل شكرانٍ لسخاء الطبيعة. قبل أن أصل إليها لمشاركتها في فرحتها، كانت الأرض التي أحبّتها وسقتها بعرق عراكها مع القدر،أسرع مني. جدتي، يا رشا، هوت بعد أن اطمأنّت إلى أن هذا العنقود يبشّر بمحاصيل مباركة.

كيف أنسى هذه المجاهدة التي حملت على كتفيها نعوش عائلتها، وحفنة التراب بين كفّيها، مدماكها حتى لا تنطوي».

شعرت بثقل هذا الإرث على كتفيها.

«صوت سلمى راكنٌ فيّ. أعود من شرودي في الحقول وسلّتي محشوّة بالبلّوط وريش العصافير، والقليل من الجرجير والقرصعنّة، فتستقبلني بنبرة اليائس من أيّ تطوّر قد يشفيني من علّتي:

«تمثّلي بوالدك. تعلّمي منه كيف يرعى الرزق بعرقه ودمه».

كنت تلك المتوحّدة التي لم تكن تدري إلى أين تأخذها خطواتها. أتحاكى مع ذاتي فأسمع صوتي الآخر آتياً من جوفي. أتفحّص وجهي في المرآة فأراه بلا حدود، مبعثراً في عدمي. ويعود صوت سلمى إليّ وأنا بين جفنات العنب أتخيّل ميتتها:

«اغمسي يديك في العمل يا رشا. اجعلي منهما يدين فاعلتين، حتى وأنت تحلمين».

«كيف أقاوم الحزن والوقت أصرفه بذكريات الأمس. أمس، كم مديدة فصوله، لا تنتهي. في هذا الانفراد الطاغي على حواسي، أفكّر في كل الذين أنتمي إليهم. باكراً رحلوا عن هذه الدنيا، باكراً في عزّ صباهم.

نبّهني الحاضر لصوت ضياء:

«اذهبي إلى مأتم والدك شرط ألاّ يطول غيابك. حياتك المسرح يا رشا، لا حيث الأموات والقبور».

كان ذلك قبل الليلة الختامية لعرض «دورا طير يغني في الليل». يغمر السواد قلبي. والدي ينتظر وصولي للوداع الأخير، بينما كنت أنتظر ليلة الختام لأجعل وداعي لدورا ثأراً وإعادة اعتبار إلى اسمي الملغى عن اللافتات الموزّعة في كل مكان، الملغى حين يدفق حبه الجنوني فيّ، وصوته كالبكاء في عنقي يناديها، «دورا، دورا»، فأتلقى اسمها في حنايا جسدي سمّاً قاتلاً.

ردّدها مرّات بينما كنت أحاول التحرّر من ذراعيه القابضتين عليّ، الأقوى مفعولاً من القضبان التي سجنتني سنين طويلة في عزلتي. كنت تلك الهاربة من خجل ولادتي، هاربةً من لعنة أمي، أبحث عن رحم آخر يلدنيّ دون محاسبة ضمير، فكان هو، ضياء العجمي. لم أتعثّر في هذا الطَّلق، جاهزة لأن أكون أسيرة يديه، أسيرة نظراته الثاقبة، أسيرة سحنته السوداء. مفيستو وفاوست لعبتنا، بعته روحي في مقابل أن يلدني من رحم المسرح كائناً، من عدة كائنات. فهل انتصرت على هذه الظلمة التي كانت تسيّرني كضرير، حين كنت منغلقة في غشائي، لا أدري أي قلم تلوين أرسم به الضوء؟

صارت جميع هذه الأفكار تراودني وأنا أعدّ نفسي للسفر. حتى لا أقول للهرب. وحسمت وداعي لضياء برسالة:

«كيف تطلب مني ألاّ أتأخر عنك وأنت السؤال والجواب لوجودي في حياتك. لم أفهم حتى الآن لماذا تبنّيتني ورعيتني و قد تجد الآلاف مثلي. وماذا

أقول للذي رأى ضوئي وأنا متعثّرة بالظلمة؟ يوم صرت «دورا» أدركت أنّك نفحت فيّ روح هذه الملهمة، وقولبتني على مثالها. وأتاني الجواب صافياً كالصباح، في تلك اللحظة التي أدركت فيها، وأنا بين ذراعيك، أني «دورا» حتى في فراشك. فمثلما تحتويني الخشبة لأكون «دورا»، وأعيدها من الموت إلى الحياة أمام تصفيق الجماهير، يغمرني ليلُك، لأكمّل معك طقوس حبك لامرأة، مهما ماتت على المسرح، باقية هي، حيّة فيك.

رشا إلى الأبد».

«عدت لأدفن أبي. وصيّته قرأتها في السطر الأول من رسالته الأخيرة التي تلقّيتها قبل أن يباغته الموت على هذا الخط الذي قرأ فيه الخزي والعار لهويّته اللبنانية:

«خذي ما كتبته بروحي وفكري وخيباتي. افتحي كل صفحة وتمعّني بالكلمة، مزّقي ما لا يحلو لك، واحفظي ما وددته سعياً لسعادة خرافية، آمنت بها حتى لا يجف الدم الذي به رويت تربة عين الشمس. وتذكري يا رشا أن لك فيها مدفناً، فمن ليس له قبر ليس له وطن».

«عدت كي أعطي نفسي الوقت اللازم لنشر سيرة عائلة عاشت تاريخ لبنان بمراحله المأساوية، بدءاً من الغزو التركي والجوع والجراد والاغتراب، وصولاً إلى الحرب الأخيرة التي ما زالت تنزّ أحقاداً لن تلتئم.»

وصيّة فارس، قرأتها رشا مرّات إلى أن أدركت أن البقاء في بلدها سيطول، فلن تعود إلى ضياء إلاّ بعد أن تعثر على الخيط الذي سيقودها إلى سناء. هذا ما تمنّاه.

على موسيقى نشيد الموت، الصادحة من أبواق الكشّافة، سرنا وراء النعش، تحت سماء تلبّدت بالغيوم القاتمة مذ نعى قرع جرس الكنيسة موتاً. هنا للموت تقاليده وللدموع احتفاليتها، فالسماء تنزل من عليائها للمشاركة في الحزن والبكاء. كانت الأمطار في انتظار الموكب، لتزخّ بكاءها حداداً على ابن عين الشمس، بينما بكائي سمعت صريره في حنجرتي اليابسة. جئت إلى مثواه الأخير لا لوداعه فحسب، بل لأعيد الرباط بينه وبين ثريا أمّي.

أخذت أوراقه، أتلصّص بها على الوجه الآخر من والدي الذي لم أعرفه؛ وجه عاشق، أيبست نضارته لوعة الفراق. أمام المشيّعين تحت مظلاّتهم السوداء رحت بها أسعر عويل الرياح وبكاء السماء:

«ثريا، لم أستحق هذا الغياب. كانت حياتي معك قصيرةً، كنيزك مرّ بسرعة، استيقظت فلم أجدك. كنتِ فردوسي وجحيمي، ناري وجليدي، ينبوعي وعطشي ورحلتِ تاركة وراءك ينبوعاً جفّت ماؤه، فكيف لي أن أغمر ابنتيّ بالحب والحنان، وبرحيلك جعلتني عوداً يابساً لا يصلح حتى حطباً للنار».

في بيت العقد أخذت رشا وقتاً للمطالعة قبل أن تمضي في مهمّتها الصعبة. فروزا في انتظارها، لعلّها تساعدها على الوصول إلى سناء.

«لمّا كنت»، عند هذا العنوان توقّفتُ مليّاً. مذكرات كتبها فارس رستم في عتمة زنزانته حين كان سجيناً، وصدرت في كتاب. وفي محاذاتها مخطوطة بخط يده، ربما تعود كتابتها إلى ما بعد زواجه من ثريا. أخذت رشا الكتاب

بعنوانه المبتور، وقرّرت المباشرة بمطالعته استجابة لما جاء في رسالته الأخيرة لها كأنه كان يتوقّع موته:

«خذي ما كتبته بروحي وفكري وخيباتي، وتمعّني في كلّ كلمة».

«في غرفة سرّية بدأ استجوابي بمنأى عن الفضول. كنت منفصماً عن ذاتي أسمع صوت ماجد يعلو من حنجرتي بوحاً متقطّعاً، من دون أن يساورني شكٌّ في أني أخون سرّه. كأنه سلّمني بموته حق الدفاع عن حبّه لنسرين:

«عين الشمس حمتني في هربي من لعنة أمّي. صوتها ما زال في أذنيّ. أنت قاتل نسرين الحقيقي، فعشيرتها غسلت بفعلها شرف العائلة. روح الجنين سوف يلاحقك أينما اختبأت».

«كان المحقق منصتاً إلى اعترافات أشبه بالهمسات، أحسست بإنها كالطلق تتعثّر في حلقي قبل أن تتخذ مكانها على صفحات الملف، كأني ما عدت أنا. استعار ماجد صوتي ليخرج من صمته:

«خلال كل هذه الأعوام التي أمضيتها في التعليم، مختلياً بذكرياتي السوداء، بعيداً عن الناس، كان خيال نسرين لا يبارح وسادتي، فأستيقظ مبلّلاً بالعرق، يخالجني شعور بأني معها في هذه الغرفة السريّة التي حضنت حبنا الممنوع، وهي ترتعش خوفاً من عائلتها ومحيطها حين عرفت أنها حامل، وأنا كالأبله عاجز عن استيعاب خطورة ما يجري. فكل ما فيّ كان عشقاً ورغبة جامحة لأتنشق عبيرها، بينما رأيتها تفلت من بين ذراعي وتقول لي:

«هذا الطفل لن يرى النور». قامت مسرعة ترتدي ثيابها، إذ أدركت أن هذا الحب الطائش الذي أوصلها إلى الحساب الكبير، لن يحميها من غسل العار. خرجت من الباب تجرّ ذيل خيبتها، وتتحضّر لموعد آخر، لكن هذه المرّة مع الموت».

كانت نسرين سرّا دفيناً في حياته، لم يبح به سوى في ذلك اليوم الذي جئت به مستوضحاً أموراً تخصّني. فتح لي قلبه الجريح، وتركه ينزف أسىً وهو يكلّمني على الصبيّة التي أحبّها حتى الجنون:

«في هذه الغرفة المحاذية للشاطئ، من ملح هذا البحر كنّا، مسكونين في عظمته، لا نبالي بالغرق في لججه كما في لجج الرغبة».

بدا المحقق حميد العبدالله، مأخوذاً بهذا الكلام، الأقرب إلى الشعر الإباحي، من أن يكون جلسة استجواب في غرفة منفردة من قصر العدل. كان يمجّ هذه اللغة التي لم تمتد إليها يد الرقابة، كسلك كهربائي في أنحاء جسمه. أخذ محرمته ومسح العرق الناضح من جبينه. كأنه كان يريد مزيداً من هذا البوح، يعيد إليه شباباً مضى، حين سأله:

«هل تفشّت في محيط ماجد ونسرين الجامعي قصة حبّهما؟»

«أتى ماجد على ذكر شاب مقرّب من عائلة نسرين، يدرس العلوم الاجتماعية في الجامعة. كان يقتنص المناسبات التي يراهما فيها جالسين في مقهى الجامعة، ليتسمّر أمامهما وعيناه متربّصتان بهما. كان ماجد يضحك من هذا الدخيل على حميميتهما، ويعزو ذلك إلى شاب حقود تتآكله الغيرة،

بينما كانت نسرين ترتعش منه خوفاً. أما نسرين، فأتخيّلها تقوم من كومة التراب التي سجّيت فيها ظلماً مع ثمرة حبّها لماجد، تقف أمامكم في هذه المحكمة لتشي بمن غسلوا عار العائلة بقتلها. أسمعها تقول:

«اليد التي قتلتني هي ذاتها، انتظرتْ زمناً لأصبح عظاماً في الأرض، منسية، كي تباشر البحث عن ماجد. فالثأر لا يموت».

سأله المحقّق:

«هل ثمة رابط بين ذلك الشاب الذي كانت نسرين تخشاه في الجامعة ورسالة التهديد التي أتتك إلى السجن؟»

فكّر فارس مليّا في هذا الاحتمال من دون أن يكون له رأي سديد في إمكانه مناقشته. ظلّ صامتاً، تجرفه الأفكار إلى أماكن لم يكن له فيها دور، إلى أن قال:

«لماذا أنا؟ ومن يكون صاحب الرسالة؟»

بعد أسبوع من الاستجواب السريّ، أعلنت محكمة الجنايات براءة فارس رستم لعدم بروز أي أدلّة تشي بضلوعه في مقتل معلّمه. أقفلت العدالة ملفّه، تاركة للتحرّيات متابعة البحث عن فاعل هذه الجريمة الغامضة.

ثريا ووالدها عفيف معتوق، كانا منذ الفجر في باحة السجن للاحتفاء ببراءته. فما كاد يخرج من هذا الحبس الذي أمضى فيه ليالي بلا شمس، ويده متكمّشة بيدها، حتى تفاجأ ونور النهار يبهر عينيه، بمراسلي الصحف،

وقد أتوا منذ الصباح، لنقل الحدث بالصوت والصورة. سيل الأسئلة انهال عليه. اختصرا الإجابات عليها بإبرازه الدفتر الذي كان رفيقه في خلوته:

«السجن ليس عقاباً للمفكّرين. سيكون لهذا الكتاب صوت الليل».

بين المحتشدين على بوّابة السجن، لمحه، متفرّساً فيه، بلباسه الأسود ولحيته الكثة، وعلى رأسه طاقية صوفية. في هذا الصباح المرصود لفرح اللقاء والبدء بحياة جديدة مع ثريا، شعر ببلبلة في أعماقه عكّرت طمأنينته:

«أيكون هو صاحب الرسالة المكتوبة بالحبر الأحمر؟ أيكون هو قاتل ماجد؟».

كانت السيارة تعبر شوارع المدينة، الخالية من السير في تلك الساعة المبكرة، حين عاد فارس بذاكرته إلى ما رواه له ماجد عن هذا الشاب الذي كان يطارد نسرين أينما وجدت في حرم الجامعة، فترتعد خوفاً من نظراته القادحة شرّاً. بسرعة كان القرار. أدرك عفيف معتوق، أن لدى فارس أمراً مهماً يود إيصاله إلى القاضي حميد العبدالله:

«صاحب الطاقية الصوفية واللحية الكثة لا بد من أن يكون هو، الشبح الليلي الذي كان يحوم حول بيت ماجد، فدعساته الموحلة ما زالت آثارها على الحشيش اليابس. لمحته بين الإعلاميين، متميّزاً عنهم، محدّقاً فيّ. لعلّه حاول بمجيئه أن يثبت بالفعل ما كتبه في رسالته. أنا في تمام صحة عقلي. هذا الرجل، نصب فخّاً لنفسه، أرجو ألاّ ينجو منه».

بيت العقد هو البداية. إليه كان رجوع رشا من بلجيكا، بعد طول غياب، لتودع إلى مثواه الأخير هذا الوالد، الذي من محاصيل الزيتون والكرمة أرسلها إلى أهم مؤسّسة في بلجيكا ترعى المتوحدين ببرامج علميّة متطوّرة.

«تذكّرتُ الدمعة التي تحرّرت على خدّه يوم ودّعته على أرض المطار. دموع صامتة، لم تكفكفها كلمة مني له. كنا غريبين، متوحّدين، سجيني غشاء، يُحرّم على الواحد منّا، أن يلمس الآخر. هكذا كان منذ طفولتنا، إلى أن وعت سناء على قشورها اليابسة، فمضت مع هلا الأخت الفرضية، إلى المخيّمات الفلسطينية تغمس لقمتها في صحن الفقر حنوّاً. وبقيت أنا علّة حياته. لم يستفقد عالمي الصحراوي، لبعد صحرائه عني. لم يقبّل جبيني كما كانت سلمى تفعل مع طلعة كل صباح. كان حزيناً، يغمس ريشته

بحبر أحزانه، فتمتلئ صفحات دفتره بكلمات ملتوية، منطوية، سائرة إلى المجهول، كشعوب على دروب منفاها، إلى أن سألتُ جدتي سلمى يوم أصبحتُ على قدر التنزّه خارج غشائي، إذا كنت أنا وسناء السبب الوحيد لهذا الوجع المزنّر حياته، موت أمّنا».

لم تكن حكايات سلمى كحكايات جدة الأساطير، تتوّج بعد العذاب والظلم بنهايات سعيدة. بدأت حكاية والدي بفاجعة وما زالت:

«هي هدى، الأم العقوق، في تخلّيها عن رضيعها يوم مقتل زوجها على يد شقيقها، السبب الأساسي لمأساة حياته. أصبح شارداً في البريّة، يلاحق بالنقافة الحشرات والزواحف، إلى أن جاء يوماً وبين يديه عش في داخله ثلاث بيضات. أعطاني إيّاها قائلاً:

تسلّقت الشجرة وأخذتها عن الغصن العالي، هديّة إليك».

أجفلته صرختي: «أتعلم يا فارس بأنك حرمت العصفورة من أمومتها؟ هي الآن تائهة كالمجنونة تبحث في هذا الحرج الواسع عن عصافير صغيرة لم يتسنَّ لها الوقت بعد لأن تكسر قشرتها وتطلّ بزقزقاتها إلى الحياة».

بمَ كان عليّ أن أجيب وصراخه فاق صراخي، والعش على الأرض يدوسه بغضب رجليه:

«وهل بحثت أمي عنّي لتحضن الزغلول الذي لم يتسنَّ له أن يشق القشرة ويطل منها إلى الحياة؟»

«كان قلبه ينضح مرارة وقسوة. لجأ باكراً إلى الكتاب يدمل به جرحه. بعد سنوات الداخلة في مدرسة الرهبان، عاد شاباً هادئاً، صامتاً، أبدى رغبة في التخصّص بالهندسة الزراعية وتربية المواشي. كان يسهر الليالي في المذاكرة، إلى أن تكلّلت جهوده بعد أربع سنوات بشهادة عالية من وزارة التربية وتقدير اللجنة الفاحصة. لم يغيّر النجاح شيئاً في طبيعته الوحدانيّة. صديقه الوحيد، ماجد مزرعاني، معلّم اللغات والتاريخ، الذي كان أكثر منه تزهّداً وتنسّكاً. حياته الغامضة التي دفع ثمنها من حياته، جرّت والدك إلى السجن، متّهماً بمقتل معلّمه. لم يكن مضى على خطبته من ثريا سوى أسابيع، حتى ظهرت بوادر أمل في مزاجه. استطاعت ثريا خلال هذه الفترة القصيرة، أن تكسر العزلة التي اعتادها، وتليّن طباعه المكفهرّة دوما».

سكتت سلمى، تخفي دموعها في صدرها كما علّمتها مآسي الحياة أن تكابر دوماً على الهزيمة، كي تبقى الأساسات صامدة تحت قدمي حفيدها.

«في الطائرة التي أودعتُ فيها كل حياتي، كان المجهول مغامرتي، كسجين فارٍّ من حبس أمضى فيه عقوبة ثماني عشرة سنة. فلكم تمنّيت أن أتجرّب في ولادة جديدة، بريئةً من موت أمي، معفاةً من أحزان أبي الدهرية، ومتحرّرة من سناء، هذا الغصن الذي طوى غصني باقتلاعه عنه.

«الغربة الآتية لا محالة، لم تقلقني، صرت أتحسّس مفاعيلها من أعماق هشاشة كياني وأنا أحلّق في السماء، كمن يسعى إلى طمر ماضٍ لم تشرق عليه شمس ولم يبزغ على ليله قمر. على هذه الكومة الهزيلة من حصّتي في الحياة قرّرت أن أغرس بذور أمل لموسم جديد. هكذا تراءت لي ألوان

الحياة بسذاجة الفتاة الانطوائية التي كانت في مدرسة المتوحّدين ترسم أشجاراً كانونيّة، عارية، وتنتظر الربيع لتكسو عريها الأوراق.

«لم أنسَ. فالماضي متصل وآفاته بجهاز لاوعيي اللاسلكي. الحرب أسمع ضجيجها فيّ، يعلو هدير راجماتها مع صوتي وأنا على المسرح في فستان ثريا الأسود، أتحوّل إلى «دورا»؛ إمرأة تراجيدية، محا ضياء العجمي بكيميائيتها القارضة حدود جسدي، لأكون هي، لا حدود لكونيتها. أتيه بين جغرافيتين: الخشبة، حيث أردّد كل مساء «ها أنا أهب روحي للظلمة، للموت...»، والوطن المتفجّر حيث هم. تزنّرني جوقة من المنشدين على وقع الطبول «فلتمت دورا، فلتحرقها النيران». أصوات أفقيّة، تعلو شيئاً فشيئاً وأنا متمسّكة بدورا الماضية إلى الموت، أموت ميتتها حتى لا أرى موتهم هناك.

«علاقتي بالموت مختلفة عن علاقة والدي به. الدماء المهدورة في أنحاء الوطن تنضح برائحة الإبادات الكريهة.أموات كانوا قبل هنيهات شبه أحياء، متأبّطين في فرارهم من الموت، خيط الحياة الرفيع لعلّهم ينجون من غدر قنّاص أو من راجمة طائشة تحصد في سقوطها الحجر والبشر والشجر. هذا ما كنت أتابعه على القنوات التلفزيونية، حالما أتعرّى من شخصية دورا، وأعود رشا ابنة هذه الأرض المنكوبة. الموت على الخشبة نبلٌ وانتصار على الحياة. نشيدٌ هو، صادح من حنجرة لا عمر لها ولا اسم، مكتوبة كلماته بأحرف ترثي ميتولوجيا الموت:

«مَن أنا؟ أبحث عن اللؤلؤة التي تطهّر النفس. هكذا كنت. أستحم بشمسك،أسكر من عصير ثمارك، أتعطّر بفوح كلماتك. لكن، من

سيتذكّرني حين ينسدل الليل على اسمي وأغفو تحت الرماد؟ سيزرعون الأقحوان. لكن الأقحوان لا يعيش على الرماد».

رسائل والدي كنت أسمعها، الواحدة تلو الأخرى، كعواء ذئب مسعور، فقد الأمل في إعادة ابنته سناء إلى حظيرته. الحرب، يتأنّى في كتابتها في جميع مراحلها السوداء، ويرسلها إليّ بالبريد حتى أقاسمه مأساة الأبنة والأخت الضالة. يريدني أن أستنير بمعرفته حتى لا أبقى في غيبوبة عما يحاك على الوطن من مكائد ومخطّطات جهنميّة للنيل من استقلاله. كنت أقرأ الدرس تلو الدرس مكتوباً بأسلوب روائي، فتذوي من ذاكرتي ملامح والدي الصارمة.

«في ذاكرتي علاقته الحميمة بالكتب المرصوفة على رفوف من خشب الجوز. كان يسهو عنّا ساعات طويلة، غارقا برفقة «النبي» لجبران و«الأعترافات» لسان أوغستان، تاركاً لجدتي نهلا وخالتي روزا، عبء رعايتنا. من قلب الغشاء الذي أقام سدوداً بيني وبين الحياة، كنت أسمعه يتنهد منشرحاً، عندما تأتيان لتملآ، ولو لساعات، فراغاً سحيقاً، إقترفته ثريا برحيلها. كان الحزن موزّعاً على كل منّا، صامتاً، أبيّاً، إلّا سناء، تنتظر جدّتها نهلا، لتغرق بين ذراعيها، وتفرغ بالصراخ والعويل ما في قلبها من أسى ملجوم، حرّم والدي علينا النطق به، كي لا نتذاكى على حزنه ونعلو فوق لوعته. هذا السلوك المفروض على التوأمين، أدّى إلى تمرّد سناء والتحرّر من سطوته باكراً، بينما لذت داخل غشائي، أسدّ أذنيَّ عن صراخ سناء و أُقفل قلبي على قساوة والدي. كانت روزا تدرك ما

في صمتي، فأشعر بها تدخل شرنقتي وتبثّني دفئاً وحناناً؛ هذه الحصة المفقودة من حنان الأم.

من بين الأشياء التي حملتها إلى بلجيكا، صورة زفاف والديّ، وفستان أمي المخمليّ الأسود. بينما حزم والدي أمتعته وكتبه وانتقل إلى عين الشمس، في إثر الصدمة التي تلقّاها حكماً مؤبّداً من ابنته سناء، والتحاقها بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. انفصالها عن والد وصفته في رسالتها الوداعية بالقساوة والطغيان، كان قاطعاً. لم تنسَ أن تتذكّرني في الرسالة، معبّرة عن أسفها لكل هذه الأموال التي تهدر لأجلي من دون فائدة، «هذه الأموال التي في استطاعتها أن تنشل أولاداً أصحّاء من البؤس، وتمد لهم السبب للتفوّق على ظلم الحياة واكتشاف ما لديهم من مواهب بنّاءة».

الرسالة الناضحة بالمرارة والحقد، كان لها مفاعيلها القارصة على نفس فارس رستم. السنديانة التي كان يستظل تحت أغصانها في عمر التساؤلات المبهمة، عادت تستقبله، لا مظلوماً قسا عليه القدر، بل ظالماً في عيني ابنته. كتم رسالتها الموجعة في ضلوعه، كما كتم في ذلك اليوم دموعه، ونعش ثريا الأبيض محمولاً على الأكفِ، ماضٍ بها إلى مثواها الأخير. ليته بكى وحرّر هذا الينبوع الهادر في داخله ولم يلجمه إلى أن تكلّست مشاعره وما عاد يسمع من بين شقوقها نبضاً. أفتكون سلمى هي التي علّمته أن الرجال لا يبكون؟ كان طريَّ العود، سخيَّ الدمعة، إلى أن صقلت مدرسة الرهبان الداخلة عموده الفقري ودرّبته على ما هو أقوى من لجم الدموع: السير

بين الأشواك على شعار المسيح، احمل صليبك واتبعني، كأن ثوب الإنسانية مفصّل من نسيج القهر والألم، لا بحرير الفرح والسعادة.

بيت العقد هو الرجوع إلى الأصل. هو المحطة بين الولادة والموت. سلمى الجدّة التي اندعكت بأحداثه الأليمة ولم تنكسر، كانت واقفة بين القناطر تنتظر العائد من جحيم الحرب. ولم تخرق عالمه السرّي، ولم تكسر الصمت المتدثّر به كجندي متقاعد عن مهماته النضالية، حين رأته ينزل من السيارة وحيداً، سوى من كتبه رفاق وحدته. لم تسأل عن سناء، الابنة التي لم يهفّ قلبها إلى جدّتها يوماً، ولم تشتاق إلى بيت القناطر الذي انطلقت منه رشا إلى الطبيعة تحرّر فيها طبيعتها من قيد علّتها. تركته يتنفس رائحة التربة إلى أن عادت، وعلى الصينية كوب من شراب الورد وصحن من الكعك المعطّر باليانسون. جلست قربه تنتظر من هذا البركان المنطفئ أن يشتعل، من دون محاولة منها لسبر حممه الجوفية. هكذا عرفته، وحدانياً، هائماً في الحقول، يطارد بنقافته الزواحف، ويُنزل أعشاش العصافير عن أغصانها.

«لن تأتي سناء يا جدّتي. لقد أعلنت نهائياً الحرب عليّ، وعلى الوطن. ففي مخيّم اللاجئين الفلسطينيين عثرت على ضالتها مع عائلة رفيقتها هلا بوري. عن الفقر والبؤس والأنتظار المستحيل للعودة إلى الديار، كان موضوع أطروحتها التي نالت عليها تقدير اللجنة الفاحصة ولقب دكتور في العلوم الإنسانية. هذه الشهادة قوّت عزيمتها لتشن على عائلتها وعلى الوطن حربَها الشرسة».

سألته سلمى:

«ألا تعتقد أن سناء كانت في هذا المخيّم تبحث عن نموذج للأم الصامدة التي أنجبت أولادها في أقسى الظروف وظلّت متكمّشة بأمومتها، الركن الوحيد لحراستهم من الموت والضلال؟».

انتفض فارس لسماعه تحليل جدّته الخبيث. فلعلّها تعمّدته للمقارنة بين الأم الفلسطينية الواقفة أمام أعاصير القدر لا تقهر، وبين الامرأتين اللتين في لحظة من الاستسلام تخلّتا عن أمومتيهما، من هدى الهاربة إلى المجهول وثريا إلى الموت، تاركتين وراءهما أوراماً دهريّة من الحقد والتمرّد والصمت، الأقوى مفعولاً في الحياة العائلية من الصراخ.

لم يدعها تستفيض في افتراضات، اشتمّ فيها نكزات مؤلمة في نفسه المضطربة. قام ودخل القبو، يستعيد محطات من شخصيّة سناء العاصية، التي كانت منذ الصغر تنذر ببذور ثورة، مارستها في البيت عليه وعلى توأمها رشا، إلى أن وجدت لطبيعتها الإعصارية متنفّساً بانضمامها إلى صفوف المجنّدات في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فور اندلاع شرارات الحرب، تغذي بها الثورة المعشّشة في كيانها، ضد وطنها الذي استباح قتله وتدميره من لجأوا إليه العام ١٩٤٨ هرباً من المجازر الشنعاء التي ارتكبها المخطّط الصهيوني ضد القرى والمدن الفلسطينية، بهدف تهجير شعب فلسطين ورميه في العراء.

هذا الزمن يتذكّره جيداً ابن الثامنة عشرة. عنوان كبير تصدّر الصفحة الأولى من الجرائد اللبنانية، «الفلسطينيون لاجئون في لبنان». تأسّف على وطنه الذي كُتب له ألاّ يهنأ باستقلاله الفتيّ.

على مساحته الصغيرة، خصّ لبنان اللاجئين بأراضٍ، أقاموا عليها مخيّمات موقّتة، إلى أن يحين رجوعهم إلى الوطن. مضى على حلم العودة أكثر من ربع قرن و فيروز تُحيي آمالهم بأغنيتها «سنرجع يوما إلى حيّنا»، وتشدّ عزمهم بأوبريت «زهرة المدائن»، إلى أن بدأ السلاح الثقيل يتدفّق على المخيّمات، واللبنانيون السذّج مقتنعون بأن ساعة الانتفاضة دقت، تبشر بالعودة إلى الديار، لا على نغم صوت فيروزي، إنما على صوت البنادق.

١٣ نيسان من العام ١٩٧٥، يوم أسود، تلطّخ بعنوان مخطّط رهيب، «لبنان البديل عن فلسطين السليبة». الوطن الذي آواهم، اضطر أبناؤه إلى القتال بشراسة للدفاع عنه، والكل يسأل عن معنى هذه الحرب، كم من الوقت ستدوم؟ مَن الرابح فيها؟ سوى أن الجرح البليغ كان في خاصرة لبنان.

تذكر فارس ما قالته له سناء وهي تهم بمغادرة البيت: «ثورتي هي ضد مجتمع بورجوازي، أتخمه الترف، بينما الأطفال اللاجئون يعانون في المخيّمات الجوع والمرض».

لم يكن على قدر مناقشة صبية انجرفت بعاطفتها وحبها للفقراء، ولم يسمح لها عُمرها الرخص بأن تكون على بيّنة من الجذور التاريخية لهذه الحرب اللبنانية. لكنه أصرّ عليها أن تتذكّر ما سيقوله لها قبل أن ترمي نفسها في أتون الحرب:

«لك الحق في أن تعطفي على اللاجئين وأن تمدي لهم يد المساعدة. لكن

عليك، كلبنانية، ألا تنسي أن لبنان على مساحته الصغيرة قدّم إليهم المأوى على هذه الأرض التي حوّلوها اليوم إلى ساحة قتال شرس، لا ندري كيف ستنتهي عواقبه الوخيمة».

كأنه لم يقل شيئاً. كانت تعلم بأن لبنان انقسم على حاله في هذه الحرب المدبَّرة. قسم للدفاع عن الأرض وحمايتها، وآخر مشى في مخطط استئصال بعض جغرافية هذا الوطن الصغير، وطناً بديلاً عن فلسطين.

الدفتر الذي كان رفيقه في السجن، يبدد عليه سأم الساعات، وصار كتاباً، عاد ووجده بين أوراقه وكتبه. أمور كثيرة حدثت بعد تبرئته وخروجه إلى الحريّة. راح يقلّبه، صفحة تلو أخرى، و القصّة ماضية في الزمن، إلى أن شعر بقوّة تحثّه على الاستفادة من الإجازة الإجبارية التي فرضتها الأحداث، والعودة إلى الدفتر الذي رمى عليه أكثر من ذكريات، سيرة كاملة، كانت كلما سعى إلى محوها، تزداد اكفهراراً وتشاؤماً في نفسه.

«شمس الصباح الباكر كانت في انتظاري كفعل إنصاف لبراءتي. ظلمة السجن واتهامي الباطل بمقتل معلّمي وصديقي ماجد مزرعاني، تبددا على هذا الفاصل الإسمنتي بين الحبس والحرية، بين ظل وضوء. فركت عيني لأتمتع، بوضوح، بتلك القادمة إليّ كشعاع عابر، وبين يديها باقة من الورد الأحمر. ثريا التي استولت على قلبي بصوتها الشجيّ وليّنت خشبه اليابس. كنت كلّما سعيت لأبادلها الفرح الدائم المسكون فيها كحديقة لا تعرف الذبول، كان ما يشبه الوجع الأليف ينزّ من جرح خفيّ، أعزوه إلى بحثي المطلق عن السعادة.

«خلال نزهاتي الحميمة مع ثريا، حيث لا رقيب يقف حاجزاً بيننا، أشعر برغبة قويّة تشدّني إليها ولا أتجاسر. شيء ما في داخلي يردعني عن الاستسلام لرغباتي المشتعلة واقتراف هذا الشعور المحرّم قبل الزواج. ثريا، بالرغم من مظهرها الموحي بالشفافية والرقّة، لم تُربَّ على العظات الأخلاقيّة الصارمة التي تربّيت عليها، ولم تبرمج معايير أحاسيسها حيالي حين دخلت حياتها. كنا مكتوبين، أحدنا للآخر. في بريق عينيها، حين عانقتها في أول لقاء حميم بيننا وقبّلت شفتيها، قرأتُ بوح حب صامت، أسعد قلبي. صرنا لا نفترق. نجول معاً في المدينة حيث قرّرنا السكن، نبحث عن بيت المستقبل، والأثاث الملائم لذوقينا. هذه الساعات المسروقة بعيداً عن أعين الأهل، كانت فسحة حرّية لعاشقين لم يعد يرويهما العناق والقبلات. ثريا البريئة، الطاهرة، تحوّلت بين ذراعيّ، إلى أنثى معتّقة كالخمر اللذيذ في سكرة الحب، تهبني كل نوطة من جسدها كما حين أسمعها تعزف من كل أحاسيسها نوكتورنة لشوبان، ثم تهبّ من سكرتها مذعورة، تحذّرني من اقتراف فعلٍ طائش. الروح والجسد ملتئمان لديها بتناغم وانسجام، ترتّل بصوتها الشجيّ لمريم البتول، وفي خلوتي معها تدعوني لأتحسّس بأصابعي أماكن اللذة في جسدها العاري، المنحوت بيد فنان عاشق، لكن للمتعة خيطاً لا نتجاوزه. «لا»، الصرخة التي تفاجئني بها، كانت تقطع الخيط الغامض، العجيب، الذي به نصبو للاكتمال، أحدنا بالآخر.

هذه الثنائية العجيبة لدى ثريا، أربكت أحاسيسي المتعطّشة للأرتواء بها. الكبت الجنسي الذي تربّيت عليه في مدرسة الداخلة، حسبت ثريا أتت إلي لتنشلني منه، تذكّرت معلّمي يوم فتح لي قبراً تعفّن فيه جسده بالقرب من جسد حبيبته نسرين:

«نسرين، يا فارس، هي التي نادتني إليها وحلّت عُقدي العاطفية وأيقظتها من كبوتها. من جسدها المبلّل بجسدي سمعت شهقة اللذة، حرّاً من أيّ ممنوعات، كنت ما زلت حتى هذا العمر مشرّباً بتربية معقّدة، غرزت في أفكارنا خطيئة الحب قبل الزواج.

«نسرين رفيقتي في الجامعة، كانت تخلع النقاب حالما تدخل حرم الجامعة، فتنسدل على كتفيها سنابل ذهبية تكشف عما تفرض التقاليد الدينية إخفاءه. لكل امرأة لغة. هذا ما تعلّمته من اختلاطي بالجنس الآخر الذي لم أكن حتى العشرين من عمري على معرفة به. صرت ألمحها تبحث عني في الأستراحات القصيرة، وتجلس بالقرب مني، فأستلذّ برفقتها. كانت نسرين حبكة مدهشة من جمال وذكاء. تصل إلى الجامعة برفقة نسيبها إحسان، ثم تهمله، موزّعةً اهتماماتها على الرفاق، غير مبالية بنظراته المطاردة خطواتها. حين أَنِستْ لرفقتي وشعرت بإخلاصي لها، صارت تشكو إليّ أموراً متعلّقة بحياتها العائلية. فوالدها لم يستسلم لمشيئتها في تكملة علمها الجامعي، إلاّ بتنصيب نسيبها إحسان، المخطوبة إليه منذ صغرها، رقيباً ملازماً لها. هذه الجلسات الحميمة على مقعد حجري في فناء الجامعة، تطوّرت إلى مواعيد خارجها، بدأت بالعناق وانتهت بتراجيديا الموت. فما اقترفناه من متعة في لحظات من الطيش الأعمى، هو في مفهوم الخطيّئة، زنى، فيما كنّا في هذه اللحظات المسروقة، نكتشف أروع عطايا الله، الحب. إمض يا فارس إلى حبيبتك دون ورع وتردد، فآدم آثر أن يطرد من الجنّة لأجل عيني حوّاء. لكن إيّاك أن تنسى أن في اتحاد جسدين عاشقين، يغدو اللاوعي سيّداً، يرتقي بالمتعة إلى حيث لا حسابات ولا تريّث. هذا ما حصل. راحت نسرين تلملم ثيابها الموزّعة على أرض الغرفة و تحتشم

بها بعيداً عن ناظريَّ، كأني بلمحة تحوّلت إلى مذنب، مصيرها البائس أنا سببه. كن يا فارس متيقّظا في جسد متيقّظ حتى لا تصاب بالندم».

لم أكن خبيراً بثقافة الجنس وفتوحاته. الطبيعة كانت تلقائياً تتكفّل بخلق المغناطيس السحري بين ثريا وبيني. لهفتها إليّ، كلما جمعتنا الشقة التي كنا في صدد هندستها الداخلية، لم تعد تقلقني بعدما تلقّيت من معلّمي دروساً تجرّب فيها حتى الندم، فحذّرني من مغبّة الوقوع في ممنوعات قد تلطّخ العلاقة النقيّة بيننا.

«لكننا مخطوبان، قلت لماجد، نتحضّر للزواج، ولا يوجد عائق ديني يفصل بيننا مثلما كان الوضع بينك وبين نسرين. في أي حال، سأكون متيقّظاً في جسد متيقّظ، كما قلت».

«إلى اللقاء» قال ماجد، يودّعني على عتبة البيت، من دون أن يتوقّع أيّ منّا أنه الوداع الأخير بيننا. بعد أيام، وجدته مقتولاً على كرسيه الهزّاز، وعلى ركبتيه «الكوميديا الإلهية» محنّاة بدمه.

ألقى فارس نظرة خاطفة على الصفحات التي كان يملأها في زنزانته، يستضيء بها حتى لا يشط عن المسار المكتوب له من القدر. عَبرَ ظلٌّ وجيهة البصّارة على السطور المفلوحة بقلم أصبح كالمنكاش لفرط ما قسا على رصاصه ليكتب. كنت ولداً، قال في سرّه، لا أفقه من الدنيا سوى حاضرها. حكايتي قرأتها البدوية على جبيني ولم تخطئ. فيا ليت باستطاعة الإنسان أن يسمع صوت قَدَره، فيكون هو قارئ غيبه، يصحّح الويلات المتراكمة في دربه.

«في ذلك اليوم الربيعي الضاحك، اكتست الكنيسة بالورود البيض احتفالا بزواج فارس رستم من ثريا معتوق. وقف المدعوون على نغم «نشيد الفرح» والأنظار مصوّبة إلى ثريا بثوبها الناصع، وإكليل زهر الليمون معقود في أعلى هامتها حول باقة شعرها الأشقر. بانت على مسافة صغيرة مني كالرؤيا، تتقدّم من المذبح، مجلّلة بنشيد بيتهوفن. ابتسامتها المشعّة بالفرح، حين انتقلت من والدها إليّ، قرأت فيها وعداً، أعاد إليّ طمأنينتي. فلكم انتظرت هذه اللحظة لأبدأ حياة جديدة معها، تمحو ما مضى. خفق قلبي امتناناً وعرفاناً لهذه النعمة التي زادتني التزاماً حين همس والدها في أذني:

«هذه اللؤلؤة أصيلة، اعتنِ بها».

ألبوم الصور يعزّم الموت. هذا ما بقي لي بعد الوعد الكاذب بأننا معاً إلى الأبد. مع وهج الصباح خرجت ثريا من شرنقتها فراشةً منذورة لحلاوة الحياة وهنائها. البندقية كانت حلمنا لأيام عسل في هذه المدينة الخيالية، المرصودة منذ ولادتها من الماء، وحياً للشعراء ومقصداً للعشاق.

الصورة الأولى التي التقطتها لها ونحن في الغندول، العابر بنا تحت الجسور الثلاثة، الرابطة بينها أجمل مواقع «فينيز»، صرت أتمعنّ فيها جيداً الآن. كان الموج يهدهدنا بلطف، وأنا منشغل بضبط الكاميرا ومنعها من الأهتزاز للفوز بصورة نقية تبدو فيها ثريا كالرؤية، يحوط بجمالها جمال المدينة. في نظراتها الشاردة، ابتسامة خفيّة، قرأتها ظلالاً من أسرار امرأة.

ليتها تتكلّم! قلت في سرّي، لعلّي أستنبط مغزى هذا الشرود. في تلك

اللحظة وأنا أجهّز العدسة لأضم حولها البندقية كلّها، لم أنتبه لشرودها، لم أفقه ما في نفس هذه المعشوقة التي كنت في ليل عرسنا الطويل، أعبر معها إلى مرفأ الأمان، وكلّها عذوبة وشوق إلى عناقي. لم أنس وصيّة والدها لي وهو يسلّمني الأمانة أمام المذبح:

«ثريا لؤلؤة ثمينة، اعتنِ بها».

بعد ليلة، قمرها بدر ونجومها نيازك، وُلدت بين ذراعيَّ، امرأةً لحياة جديدة. لعلّ الفراشة شعرت عند اليقظة بجناحيها مقيّدين في شباك الحب الأناني. «أنتِ لي»، قلت همساً وفي نفسي أني امتلكت الدنيا.

ونحن في الطائرة إلى روما، لمحت في صمتها شحوباً شبيهاً بسحنة وجهها. كان في يد كل منا ما يقرأه في الساعات الفاصلة إيّانا عن العاصمة الإيطالية. فجأة، كسرت الغربة التي جلست بيننا، لتقرأ لي فقرة من قصيدة للشاعر لورد بايرون، يرثي فيها البندقية. هذا الديوان، قصدتْ ثريا شراءه، كدليل يرافق كل زائر يطأ أرضها.

أقفلتُ ما كنت في صدد مطالعته ورحت أستمع إليها. الصوت الشجي حين تغني فتسلب قلبي معها، كان ذاته في الإلقاء، شفّافاً كزفير في القصب:

«فنيز! أيتها المدينة الساحرة / ربّان الغندول يجدّف بصمت / قصورك تهدَّد بالانهيار/ والموسيقى لم تعد تتلاطم مع الأمواج / زمن أمجادك ولّى/ لكن أياً بندقيتي سوف تظلّين بهيّة.../

قبّلت يدها وشكرتها على هذه اللحظة الأنيسة التي كسرتْ بها غربة السفر. أعادت إلي القبلة على وجنتي وهي تقول لي:

«فارس، أحبّك. أجل أحبّك. فلنجعل هذه الرحلة استراحة، نرمم فيها ذكرى ليلة عرسنا. استمهلني بعض الوقت لأعود عطشى إلى عناقك، كما قبل زواجنا، حين كنا نسرق الحب الممنوع كلما اختلينا معاً؟»

قلت وكلامها الجارح ينهش قلبي:

«أي دمار اقترفته في هذه الليلة المباركة، وكنا معاً نمجّ سكرة حبنا ولا نرتوي؟ أيّ دمار كي أعيد ترميمه؟ وقفت على بابك، أنتظر إشارة منك لأدخل، شعرت بفوران جسدك ترحيباً بهذا الغريب التائق إلى عمق أسرارك. في ليلة عرسنا يا ثريا تلقّيت في دفئك معموديّتي الحقيقية».

عن أي دفء رحت أذكرّها، ورياح القطب الشمالي تعصف بيّ؟ وإلى أي بندقية نحن ذاهبان؟ ألى المدينة الملهمة التي حضنت حب جورج صاند وألفريد دي موسّيه؟ إلى كرنافالها الذي يتخفى فيه الناس خلف الأقنعة ليعيشوا على لياليها المقمرة شبق الغرام ومحرّماته؟ أم كنائسها ومتاحفها وقصورها؟ ولاسيما القصر الذي مات فيه ريشارد فاغنر؟ منح الصمت البارد بيننا خيالي فرصة التجوّل في خارطة البندقية المصوّرة، وقد قمت مع ثريا بتنقيب كل زاوية وموقع منها قبل أن نختارها بداية لحياتنا السعيدة. فجأة خلتني في عالم آخر، متجمّداً أمام مقبرة كنيسة سانتا ماريا غليوريوزا، حيث أضرحة مشاهير التاريخ. كشحت الصورة السوداء من ذاكرتي على

الرغم من تعظيم الموت في أنصاب هندسية بديعة. عدت إلى وعيي وإلى ما كان في بالي من عزم بأن نكون في «فنيز» على مثال عشّاقها الذين نقشوا أسماءهم في تاريخها.

أظهرتُ لها فوراً حسن نيّتي بأن تكون هذه الرحلة إستجمامية، نكتشف معالمها وسر الوحي الذي بثّته هذه الفاتنة في خيال الشعراء وريشة الرسّامين وأزاميل النحّاتين وإلهام الموسيقيين. وظلّ سؤال عالق في حنجرتي كانت هي برهافتها تنتظر مني البوح به:

«أفهم من قولك يا حبيبتي، أن الحب الممنوع الذي كنا نحتال به على الحياة ليجمع بيننا، كان مقدّساً لديك. أحببتُ فيك تحرّرك من القيود التي تقمع أحلام الفتيات وأحاسيسهن. وأقف الآن محتاراً، لا أدري معنى هذا الانقلاب المفاجئ عليّ وعلى الزواج.

كأنها تسعى إلى تبرير ما أحببته فيها، قالت:

«فردوسنا كانت له حدود يقف عليها ملاكنا الحارس حتى لا نتجاوزها. فأنت من أفهمني أن ليلة الزفاف هي الركيزة التي تبنى عليها سعادة زوجين. مفهومٌ لا بد من أنك تعلّمته من جدّتك سلمى».

أعادت حمرة خجولة إلى وجنتيها لونهما:

«لك حبيبتان، تغار الواحدة من الأخرى، أنا والأرض. سها عن بالي أن أسألك إذا كنا أنا وإياها نمنحك الفرح ذاته. فلكم شاهدتك تعبث

بعمق التربة كمن يبحث عن كنز مطمور فيها. هكذا كنتَ ليلة عرسنا وأنا مستسلمة لفاتح يغزو أرضاً إلى حين تصبح ملكه. ليس في ما أقوله عتاب ولوم. هذا واجب كان لا بد منه لنصبح زوجين، فعلى المرأة أن تسدّد بشجاعة العقاب الذي بليت به وسربل حياتها».

الأنوثة المشعّة منها عادة، بدت كقنديل شحيح من الصعب القراءة على ضوئه. لُذت إلى الصمت أردّد في سرّي ما تعلّمته في كتب الأدب، «الإصرار على المعرفة يخلق الشك».

عادت إلى لورد بايرون تستمتع بقصيدته، بينما أقفلت الصفحة التي كنت أقرأها لأسترجع ليلة عرسنا بحذافيرها، لعلّي أستيقظ من سكرتي وأتعرّف إلى هذا الفاتح المغوار الذي اقتحم أسوار المدينة ليغزو أرضها. صار المشهد يرتسم في خيالي. هل كنت حقيقة في هذا الفيلم الخرافي، بطلاً؟ وهل انتصر البطل، كما فعل روميو الشكسبيري الذي قفز فوق الأسوار الممنوعة لقبلة من فم جولييت؟ تملّكني الضحك، فالبطولات ليست من شيمي، والغزو للبرابرة، و لست منهم. فلو سألت ثريا جدّتي سلمى عني، لروت لها قصّة النقّافة؛ سلاحي البطولي الوحيد في مطاردة الحشرات.

«دعني يا زوجي العزيز أضحك معك» قالتها، لا بصوتها الغرّيد، بل تلقّيته كسرات حادة من حنجرة مجروحة».

«فكرت في الملاك الحارس الذي كان حاضراً دوماً في وقت الحشرة، يقطع

حبل رحلتنا الى الممنوع. فنستفيق من هذه الغيبوبة الخيالية وشيء بيننا لم يكتمل، كبخيل يدخر قرشه الأسود، يجوع ويعطش، تحصّناً لليوم الأبيض. وهل ألذّ من هذه المغامرة المحرّمة قبل الزواج، شرط ألاّ تكون نهايتها أليمة كما حدث لماجد ونسرين؟».

«ومَن كان ليؤكّد لي أني سوف لن أكون نسرين أخرى، ضحيّة جنوحك في محظورات لا ينفع بعدها الندم».

خلتها تؤدي دوراً، الشخصية هي نسرين المسكينة. فهواجسها كانت من نسج خيال لا يمت إلى علاقتنا بصلة. صارت الأفكار السوداء تؤرجحني. السعادة كالهواء العابر، ما إن يلفحنا ويطرّي أنفاسنا حتى يمضي تاركاً وراءه جفافاً كالأرض التي لم يروها المطر. هكذا تراءت لي حياتي المقبلة مع ثريا، من شمس ضاحكة تحلّي الحياة، إلى ليل كثيف من الصعب اختراقه. تمنّيت لو تنسى هلوساتها وتستمع إلي:

«ثريا حبيبتي، أنا لست ماجد وأنت لست نسرين. عالمنا مختلف عن عالمهما. كنا نعدّ العدة لزفافنا بمباركة أهلك وجدّتي. حبنا لم يكن سرّاً، جاهرنا به أمام الجميع، حتى إذا اختلينا ببعضنا كنا نريد أكثر، فالعطش لا يقاوم. أنت وأنا نشرب من هذا النبع ولا نرتوي، فمثلما كنّا نستمتع بالأشياء التي نختارها معاً لتأثيث البيت الذي سيؤوي حياتنا معاً، كنا في لقاءاتنا بعيداً عن أعين الفضول، نشيّد من جسدينا مدماكاً متيناً لحبّنا. السر في السعادة الزوجية، في أن نُقبل عليها بشهادة عالية من التوافق والتآلف. فللجسد حواره، كما للروح والعقل.

سألتِني منذ هنيهة: «لك حبيبتان أنا والأرض، أيّ منهما تمنحك اللذة أكثر»، وها أنا أجيب عن هذه المقارنة الحسّوية، بتجرّد وصدق. لقد تخصّصت بالهندسية الزراعية كي لا أتعامل مع الأرض بالفطرة، بل كي أشبع غرائزها بما تحتاج إليه لتدرّ علينا من خيراتها محاصيل سعيدة. أجل، أحبّها لعرفانها لي. أحبّها للفرح الذي تبادلني إياه في مواسم القطاف، في كل حبّة عنب قطرة من سكرة الآلهة، في كل قطرة زيت شفاء من مآسي الدنيا. أرضي، يا ثريا، ورثتها واختبرتها بالعلم، حتى أبقى وفيّاً لوصيّة جدّي يونس والعسكر التركي يقتاده إلى المنفى «الأرض، يا سلمى، إن أهملتها تصبح كفناً للذاكرة». هذه هي حكايتي مع الحبيبة الأرض».

«وأنا؟»

«أنتِ هي».

قلمي المسنون على الورقة سألني:

«قلْ لي: ماذا رأيت في البندقية».

الصور المفروشة أمامي تخبر عنّا. جنّية البندقية تصطاد الآتين إليها في شباكها، فيتيهون في أسطورتها ويلهون عن واقعهم. عند المغيب، حين تتمرّى شمس آخر النهار في بحرها البنفسجي، كنت أشعر بغصّة في نفسي تُمْحي بسوادها الدهشة التي تلتقطها عدستي حين تعبر ثريا الملتفّة بحسنها الغامض أمام آيات محرّمة بيد الإنسان. أتمعّن في الصورة المفضّلة لدي، للّغز الكامن فيها، ثريا تتأمّل لوحة «فنيز ملكة البحار»، فأتذكّر ما قالته، كأن امرأة خيالية حلّت مكانها:

«ذنوب المرأة تُمحَى حين تتجلّى في روح المدينة، فتصبح المدينة امرأة، موشّاة بهالة ذهبيّة من السحر والأسرار».

كيف كان لي أن أقارنها بالأرض وهي من عالم غير عالمي. الأرض، أسمع نبضات قلبها تحاكيني، ألمس في كل عرق أخضر جديد، إرادة الأستمرار، بينما تعلّمت، خلال حياتي القصيرة مع ثريا، التنقّل بين قطبين، جليديّ وحار، وأنا ممسك بشعار جدّتي الأبله «الصبر مفتاح الفرج»، الذي شدّ همتها على الصمود ولم تكفر.

كنت أخطف اللحظة تلو الأخرى بعدستي، للهروب من واقعنا العبثيّ والانتشاء بحلم كاذب، أخشى أن أستفيق منه، فأقرّ بتنبؤات وجيهة البصّارة. تمسّكت بالكلمة التي قلناها في الكنيسة يوم زفافنا «معاً إلى الأبد»، حصناً لمخاوفي.

عند الصباح الباكر، تستيقظ البندقية على أغاني البحّارة، يزفّون وصول عشّاق متيّمين بهذه العشيقة، يعودون إليها تجديداً للسحر الذي يربطهم بها؛ عشّاق كُتب لهم من حيث لا يدرون، الوقوع في مخالبها القرمزية. معها استيقظت على أغنية «أو سولي ميو» تحيّي الشمس في إطلالتها الفتيّة.

تركتُ ثريا تحلم بملكة البحار، ومضيت عريساً بلا عروس، أتفرّج على الزوارق الملوّنة، وأرحّب، في سرّي، بهذا الدفق من الحجّاج إلى معبد الحب. تلقيت سعادتهم الصاخبة، وقهقهاتهم السيّالة، حروفاً موجعة في

قلبي. إبتعدت عن هذه الصورة الملوّنة بفرح الحياة وقمت بجولة وحدانية في ساحة سان- مارك، حرّا من آلة التصوير، الوسيط بيننا، فيما كنت بلا وعيٍ ألاحق وهماً، لن يترك في الفلم حين تظهيره سوى الفراغ.

جلست في مقهى فلوريان؛ ملتقى الفنانين وأهل الأدب. طلبت من النادل فنجان كابوتشينو واستسلمت للفسحة الهنيئة التي سرقتُها من واقعي، تهدهدني، كما المياه تهدهد الغندول في عبوره تحت الجسور، ولم أحظ بالسكينة التي رجوتها. طلبت من النادل كأس كونياك لعلّي أستنطق بمفعوله الحزن المهدد أعمدة بيتي الجوّاني. صارت الكأس تجرّ الكأس ونشوة سوداء تغمرني كالتي يدمن عليها السكّير. قمت بعناء إلى حيث الزوارق تنقل ركّاباً برحلات سياحية في الجزر. قلت للربّان:

«امضِ بي إلى حيث تشاء، فأنا أتوق إلى رحلة وحدانية مهما بلغت تكاليفها».

لم يُبدِ تعجّباً، فالناس أشكال وألوان. استلقيت على مقعد وثير أتحسّس المركب يتدلّل بهناء على الموج، أتحسّس جسدي كورقة في الهواء، فحملي خف ثقله. أغمضت عيني لأستلذّ بأصابع الشمس تداعبني. الزوارق من حولي في عيد، وأعلام البندقية ترفرف كتأشيرة عبور إلى جزر أخرى. رفعت عالياً علمي الأسود لمصادرته حقي في الرجاء. كنت في حداد على حلم قضى. النزهة كانت مؤاتية لرجل وحداني كطيور الليل، يخبئ كآبته تحت جناحه. جمعت في قعر كفّي رماد حلم، وانتظرت ارتفاع الموج لألقّمه إيّاه زاداً للنسيان.

عند المغيب، والأساطير تستفيق في البندقية لتجني من الليل أسرارها،

أودعني الربّان على الشاطئ متمنّياً لي ليلةً سعيدة. رأيت ثريا آتية في اتجاهي، قلقة، مضطربة، كمن أضاع شيئاً فوجده. شمس الغسق اختارتها من بين الناس لتغمرها بشالها الأرجواني. لهف قلبي إلى هذه الرؤية، كأني أسمعها من قعر حزني، تقول:

«الشمس لن تغيب هذا المساء»

هي ذاتها. كيف عساي أنسى ذلك اليوم؟ كنت في انتظارها على بوّابة السجن حاملاً دفتري وبراءتي من دم معلّمي، متعثّراً بضوء الحرية حين رأيتها آتية إليّ، شفّافةً كالخيال وبين ذراعيها باقة ورد أحمر. بانت لي، كما في حكايات الصغار، جنيّة تبدّد الشر بعصاها السحرية ثم تتوارى.

وقفت تنتظر خطوة منّي إليها وأنا صامت لا أبدي حركة، خوفاً على العصفور أن يجفل مني ويطير.

«أفكار سودٌ ساورتني وأنا أبحث عنك. خلتك تركتني».

«وهل من داع يبرّر هذا القلق كله؟»

تمنّيتُ في سرّي لو أنها تتّخذ بتلقائيتها مبادرة جريئة فتكسر الغربة التي جعلتها بيننا. تخيّلت ساحة سان - مارك، والأسدين الرخاميين الحارسين تاريخها، إطاراً لمسرحية عبثيّة سنّها القدر لامرأة ورجل، لم تستطع مدينة الحب، بمجيئهما إليها، أن تداوي في كلّ منهما عزلته، وتحرّره من هواجسه. كنا ممثلين بارعين نبتكر الصمت حواراً بيننا. خشيت أن تصحّ تنبؤات

وجيهة البصارة. فالطفل لا ينسى. ارتعش بردٌ في مفاصلي وكلمات المرأة المدقوقة بالوشم الأزرق، تقرع في نخاعي:

«ستبحث عن الأم ولن تجدها. زواج حب يتعثّر بعراقيل كثيرة لا يحلّها سوى الموت».

عدت بذاكرتي إلى يوم زفافنا. الصبيّة التي كانت في أثناء خطوبتنا متوازية بحبها لي وعقلها المخطّط لبيت يرفل بالسعادة، تراءت لي في دخولها الكنيسة، شفّافةً كالحلم العابر، لا يبقى منه عند اليقظة سوى استحالة التقاط ذرّة منه. أعترف بأني كنت مبهوراً بهذه الرؤية. لم يخالجني حذر بأن ثريا لم تكن معدّة لأن تكون امرأة، مقيّدة بسرّ الزواج. كانت ترفض أن يتساوي قدرها بقدر أمّها نهلا، القابعة برضى تحت رحمة زوج متسلّط، أو مصير أختها روزا التي اكتشفت، بعد ارتباطها بالرجل الذي أحبته، أنها ليست سوى غطاءٍ إجتماعيٍّ لشذوذه الجنسي. لم آخذ كلماتها على محمل الجد، ما دمنا واضحين في علاقتنا، وسعيدين في اختبار كلّ منا جسد الآخر ورغباته، متّفقين على تكريس الأختبار المقدّس، لليلة زفافنا.

كان ذلك منذ بضعة أيام، وقفنا بعدها على مفترق طرق، لا أدري في أي اتجاه أمضي. مئة سنة من العزلة تراكمت في حنايا رجل لم يبلغ الثلاثين من العمر بعد. كشحتُ السأم المستبد فيّ، وقرّرت أن تأتي المبادرة مني، كما جاءت على لسان الكاهن الذي زوّجنا:

«ثريا معتوق، أتريدين فارس رستم حبيباً لك؟»

كلمات عتيقة عتق الأزمنة رأيتها بين الجد والمزاح، تنتعش كزهرة الكرز وتلوّن أساريرها الشاحبة:

«فارس، أما زلت تحبني؟»

في ذلك الحين، كان ظني أن الحب قادرٌ على تحويل مسار القدر إلى حيث الشمس تبقى مشمسة. ظننته أيضاً كفيلاً بجعل مرّ الصبر أقلّ مرارة، كالترياق الشافي سم الحياة.

الذاكرة محبرة لا تجف. أغمس ريشتي في سائلها الأسود لأقتلع من القعر بوحَ عليلٍ غاص في وحول ماضيه لعلّ في الكتابة شفاءً. ثريا، في غفوة حبي لها، كانت تمرجحني بين جبال الشمال الجليدية وشمس الصحاري الحارقة. أدركت سلمى جدّتي بذكائها الثاقب، ما يجول في أعماقي من تمزّقات ملجومة. كنت أبتعد عنها كلّما سعت إليّ لتستوضح عما وراء هذا الغموض الذي نويتُ أن أتستّر في لجحه حتى لا ينكشف زواجي الفاشل وتلوكه الألسن.

كنت في عراك مع هذا الحب الطاغي على إدراكي، حين بدا لي سؤالها «فارس، أما زلت تحبني»، كشمس بعد كسوف. هرعت إلى السؤال بجواب قد يُرضي قلقي ويكذّب حدسي:

«وهل جئنا إلى البندقية لندفن حبّنا أم لنحيا به؟»

زنّرت خصرها الرقيق بذراعي وسرنا معاً، وهي شبه متكئة عليّ. جلسنا إلى طاولة منفردة في المقهى وطلبت من النادل كأسي نبيذ أبيض، في انتظار أن

نقرأ في لائحة الطعام ما يثير شهيّتنا. كانت عيني على الأصناف أتصفّحها، وما كنت في الحقيقة لأعي منها شيئاً، وبالعين الأخرى أخشى أن يعبر ظلّ في عينيها يحجبها عنّي.

في تلك الليلة، كان وجه ثريا متوهّجاً كقمر أرجوانيّ، يدلّ العاشق الضائع على حبيبته. ما إن رفعت كأسي حتى بادرتني وهي تمج من كأسها جرعة، قائلة:

«شكراً للحياة».

قمت، كسكران تعتعه السكر قبل أن يمج من كأسه جرعة، ورشفت قطرة النبيذ العالقة على شفتيها. كانت هي عطشي وجوعي.

بعودة النادل إلينا، تذكّرنا وليمة الأرض. وبينما نحن في انتظار الأصناف التي اخترناها، اقترحت عليّ ثريا حفلة أوبرا في مسرح «الفينيتشي». وقبل أن أعترف لها بأني لست من هواة الأوبرا، تمنّت عليّ ألاّ نفوّت هذه الفرصة النادرة «فتكون بين أجمل ذكرياتنا في البندقية. «هذا بالحرف الواحد ما قالته، كأنها لا تعي ما تقول. واستسلاماً لمزاجها المتقلّب، أبديت لها رغبة كاذبة، فأضيف إلى معلوماتي الشحيحة بالغناء الأيطالي، فنّاً رفيعاً، الأوبرا.

رحت أتلذّذ بطبق السلمون المرهّف بتتبيلته الغريبة ومذاقها السلس، البعيد عن فتّوش ضيعتنا، بينما تركت لثريا تلذّذاً آخر، إذ مضت و السلمون يبرد في صحنها تروي لي قصة «غادة الكاميليا» لكاتبها ألكسندر دوما، وتتذكّر بالتفاصيل أحداثها:

«تفاجأتُ بالملصقة على واجهة المسرح، تعلن عن أوبرا «لا ترفياتا» لفيردي اقتبسها، عن «غادة الكاميليا» الخالدة، وجعلها تحفة أوبرالية لمسرح غنائي عالمي».

شردت من غير وعيي، عن لقمتي المغمسة في صلصة السلمون، وأبحرت، على ماء صوتها، اصغي إليها تحكي بشغف قصّة امرأة أحبّت حتى الموت:

«الموت كان أقوى من الحب». شعرت بسكين تطعن قلبي، ولم أفهم. رحت بخيالي أتشخّص حياة أرمان دوفال بعد موت مارغريت غوتييه، وأتساءل عما تكون حياته بعدها. انتبهت ثريا لشرودي وأنا أمطتي مأساةً ليس لي فيها صهوة ولا عنان. أخذتُ الجرعة الأخيرة من كأس النبيذ أطفئ بها توتّراً وددته عابراً.

مدّت يديها تبحث عن يديّ لعلّنا نبعد عنّا هاجس الموت، إلى أن قالت:

«موسيقى فيردي هي التي رفعت قصة «غادة الكاميليا» إلى مصاف المسرح الغنائي العالمي. ما لفت انتباهي، وأنا أقرأ ما ورد في الملصقة، أن اللباس رسمي».

البدلة الوحيدة التي وضعتها في الحقيبة تحسّباً لمناسبة رسميّة ما، كانت بلونها القاتم ملائمة لسهرة الأوبرا. كنت جاهزاً ببضع دقائق، أتمشى في الردهة الصغيرة المتاخمة لغرفة النوم في انتظار أن تنتهي ثريا من تنسيق هندامها. لطول الانتظار مفاجأته. أطلّت في فستان طويل من المخمل الأسود، تفوق بأنوثتها الموجعة، تلك المرأة التي كنّا ذاهبين إلى مسرح «فينيتشي» لنشهد

تراجيديا حبها وموتها. في هذه اللحظة التي وقفت فيها أمامي، تتملّق أحاسيسي، كنت ذلك الأرمان دوفال، عشيق مارغريت غوتييه. بين واقع وخيال، كنت أتقاسم معه الحب والموت.

الغناء باللغة الإيطالية لم يكن عائقاً لفهم قصة في تسلسل مجرياتها. الحب، الصداقة، الغيرة، التضحية، الموت، هي المقادير القوية التي عليها ارتفعت الدراما، بينما الأوركسترا تكتب الحروف الأولى لتراجيديا الحب والموت، والستارة تعلو شيئاً فشيئاً، إلى أن توضّح مشهد العيد في دار مارغريت غوتييه، المشع بزهو الأصحاب ونشوتهم تحت أضواء الثريات. سيدة الدار، في ثوبها الأحمر الناري، المكشوف على محاسنها، رفعت كأسها، معلنة حبها الدائم لأرمان دوفال.

صرت أنتظر الفاجعة من مشهد إلى آخر، لا كما كتبت بقلم ألكسندر دوما، بل عن طريق غناء ليريكي، متسامٍ، يعلو بالدراما إلى ذروة المشاعر الإنسانية. فبالغناء هتفت مارغريت وهي تحتضر بين ذراعي أرمان:

«آه، لسعادتي،ها أنا أعود إلى الحياة».

بين المسرح والحياة، خيط رفيع ينسج الحكاية على نول الخرافة والواقع. انسدلت الستارة على حياة مارغريت غوتييه وموتها، ووقفنا نصفّق لسحر المسرح الذي سوف يكذّب الموت بعد هنيهات، حين ستطلّ بطلة الحكاية وابتسامة مشرقة على ملامحها. عادت مرّتين تحيي الجمهور مع حبيبها والهتاف يعلو في فضاء المسرح تقديراً وإعجاباً بفنهما الرفيع، إلى أن عادت

للمرة الثالثة منفردة وباقة ورد أحمر قانٍ بين يديها، تعيدنا بمعناها إلى بدايات القصّة. اقتربت مني ثريا والدموع بركة حمراء في عينيها، وقالت:

«هذا الورد ينضح برائحة الموت».

عادت هذه الكلمات بعد طول الزمن، توسوس على ورقتي، فتقلش سماكة هشّة من نسيان كاذب، صارت شقوقه تنزّ أسئلة، ظلّت حتى النزف الأخير بلا جواب.

«في تلك الليلة التي لم أكن فيها على قدر سبر المياه العكرة القابعة في أعماق بئرِك، قلتُ لك ونحن في طريقنا إلى الفندق، ما ظننته إكسيراً لمشاعرك المتألّمة:

«لك يا ثريا سأزرع وردة عطرة تحمل اسمك ولا تذبل أبداً».

«كنت صادقاً في ما أقول، لا لأُطمئن المرأة التي زعزعت «لا ترافياتا»، أساساتها، بل لأطمئن القلق الذي راح ينهش قلبي. «هذا الورد ينضح برائحة الموت» قلتِ، فكيف عساي أنسى.

«كان الصمت رفيقنا ونحن سائران في ليل البندقية، سوى من تلاطم الموج على الرصيف. أمسكتُ يدك حتى لا تتعثري بفستانك الطويل وكعب حذائك العالي. لاحظت غياب محبس زواجنا من إصبعك. لم تجيبي عن سؤالي. أتاني صوتك الرخيم يستعيد لحن مارغريت، «آه لسعادتي، ها أنا أعود إلى الحياة». لم أكرّر سؤالي، حتى يبقى سحر هذه

الليلة فاعلاً فينا ونجوم البندقية ترعانا. وبقيتُ ممسكاً يدك حتى لا تهربي منّي، كما في كلّ مرّة تناديك الغربة إليها. ما أغباني يوم اعتقدت أن بمحبسٍ أربطك بي. فما زلت حتى الآن بعد عشرين عاماً على غيابك، أبحث عن سرّك، وفي آن، أخشى أن أنتزعك من عالمك الظليل، فأعرّضك لضوء شمس شاهدة على شرودك وشحوبك، بينما عدستي تحوم حولك لتخلّد البندقيّة بك.

«ناديتني، وصوتك، هذا الصوت الذي فتح سدود قلبي إلى الحب، وما زال في خيالي يطرب وحدتي، أسرع بي إليك. كنا في الغرفة نتهيّأ للنوم. طلبتِ مني أن أساعدَك على فك أزرار فستانك. هل كنتِ فعلاً في حاجة إلى مساعدة، أم هي نزوة من نزوات الغموض الذي بدأ يلفّك ويلفّني معك مذ وطأتُ أرضَك، سعيداً في اكتشافها، موعوداً بأن أكون حارثَها؟

«رحت أحرّر بلطف هذا المعبر الضيّق بين الكتفين، كل زرّ من عروته، فشعرت بمسامك ترتعش تحت أصابعي، إلى أن عال صبر الفستان الأسود الطويل وسقط كورقة عن غصنها على الأرض.

«قبل أن أعي أني في اليقظة، لمست جسدك ملتصقاً بي. كان الفجر بدأ يشقّ قميصه ويغمرنا بضوئه الشحيح. كنتِ طفلتي، متقوقعة بين ذراعيّ كجنين يخشى الخروج إلى العالم، وكنتُ متكمّشاً بك أخشى حركة منيّ تُبعدك عني. في هذه السَّكْرة أدركت لماذا ولدتُ. لأحبّك».

«لقد حان وقت الرحيل» قلتِ، وأنت تجمعين حاجاتك المبعثرة في الغرفة. طويتِ الفستان الأسود الطويل ثلاث طيّات ومددتِه برفق فوق محتويات حقيبتك. لمست الحزن يلفّ كل كلمة: الوقت، الرحيل.

«غمرتك بين ذراعيّ لعلّي أسكّن الغربة التي صادرتك فجأة وأنت تقفلين سحّاب حقيبتك. صارت الأفكار تتدافش في رأسي وأنا مصمّم بحدسي على ترتيبها حيث يجب أن تكون، من غير زلّة أقترفها. هذا الحدس الذي أضاء صفحات دفتري وأنا في عتمة السجن، عاد ليمسكني بيدي ويدلّني على السبيل الذي عليّ عبوره لأجعل ثريا تحفة حياتي، تحفة حقيقية، تنمو على أساسات متينة.

«هل هو هذا الصوت الذي سكنني يوم سمعتك تنشدين للملائكة والقديسين، حتى ظننت أني واحد منهم؟ هل هو هذا الضياء الذي بدا

لي هالة حولك وأنا في انتظارك على بوابة السجن، فعاد يخدع بصيرتي يوم كانت أجراس الفرح تقرع احتفالاً بزفافنا، وأنت تهتفين أمام الجميع «نعم إلى الأبد»

«لم يمض على زواجنا سوى سكرة العبور إلى حميم أحشائك، حين بدأ تصادمٌ بين الواقع والوهم. تلك الليلة، كانت حقّنا المقدّس كي نكتمل في الحب من دون أي حذر من اقتراف خطيئته، فيا ليتك سمعتني أهلّل في سرّي عرفاناً للوجود. ليتك! غير أن الحلم لم يَطُل. استيقظتُ من سكرتي لأتفاجأ بأن طريق الحياة معك، سرابٌ يلمع من البعيد، ولا نبلُغه.

«الدفتر الذي بدأت أملأ صفحاته وأنا في السجن، متهماً بمقتل معلّمي وصديقي ماجد، ترك لي صفحات بيضاء لأقف في محكمتك، متهّماً بحبي المجنون لك. الكتابة هي من عصب واحد للحياة، لا تولد انطلاقاً من فكرة أو خطّة، على سكّتها يفرغ القلم حبره تلقائياً، ومن غير وعيٍ أحياناً.

«لقد حان وقت الرحيل»، سمعتك تقولينها كأنشودة وداع. غمرتك لأخفّف وطأة الوقت الواقف صامتاً على عتبة الرحيل. كعصفور ضاق به العيش في قفص، أبعدتني عنكِ بلطف، وبابتسامة كاذبة قلتِ:

«ألم يكفك الليل؟»

«عن أي ليل يا ثريا؟ و العسل في هذه الرحلة قدّمته إليّ كأس مرارة وخيبات».

شعرتُ بكلماتي خارجةً من مقلع صخر، حاولت ترطيبها بما يليق بعريس لم يمض على زواجه أسبوع:

«لعصفورتي الغرّيدة، منقاد جارح، يتقن الوصول إلى مرقد الأحاسيس ويمسّها في الصميم. هذا الليل يا ثريّا تشاركنا معاً في مراسمه الطقوسية لنمجّد بها عطايا الخالق».

حملت حقيبتي وخرجت من الغرفة. فإذا بها تناديني:

«فارس، لا تتركني»

سألتها: «هل أضعت شيئاً»

«أجل! الوقت»

كالعرباش الذي ألِف حجارة بيتنا وتخاوى بمسامها، عدت أتمسك بك. فكيف عساي أتنفّس من دونك ومعك أختنق؟

عدت لأفتش معك عن الوقت الضائع:

«الوقت ها هو، بين أصابعك يا ثريا، تشلعينه كوردةٍ إلى أن يذوي عطرها. الوقت أنتِ، وكم أخشى مزاجَه، يجعل مني إنساناً سعيداً حين أكمشه بيدي، ويعمّ اليأس حولي حين يفرّ منّي، ويعود على حين غرّة، كتائب أصلح عقارب ثوانيه، يُركعني أمامه، يطلب مني أن أفك أزرار ثوبه، أن أعرّيه، أن أتنشّق عبيره، أن أمتص رحيقه حتى الثمالة.

«لو كنت من عرق أمّي التي تركتني رضيعاً، لكسرت قضبان القدر وهمت في الدنيا طليقاً. أنا من شريان الأرض، من كعب شجرة زيتون لا تهزّها الرياح، أنا حجرٌ من بيت العقد الذي بناه أجدادي، صامدٌ صموده، مشتاقٌ لأرى فرحاً آتياً من ذريّة جديدة تعزّم المآسي التي مرّت عليه وتغسله من النحس المعشّش فيه.

«رأيت دموعكِ تنهمر من غير أن تتوضّح لي أسبابها. أهي دموع خيبة، دموع أسف، دموع ندم عما تقترفينه بقصدٍ أو من غير قصد؟ كيف أستطيع أن أشق قشرة الغموض التي تلتفين بها، والصمت حوار عميق بيننا؟ كيف عليّ أن أكون خادم مزاجك الصعب، ولستُ متمرّساً بعلم النفس؟ أتلقّاك في ذهاباتك وإياباتك على خط استواء، لأروّض غربتك، وأطمئن تيهك. محطة صرتُ، أنتظر على رصيفها قطاراً قد يصل وأنت لست فيه. وبالرغم من هذا الضلال، فإن وفائي سوف يبقى صامداً كحجر الزاوية في بيتنا العقد، و سأحبّك وأنا في ذروة اليأس. سأحبك لأن هذا قدري.

«هل أجبتكِ عن سؤال أردتِ به ذات يوم أن تعرفي من من الحبيبتين أحبّ إلى نفسي: الأرض أم أنت؟

تلقائياً، جوابي لك «الأرض هي أنت»، وحسبي أنّك ستفهمين أن مقدار الحب الذي أُوليه لأرضي هو في مكيال حبي لك، أشوال قمح للجياع. بين أرضي والمحراث عاشق ومعشوق، هكذا تراءت لي الحياة معك، أسكب عرقي فيك لتنتعش مواسمك، أهلّل لسر الجسد الذي نفح الخالق في طينه نسمة منه، لتغدو في هذا الاتحاد المقدس شهقة شكران للحياة.

«أنت الغائبة عني منذ ثلاثة عقود، ما نفع أن أعود في هذا الدفتر إلى حياتي القصيرة معك و شوكك لا يزال حتى اليوم يدمي قلبي. الذاكرة، كالمرآة التي مهما تقرّحت صفحتها، تظلّ تعكس ما لم يتلفه الزمن. فليلة العرزال هي في ذاكرتي، كصورة عرسنا، الشاهدة على حكاية من الخيال، حدثت حقاً.

«بعدما ثبتت استحالة العيش معاً تحت سقف البيت الزوجي؛ هذا البيت الذي أثّثناه ونحن في روعة اكتشاف ما كنا نسمّيه الخطيئة اللذيذة، أقدمتِ على قرار جريء، لا طريق عودة عنه، الافتراق زمناً. قلتِ زمناً. وهل يبقى الحب على حاله بعد أن يجف ويتعفّن في أقبية الغياب؟ لعلّكِ في هذا الصوم المرجو، بعيداً عني، كما قلتِ، تستعيدين حرّيتك وتعيدين النظر في الأخطاء التي اقترفتُها حيالك، حتى أستحق كل هذا الجفاء، عقاباً لحب، كان لا يزال في فترة الترويض كمن يروّض فرساً للبطولات الفروسية. وحين عرضت عليك الطلاق، حلاً محتملاً يعيد إليك حرّيتك كاملة، معفاةً من الاتكال على الزمن ومعادلاته، رأيت عينيك تقدحان بريقاً ينذر بعاصفة، قمتِ إليّ وأظافرك تفلح وجهي:

«لن أدعك تدمّرني يا فارس، ولن أقبل بأن أتساوى بنساء عائلتي. طلبت منك إجازة أسترجع فيها عقلي ومشاعري حيالك، لا طلاقاً يُنهي كليّا ما كان».

«إذا كان اختباري للأرض،علّمني أن أكون متوازياً مع الحياة، موازاتها للطبيعة، أن أتقبّل المآسي كما تتقبّل هي مزاج الرياح والأمطار والجفاف،

فإن اختباري للمرأة الوحيدة التي دخلت حياتي، كان مماثلاً لما تتحمّله الأرض الزراعية من نزوات السماء وجنونها وتبقى على رهانها لمواسم خير وبركة.

«أمام أحواض الحبق الذابلة كان صديقي ماجد يقول لي «الحياة بلا حب، كالحبق حين أسهو عن ترطيب تيجانه برمق ماء».

«لملمت أشيائي في حقيبة، وقبل أن نفترق، ودّعتها بقبلة على جبينها:

«سأعود إلى بيت العقد، وأسترجع في هذه الخلوة الضرورية خطاياي، لعلّ السماء تغفر لي».

كلمة واحدة قالتها قبل أن أغلق الباب ورائي؛ كلمة، وأنا في طريق العودة إلى عين الشمس، أضاءت العتمة التي كنت كالضرير أمشي فيها متعثّراً:

«بل الخاطئة هي أنا يا فارس. لقد خنتُ دعوتي إلى أن أكون راهبة علمانية مكرّسة، تقدّم حياتها للبؤساء وتتسامى بالحب قرباناً للمحرومين منه».

«هل حبك لي كان خطيئة؟ هل صادفتِ بين البؤساء والمحرومين الذين نذرتِ حياتك لهم، من هو أكثر مني حرماناً وشقاء؟ لم آتِ إليك أشحذ حناناً ورغيفاً أسد به جوعي. كنت ذلك الغراب الذي جاء يغسل سواده في ينبوع صوتك الغرّيد، ونذره أن يترهّب بين ذراعيك».

جاءني صوتها كالهمسات:

«أغواني ما فيكَ. تركت دعوتي ومضيت إليك. لكنّها ظلّت توسوس فيّ وأنا أتجرّب في نار الجسد وأنت تسعرها بحبك المجنون، حتى أدمنت على هذه النشوة المغمّسة بالخطيئة. اليقظة لها طعم الندم، إحساس حفر في داخلي صراعاً بين المرأة العاشقة الذاهبة إلى الزواج بحذر وتلك المدعوة منذ صغرها إلى حياة العفة والصلاة مع أخويات المحبة. طلبت إجازة منك، أختلي فيها بنفسي ولو بعد حين، لخيار ثابت بين هاتين التوأمين، لعلّ تنتصر فلقة على أخرى».

«لو كنت سيغموند فرويد لكنت مددت مريضتي على كنبة التحليل، ودعوتها إلى فض الأحاجي العجيبة التي تتناحر في داخلها. لكن، لم أكن سوى ذلك الفلاّح الذي أحب الأرض بغريزته وصقل فكره ومشاعره في الكتب. بسماعي اعترافات كهذه، عدت إلى ليلتنا الأخيرة في البندقية. آثار أوبرا «لا ترافياتا» مرتسمة في أساريرك. في وقفتك الطويلة أمام المرآة تتأملين فيها خيالك، كدت، وأنا على مقربة منك، أسمعك تحاورين ذاتك. وحين انتبهتِ إلى وجودي، طلبتِ مني أن أساعدَك على فكّ أزرار فستانك الأسود الطويل. حملتك كالريشة إلى الليل، أتنشّق اسمَك وأعيده مرّات، حتى لا تغيب شمسك عن ليلي. كان السحر في المرآة يفعل فعلته بيننا. سمعت صوتك كالهمسات عند الرمق الأخير:

«فلتكن هذه الليلة بين ذراعيك، أجملَ ليلة حب قبل أن أموت».

«بين جدتي سلمى وبيني، كان الصمت أكثر بلاغة من الكلام. لم أكن في حاجة إلى كثير من الشرح لأبرّر عودتي إلى بيت العقد. وحدها عقارب عمرها، المفلوحة في تجاعيد حزنها العتيق، دلّتها على المستنقع الذي بدوت غارقاً فيه، حيث كلمات القواميس كلها تعجز عن كتابة حكايتي مع ثريا».

الغرفة التي وُلد فيها، عاد إليها، ويقينه أن الوحدة هي قدر الحالمين. سعى إلى النوم. في هذه الليلة الأولى لعودته إلى حضن طفولته، بكى بصمت؛ دائماً هذا الصمت المنسوجة خيوطه على نول العنفوان. دموعه المالحة لم تكن بكاء حزن على مصير حياته، لا أسفاً على قصة حب ذبلت برعماً قبل أن تزهر، بل على هذا الرضيع الذي عاد والتقاه في هذه الغرفة الشاهدة على اللحظة التي تخلّت أمه عنه.

الهلال المبتور من قصيدته كان متكئاً على قمة شجرة المشمش المحاذية لغرفته. تأمّل فيه:

«سيكون بدراً بعد ليال. هكذا هو، لم يتغيّر، مذ وجد مكانه مرسوماً في سِفْر الكون، وحدانياً لم ينافسه على بهائه كوكب. عتقت القصائد التي أوحاها إلى الشعراء ولم يعتق. يهلّل إن اكتمل ويهلّ إن ناص ونقص. شعاعه الضئيل الذي تسلل إلى وسادتي، قرأته رسالة منه إلي. غدا سوف أقوم إلى أرضي، فلا فائدة من أن أبرّر وجودي سوى بالعمل».

قبل أن يغلبه النعاس فكّر في جدّته التي جَرُدَ فستان الحداد على بدنها ولم تبدله. تذكّرها مغمياً عليها، ذات موسم من قطاف الزيتون، وإحدى النساء تحاول أن تنعشها بالماء، حتى إذا استرجعت وعيها هبّت فوراً إلى السخرة، تطمئن الجميع بكلمة انحفرت منذ ذلك الحين في ذاكرة الفتى الذي كنته:

«العمل في الأرض علاجي. هنا أنسى أحزاني».

فارس من ضلع هذه المرأة ومروءتها. في باله مشروع زراعي يضم خبراء لنهضة زراعية شاملة تعيد إلى الأرض خيراتها بعدما هجرها أبناؤها، وحلمهم الإثراء في عالم الأغتراب:

«غداً صباحاً، سأطرح خطّتي على جدتي وأستمع إلى خبرتها الطويلة التي اكتسبتها بالفطرة. المهندس الزراعي سيضيف إلى شهاداته ما سها عنه العلم والنظريات، سرّ هذه المرأة التي تجنّدت للأرض، ولم تغفل قواها عن

رعاية كل شبر منها، كأنها في نكشها وتعمّقها في طبقاتها كانت على يقين بأنها ستعثرعلى كنز من السعادة».

فُطم فارس باكراً من حليب الأم، لكن سلمى لم تفطمه عن ملح الأرض. كانت تحمله كشقبان على ظهرها وتلقيه على الحشيش بقماطاته ولا تغفل عينها عنه ثانية. فشخت فوق المصائب حتى لا يقهرها القدر. هي من طبيعة المؤمنين بأن السعادة موجودة، يكفي أن نبحث عنها. لقد حلمت بها وطرحة العروس كجناح طير تسابق الريح للوصول إلى ذراعي يونس، حيث اكتشفت أن هذا الجسد الذي تدرّب على أشغال الأرض وقساوتها، كان في انتظار من يوقظه على حلاوة الحب. تعرّت في العرزال من خفر الممنوعات وأطلقت بين ذراعي يونس صرخة شكر للحياة. هكذا تمنّت لهذا الوحداني، حبّاً يخرجه من العتمة إلى النور. ثريا، بحسنها وشفافيتها، أدخلت البهجة إلى نفسه الحزينة. تعلّق بها تعلّقه بالأرض. هذه السعادة التي هبّت كإعصار على بيت العقد، لم تُطمئن قلب سلمى التي كانت تود أن تستجيب السماء لصلواتها بفتاة من فتيات البلدة، لا سائحة في عين الشمس و مرتلّة في قداس الأحد، و في نهاية الصيف ترحل مع طيور أيلول إلى غربة المدينة. لم تُبِد رأياً، فالقرار له مذ رأته هائماً بهذه الصبيّة، مسحوراً بصوتها. كانت ثريا فعلاً آية في الحسن، لائقة، متعلّمة، طليقة اللسان بالفرنسية، بيد أن ثمّة شيئاً غير منظور للعين، بلبل قناعتها بهذا الزواج، على الرغم من أنها كانت أول من دلّه عليها.

يوم بدأت سلمى تملي على رشا ابنة حفيدها، فصول حياتها، ثمة فصل من هذه الحكاية كانت الجدة تحوم حوله ولا تتجاسرعلى ذكراه، خوفاً من أن

تصدم مشاعر هذه الصبيّة، الساعية، بكل ما لديها من خلايا سليمة في دماغها، للتفوّق على دائها. أورثت ثريا للتوأمين، رشا وسناء، طبيعتيها المتناقضتين: الانغلاق والتمرّد.

لكنْ، أمام إصرار رشا على أن تعرف من الجدة حقيقة هذه الأم التي دفنها فارس في صمت، لا باب له ولا نافذة، خرجت سلمى للمرّة الأولى عن هذا الصمت الذي تقاسمته مع حفيدها:

«السعادة الطافحة من أساريره أدخلت الشمس بيت العقد الحزين. الحب حوّل طقسه المكفهرّ، الغائم، إلى حب للحياة. سمعته للمرّة الأولى، بعد عقد خطوبته على ثريا، يغني. هو الكتوم، اللائق في سلوكه معي كما مع الآخرين، دخل ذات يوم في حميميات حياتي مع يونس جد والده. من دون خجل سألني إذا كنت بزواجي معه ذقت لذة الحب. لم أتفاجأ، لم أرتبك. جاءت ردة فعلي صريحة، صافية من المواربات، حرّة الكلام مع شاب على عتبة الزواج، من دون أيّ تحوير في علاقتي الفريدة بيونس، في زمن سجنت أحلام الأنثى في قفص الخطيئة. كنت متمرّدة، أطالب بحصتي في الحياة مع زوجي. لذا، كنت لفارس أكثر من جدة، كنت الأم التي رافقت نشأته. في هذا الاعتراف الصعب، أردت أن يجد فيّ الصديقة التي هو في حاجة ماسة إلى تجربتها الصحيحة:

«أنوثتي، يا فارس، نضجت باكراً. جسدي الصغير كان يلهيني عن عملي في البستان، يذكّرني بوجوده عندما تشتعل نار لذيذة في أنحائه ولا أدري كيف السبيل إلى إطفائها. حمّى الجسد وجدت دواءها في شقاوة الأرض.

أحمل رزمة الحطب بين ذراعي وأهرول إلى البيت مغسولة من شيطاني، أركع وأصلّي المسبحة مع أمي. إلى أن جاء يونس مع أمه يطلبني لأن أكون شريكة حياته. العرزال الذي جهّزته أمي لليلة زفافنا، وهي تُملي عليّ الطاعة ودروساً في الامتثال لرغباته، كان شاهداً، منذ الليلة الأولى، على شريكين تساويا في الحب والعطاء».

اعتراف سلمى الصريح، حرّر حفيدها من ثوب الخطيئة الذي تدثّر به طوال سنوات الداخلة في مدرسة الرهبان وتعاليمهم. أذابت كلماتها العفوية الجليد المكلِّس جسده. كعصفور كان حبيساً في قفص، مضى إلى صوت ثريا البريء من كل دنس، يناديه ليجرّب في طعم شفتيها تلك الرغبة الجامحة التي تبدأ بقبلة.

بعد فترة قليلة من خطوبته، بات وجوده نادراً في بيت العقد. بيروت مدينة ثريا، أصبحت مكان عيشه، وكلما طال غيابه عن بيت العقد، وسلمى في انتظاره الدائم بين القناطر، يعود وفي جعبته أعذاراً ملفّقة تخبئها في عبّها حتى لا يرى امتعاضها من هذه الصبيّة التي أبعدته عنها. فبعد أن يكون أدّى واجب الفلاّح المنذور للأرض، وسدد للمزارعين رواتبهم، يودّعها معتذراً عن تناوله معها الغداء، حتى لا يصل متاخراً إلى موعده، مع ثريا.

الحوريات في الأساطير القديمة، كن، بأصواتهن الخلاّبة، يوقعن البحّارة أسرى سحرهن ويستملكن إرادتهم. هكذا ثريا. بعذوبة غنائها، أوقعت فارس في حب جارف، تنبأت الجدة بأنه لن يخرج منه سالماً.

فهل فقد صوتها سحره حتى يعود بعد أيام من زفافه إليها إلى البيت الذي ربّاه وفي فمه ماء؟ لم يأت على ذكر هذه المرأة المركّبة من عدة نساء: ألقديسة، الممثلة، العشيقة، الماكرة. أيّام من العشق حيناً، والانتظار على بابها المقفل أحياناً، كادت تدفع به إلى الجنون. المشروع الزراعي في هذه المنطقة، دواؤه. به لجم أسئلة مربكة كانت في بال الجدة، كلما همّت بطرحها لو لم تصطدم بعلامة النهي التي كانت بحسّها تقرأها، تحذيراً من التوغّل في منطقة محرّمة.

بالأمس كان يصغي إليها، تُدرّب عقله ويديه على التعامل السليم مع هذا الإرث، إرثه. الآن هي المستمعة، يكلّمها بشغف على برنامج نموذجي حديث، يحسّن مردود الزرع، ويدفق الخيرات على عين الشمس والجوار. راحت تتأمّله، مكابراً على جرح لم يبح به، يرفض الانكسار ما دام في كفّيه حفنة تراب.

«هذا الولد من عصبي- قالت في سرّها- من صراعي تشرّب، يفشخ فوق الخيبات ولا ينهزم. قوّتنا رضعناها من هذا الإيمان الذي يدمل الجروح، الأرض».

عاد فارس إلى البيت وعادت روائح الكمّون والقرفة تفوح في أرجائه. الحبوب والأعشاب تتركها سلمى في القِدْر على نار خفيفة، إلى أن تنضج و تذوب عشقاً ببعضها البعض. من أمّها تعلّمت سرّ النكهة القادرة على أن تطمئن النفس وتسعى بها إلى السلام:

«طعام بلا نكهة، كحياة رتيبة لا معنى لها. هذه الوصفة خذيها يا سلمى شعاراً، تُفرحي بها قلب يونس».

وظلّت مقادير أمّها في البال، فبينما الحبوب في القِدْر، تزوغ وتتصاعد لهباً، كانت أفكار سلمى ترحل بها على إيقاع حركة الكفكير الدورانية، إلى الماضي، ثم تعود بها إلى حيث سؤال عالق في حنجرتها: ماذا يا ترى حلّ بكل هذا الحب الذي ظنّه فارس ذخيرة إلى الأبد؟

أخبار وشائعات بدأت تسري في البلدة. النساء حوّلن ألسنتهن إلى الحديث عن ابنة المدينة التي قد تكون أقبلت على الزواج بعد علاقة برجل آخر. أمّا الرجال، ففي رميهم الزهر على الطاولة، كانوا يَعْزون مع كل شاش وباش، عودة حفيد سلمى إلى البلدة إلى عجز جنسيّ، فيتذكرون الفتى الوحداني، المغلق على حاله، الذي اختبر السجن قبل أن يختبر الزواج. ففي ذلك كله، كانت تتسع الأقاويل. وبقدر ما تتلوّن في مخيّلة مشيّعيها، كان يجد فيها الناس حكايات تسلّي رتابة عيشهم.

الخبر الوحيد، الصحيح، الذي تلقته سلمى، صدر عن مختار البلدة:

«صادفت فارس منذ عودته من المدينة مرّتين. كان جالساً على مصطبة بيت المعلّم ماجد مزرعاني، المقفل منذ مصرعه. بدا لي هائماً في أفكاره. صبّحته فلم يجب. أكملت طريقي وفي خيالي أنه ما زال يحنّ إلى معلّمه وصديقه. كلاهما كان من صنف المثقّفين، المنعزلين عن المجتمع».

سكبت الطعام في الصحنين وجلست قبالته تأكل من دون أن تأتي على ذكر زيارة المختار لها، حرصاً منها على تجنّب أي وشاية تغيظه. كانا صامتين؛ هذا الصمت المدوزن على نغم حزين لا يعلو ولا يرتقي بالأمل.

إلى أن كسر ثقل الصخر الجاسم بينهما، وقال:

«جدتي، أود أن تشاركيني في حلم تلقّيته هذا الليل، فوجدت فيه عند اليقظة وقبل أن يضمحل من فكري، مشروعاً ثقافياً تربوياً أضيفه إلى المشروع الزراعي الكبير».

«فارس، أنت تعلم بأني ما دمت حيّة فسوف أشاركك في أحزانك كما أفراحك، في أحلامك كما مشاريعك. أثق بك وأمشي مغمضة العينين وراءك».

«ماجد مزرعاني، أما زلت تتذكرينه؟ قمت بزيارته كالمعتاد. كان لديه ما يقوله لي. سوف أجعل مشروعه مشروعاً تربويّاً إلى جانب مشروعي الزراعي. قرّرت أن أشتري البيت لأمتلك الحرية الكاملة في تصنيفه مكتبة عامة، تحمل إسم ماجد مزرعاني، تكون جسر تلاق، تربويّ وثقافي بين المكتبة والمدرسة، شرط أن نجد لدى وزارة التربية أذناً صاغية لهذا المشروع البلدي الذي لم يسبق له مثيل».

تاهت سلمى بين الحلم والواقع، لا تدري في أي منهما تحط قدميها للمشاركة في برنامج لم تفقه منه شيئاً، سوى شراء بيت المعلّم المهجور منذ مقتله. لعلّ فارس يعرف كم تتفادى المرور بمحاذاة هذا البيت، والجرح لم يندمل مذ صوّبت أصابع الاتهام إليه، وزجّ ظلماً في السجن. أمام عينيها المحدّقتين فيه استفساراً، سارع في الخروج من الحلم إلى أرض الواقع:

«ستّي، لقد قرأت ما في خاطرك. الذاكرة، إن لم نغسلها من الوحول المتراكمة فيها،تتكلّس وتقف عثرة أمام تقدّمنا. جاءني ماجد ليلاً في هذا

المنام ليغسل دمه المهدور على عتبة بيته بمشروع ثقافي يهذّب الوحش الكامن فينا ويروّضه. استفقت ويدي بيده. خلته يريد أن يضيف شيئاً، لكني، في لحظة، صرت خارج المنام، و صوته كالصدى الآتي من البعيد يسلّمني رسالة قرأتها في خيالي:

«الكتاب هو أثمن شيء نقدّمه إلى الإنسانية».

«هذا البيت تريد أن تجعله، بحسب وصيّة المعلّم الراحل، موطئ تنوير لأولاد الضيعة. هذا ما بتُّ أفهمه. لكن، أين أولادك يا فارس في هذا المشروع؟ هل أقلعت عن الزواج وبناء العائلة أسوة بالمعلم العانس؟ أين هي المرأة التي أحببتها حتى الجنون وتزوّجتها لأراك اليوم، ولم يمضِ على زواجكما ثلاثة أشهر، عائداً إلى البيت مع حقيبتك، كعائد من عالم الاغتراب، وفي رأسك مشاريع عمرانية لا حضور لثريا فيها. ما هذا الغموض الذي يزنّرك مذ عدتَ وحيداً، أعزل، تتجنّبني حتى لا أصدمك بأسئلتي،كأن مأساةً طرأت على حياتك لا تريدني أن أتقاسمها معك».

بكى فارس. دموع مالحة انهمرت من عينيه. لم تكن دموعَ حزن ولا دموعَ فراق. رأتها سلمى كالحصى، تتدحرج من مقلع الغضب واليأس. قام بسرعة خجلاً من ضعفه، وتوارى عن نظرات جدّته الثاقبة.

«أيكون النجاح ثأراً للسعادة المستحيلة؟»

أتكون الإجازة النقاهية التي وفّرها لنفسه ليشفى من زواجه الفاشل و حبّه القاهر لثريا، هي التي وفّرت له الوقت، كل الوقت، ليعود ويستنير

بتجارب ماجد المرّة؟

دمٌ جديد سرى في عروق عين الشمس. حمل التلامذة أغصان الزيتون ومشوا على وقع الأبواق وطبول الكشافة في موكب مهيب احتفالا بالمشروعين الكبيرين، اللذين وضع لهما فارس رستم الحجر الأساس. مشروعٌ زراعي وآخر تعليمي، وبين هذا وذاك جسر تواصل بين الزرع في الأرض والزرع في العقول.

وقف على المنصّة شاكراً وزيري التربية والزراعة لتلبيتهما دعوة بلدية عين الشمس احتفالاً بالحدث:

«عين الشمس، ايّها السادة، كانت حتى هذا اليوم، تعيش على هامش الحضارة، بعدما نسيت ماضيها من دون أن ترى في الأفق البعيد ما يحدث من تطورات مذهلة. فمن ليس له ماض لا حاضر له ولا مستقبل. إنعاش قريتي وجوارها بالعلم وأحدث وسائل الزراعة، حلم سوف أفعل المستحيل لتحقيقه، فبمؤازرة البلدية وتشجيعها، جعلت بيت المعلّم ماجد مزرعاني مكتبة هي مكتبته، ترك لنا فيها بعد رحيله المأساوي، كنزاً لا يفنى من العلم والمعرفة على كلّ المستويات. هذه المكتبة، وقد أصبحت جاهزة للاستقبال، نودّها بدعم وزارة التربية، النبع الذي يأتي إليه كل طالب لينهل ما يملأ ثغرات عقله وينوّره. الزراعة والتربية، صنوان من رحم الحياة هما. فكما الأرض في حاجة إلى اليد لتزرع وتقطف، كذلك المدرسة في حاجة إلى معلّمين متنوّرين يزرعون البذور الجيدة في عقول أبنائنا حتى لا يغريهم الرحيل عن أرضهم طلباً للعلم، بينما الباقون ينزفون ضجراً وفقراً. رجائي

أن تضعوا عين الشمس على جغرافية همومكم، فنعمل معاً على جعلها نموذجاً بيئياً يعتزّ الإنسان العيش فيه». مكتبة

عاد فارس إلى دفتره بعد غياب، يدوّن بخطه العصبي، هذه المحطّة المهمة من حياته. الكلمات شعر بها عاصية تحت قلمه، لا تجد سبيلاً لتتحرّر على الورقة، كأن الصدأ بدأ يقرض سلاسة أفكاره. كلمة لشاعر، حفظها من سنوات الدراسة، قرعت على باب ذاكرته لتعيد إلى القلم سيولته:

«الكاتب الصحيح هو الذي لا يجد كلماته، بل يفتّش عنها، وحين يجدها يرحل عنها ليعثر على أفضل منها».

آخر أيام آب تؤشّر إلى حلول الخريف، يعبر العمر ببرهة كالهواء، تاركاً على أوراق الشجر ذكريات بلون الصدأ ومذاق الرماد. غداً ينتهي الحصاد تاركاً في الحقول القش وكآبة تشبه الوحدة.

بعد يوم حافل في التعريف عن هذا المشروع التربوي- الثقافي، مضى فارس إلى الكروم المتمادية أمامه بتلاوينها الوداعية، يستقي منها عافية. باتت الوحدة صديقته، يتحاكيان، يتشاوران، تدرّ عليه بذوراً قيّمة، تعلو في خياله كسنابل قمح، يطحنها ويعجنها خبزاً للإنسان التائق إلى الأفضل. الدفتر في انتظاره. العنقود الذي حمله معه، بحبّاته البلوريّة الملقّحة بأصابع الشمس، أوحى إليه كتابة من عصير العنب و سكرته، قد تكون مختلفة عما يكتبه في حال من الصوم. الذاكرة لا تصوم. فالعام الماضي، في مثل هذا الوقت، أخذه فكره إلى ذلك الأحد الاحتفالي بصعود مريم أم يسوع إلى

السماء. من بين أصوات الجوقة تعالى صوت منفرد، تلقّاه فارس قشعريراتِ حمى في عروقه:

«هذا الصوت لا يمجد الخالق، بل يكاد الخالق يمجد به خليقته».

هذا ما قاله في سرّه. خرج من الكنيسة سكران، يحمل هذا الغناء في ضلوعه ومضى إلى البريّة، يختلي به بعيداً عن عيون الرقباء. قرّر صوت ثريا الفصل الثاني من مصير فارس رستم.

ظلّت شبابيك منزل عفيف معتوق الصيفي مقفلة طوال هذا الصيف. الفراق بين ثريا و فارس، كان، من دون أي شك، سبباً في تواري العائلة عن البلدة. فنهلا، أمّها لم تسعَ لمعرفة ما حدث بينهما، كأن ثريا منعت أيّاً من العائلة من التدخل في خصوصيات حياتها، وهل من سبب لديها، يبرّر هذا الجفاف؟

بحكمة وتعقّل، ترك فارس الأمور تأخذ مجراها. فما قاساه من ثريا بدأ ينحسر، ويبتعد، إلى أن ظنّه في اعترافاته لدفتره، قد أصبح في خبر كان. المشاريع الاستصلاحية التي انكبّ عليها، بدأت تعطف عليه وتصوّر له قرية زاخرة بالعطاء، بناسها وأرضها. فهذا العنقود، المتعانقة حبّاته بعياقة، لشاهدٌ على سخاء الأرض ومحاصيلها المباركة. رهّف فارس استمتاعه بمذاق الحبة تلو الأخرى ليختبر ما هو مقبل على اكتشافه. لم يخطئ طعمها في سبره نيات الطبيعة المدهشة. كل حبة من العنقود كانت تفشي سرّ علاقة الجذور المتمادية تحت طبقات الأرض، بعضها ببعض، وتستمد نكهتها من

هذا اللقاح العجيب، المواصل حركته على وجه الأرض، حيث يتولّى الهواء نقله غباراً من أشجار الغابة إلى الكروم المجاورة.

سرح فارس رستم بفكره إلى المرحلة القادمة حين ينتهي القطاف. سيمضي قسم كبير منه في سلال صانعي الخل والعرق أمّا المحصول الذي اختبر عليه أجود أنواع المطاعيم الفرنسية فسيكون نبيذه بمثابة سمفونية من عدة مذاقات. لن تكتفي عين الشمس بعد الآن بسمفونية من نوطة واحدة؟

هل ثمّة يدٌ خفيّة محت ثقلاً ولو طفيفاً من الأحزان المتراكمة على كتفيه؟ شعور غريب تملّكه من دون أن يدري سببه. حياة الأمس وكوابيسها باتت خارج مدار كوكبه الآني. فما من قوّة ستتجرّأ بعد اليوم على أن تهدد السلام الذي وضعه هذا الصباح أساساً لغد أفضل.

جاهداً كان فارس يحاول أن يقنع نفسه بأن فصلاً جديداً من حياته قد بدأ، بل ولادة جديدة من رحم ذاته، لكن الشك كالهواء الفاسد، كان أحياناً يتلقّاه في رئتيه ولا يستطيع سد مجرى تنفسه ليتأبىّ سمومه. على هذه الصفحة التي ملأها بأحداث النهار، عاد وكتب في أسفلها ما بقي منها فارغاً:

«غداً في قداس الأحد، سأقدّم صلاتي عرفان شكر وامتنان للخالق، القادر على كل شيء. لكن كيف السبيل إلى اختراق سر الله مع المصلّين، وتمتماتي باردة، لا حرارة فيها ولا تقوى. كيف سيقنعه إيماني وكلماتي المهموسة ضجراً، شبه ميّتة. أمّا هناك في الطبيعة، فأرى وجهه الضاحك، ويتأجّج لقائي إياه. يعلو الشكر لهذا الغائب-الحاضر، حميماً، موجعاً على

قدر حبي له. الحب وجع، أتقاسمه مع العصافير في دعائها الملوّن بالحزن عند الغياب».

أقفل دفتره عند سماع صوت جدّته تدعوه إلى العشاء. الطيّات المتراكمة في نفسه، كصفحات الدفتر التي شرّعت بياضها لتستقبل حياته، بشمسها وليلها، بإيجابياتها وسلبيّاتها، يسمعها تتعرّى من الصمت ما إن تتحوّل إلى كتابة.

جلس قبالة جدته يتسامران بشأن مجريات النهار. أطلق على غير عادته للسانه العنان، يحدّثها ولا يأكل. هي التي اعتادت على صمته كالثقل الجامد في قعر حياته، استمعت إليه وكلّه اعتزاز باعتراف المسؤولين بمشاريعه العمرانية للقرية والجوا. وجد حفيدها ما كان يصبو إليه، ليسير بلا خطأ في الطريق الصحيح. برد حساء العدس في صحنه ولم يرشف منه ملعقة. أتخمه النجاح وذرّى في نفسه رضىً واكتفاءً. تمدد في فراشه منهكاً، يرنو إلى ساعات من النوم يعوّض بها عن الأيام التي فاتت، كان خلالها يعيد توضيب الكتب وتصنيفها لتتخذ مكانها على رفوف المكتبة التي أوصى عليها لتكون جاهزة مع بدء الموسم الدراسي.

لم يغفُ. راح يتقلّب في فراشه والأفكار كأمطار غزيرة تهطل على وسادته، يكشح واحدة، فتنهمر أخرى. ترك للنوم حرّية العبث به من دون أن يصارعه. فلكم كان منذ صغره تحت سطوة هذه العتبة المزاجية بين النوم والصحو، حتى بات خبيراً بأسرارها، لا يعرف ماذا تخبئ له من حواضر الأحلام والكوابيس.

ربما في تلك البرهة ومن دون أن يعي، أخذه النوم إلى الضفة الثانية. سمع غناءها آتياً من مكان تحيط به المراكب. جمد في مكانه. بدت له في فستانها الأسود الطويل في دور غادة الكاميليا ترثي بغنائها الحبيبة المنبوذة. أدرك انه لم يكن نائماً، كالرؤيا الصاحية أتت إليه، لتؤكّد له أنه عالق في شباكها لا مفرّ له منها. خرج من غرفته كلص فارٍ من عقوبة النوم ومضى بين القناطر، يلهو مع الليل. ما معنى هذا الحلم الذي تفاجأ به واقفاً على جفنيه المغمضتين؟ هل لتقول له إنه لن يتعافى منها بالرغم مما بذله خلال الأشهر الفائتة في مشاريع بنّاءة، لينساها؟ ظن النسيان مسألة وقت وبعاد فلم يقو على الفراق.

تنجلي الحقيقة في الليل. عاد إلى دفتره يدوّن اعترافات لا يتجرّأ على البوح بها لنفسه في وضح النهار:

«أنا مدمن عليك يا ثريا، مدمن على أفيونك. طردتني من حياتك ولم أنهزم. سعيت للخروج من حبي لك إلى حب آخر، أبناء بلدتي، وحلمي بذورٌ نافعة تعطي المستقبل بيادر حنطة لا زؤاناً مرّاً. لكن حبي لك بقي في أعماقي كنبع عطش لن يرتوي سوى بك. هذا هو قدر المدمن على الحب».

طوى الدفتر وعاد إلى فراشه. نوم عميق كان في انتظاره ليأخذه إلى بيت المعلم. رآه جالساً على الكرسي الهزّاز الذي وجده فيه مقتولاً، يقرأ في كتاب. همّ بمصافحته لكن ماجد أبعده عنه بكف يده. أتاه صوته من الهناك:

«خذ هذا الكتاب واقرأه. ففيه ما تبحث عنه. فلعلّك أفضل مني، تليق بك الحياة».

استيقظ مع صياح الديك ويده ممسكة بكتاب وهمي من مكتبة المنامات. ليته قرأ العنوان، ليت هذا الديك الملعون أجّلَ صياحه إلى ما بعد قراءته الرسالة الآتية إليه من الهُـناك.

استحم بماء باردة وهو يستعيد في خياله كلمات معلّمه:

«تجد فيه ما تبحث عنه».

الغلاف البنّي في باله. قبل قداس الساعة العاشرة كان قد أصبح في المكتبة العابقة برائحة الخشب الجديد والدهان الطري. مؤلّفان تجاوبا مع اللون الذي يبحث عنه، لعلّه يشتمّ من واحد منهما فحوى رسالة معلّمه. العنوان الأول «الوعي ضد العنف» لستيفان زفيغ، لم يعن له شيئاً. قرأ على غلافه موجزاً للصراع التاريخي بين كالفان وكاستيلليون.أعاده إلى مكانه وتمهّل في الغوص في الثاني «التحليل النفسي لسيغموند فرويد على مرّ الأزمنة». بينما كان يقلّب الصفحات من دون اهتمام واضح لما جاء يبحث عنه، وجد نفسه أمام صفحة، طُويت زاويتها عمداً لتضيء على العنوان:

«تفسير الأحلام». الصدفة مذهلة. وضع الكتاب في جيب سترته ومضى على قرع الأجراس حاملاً نياته الحسنة إلى القداس.

يعج قداس الأحد في الصيف بالناس. مقيمون ومصطافون، يأتون إلى مراسم احتفالية تبعث فيها أصوات الجوقة وأنغام الأرغن أنساً وحرارة. مع الواقفين في مؤخّرة الكنيسة وقف فارس، شارداً في أفكاره ومناماته المبعثرة. فجأة سمع صوتها من قلب الجوقة، منفرداً، آسراً، تلقّاه كإعصار

زعزع توازنه. لم يكن يحلم. في اليقظة كان، على هذا الخط الهش بين الواقع والخيال. الترنيم المتصاعد برقة وشفافية من حنجرتها كان يرسم للمؤمنين درباً إلى السماء، بينما تلقّاه قلبه طعناتٍ موجعة. تشابك المنام مع اليقظة.

أسرع في الخروج من الكنيسة قبل انتهاء القداس وهام في القرية والصوت يلاحقه. كيف عسى هذا الصوت الملائكي الذي نشله بغنائه من كآبته المزمنة وأذاقه طعم الحب، أن يتحوّل إلى غناء غاوية، كبّلته بسحرها وأذاقته طعم الجحيم؟ وصل والعرق يتصبّب منه إلى الكرم. هنا بين العرائش ترك لأعاصيره أن تستكين. الشمس في تعادلها مع الهواء الناعم أخذته في قيلولة شافية كم كان في حاجة إليها. لم يدر كم من الوقت نام. استيقظ على ألم في دماغه شنّج تفكيره. وقف مترنّحاً، كتائه ضلّ دربه. تروّى إلى أن امتلك وعيه كاملاً. استفقد الوقت في ساعة يده. الثالثة بعد الظهر. أما زالت جدّته في انتظاره للفطور؟ نسي بتصرّفه الأرعن موعده مع هذه الجدّة الفاعلة في حياته كلَّ خير منذ ولادته. لقد رآها البارحة، احتفاءً بالأصداء المشجّعة لمشاريعه، تحضرّ وليمة له وحده، من كل ما يحب. قطف ثلاثة عناقيد من العنب التفيفيحي، ومضى بها إلى سلمى استغفاراً منه للإهمال الذي اقترفه بلا وعي.

كانت بين القناطر تبصّر بالورق. قالت وعيناها شاخصتان إلى بنت البستوني:

«ثريا هنا. سألتني عنك. لم أدر ما أقوله لها. أتت مع شنطة ثيابها. فلعلّها تذكّرت أنها زوجتك».

كلمات جدتي تلقّيتها متقطّعة، متحفظّة عن إبداء رأي قد يهيّج غضبي. حفظت سلمى هذا الفتى عن ظهر قلب، تناور حوله، تضيء له الشموع حتى تبقى حارسة أحزانه.

أمام صمته، أضافت، وبنت البستوني جامدة في يدها، تتولّى بمفردها أن تنعى خبراً أو تزفه:

«طلبت مني أن أجهّز لها العرزال. فيه تود أن تقيم. معك. هذا ما قالته».

قامت سلمى إلى المطبخ تسخّن الطعام، بينما مضى فارس يبحث عن ثريا والأفكار تتجاذبه لمعرفة سبب هذا الرجوع إليه. وجدها على أعلى أغصان شجرة التوت، تغني. كأن غناءها في قداس هذا الصباح لم يكن كافياً ليزعزع كيانه. نادته وهي تلوّح بيدها:

«فارس، العصافير قامت بغزوٍ على كبوش التوت. ليتك تساعدني على التخلّص منها، فننقذ ما تبقى على الشجرة ونصنع منه شراباً».

نزلت عن الشجرة تحمل في سلّة صغيرة ما استطاعت أن تحوّشه في عراكها مع العصافير. تسمّرت عيناه على فمها. حبّة التوت بلونها القرمزي كانت في انتظار من يقطفها ويمتص رحيقها. سيطر على شهوته. هذا الفم الذي منه كان انجرافه في جنون ثريا وسحرها.

ضحك أمام قدرتها على أن تكون في جميع الأدوار، قديسة، عشيقة، غادة الكاميليا، وها هي الآن تؤدي دور زوجة معتّقة في هذا البيت،

تشنّ حرباً على العصافير بنيّة إنقاذ موسم كبوش التوت وصنع شراب منها...

الدفتر، ككرسي اعتراف، يحكي له ما لا يقوله جهراً:

«ثريا! ثريا! ألم تلاحظي وأنت تكشّين العصافير عن الشجرة أنك على شاكلتها؟ امرأة- عصفورة أنت، ترحلين مع العصافير المهاجرة وتعودين معها كيفما يُمليه عليك اتجاه الرياح. ولا تدرين أنك، برجوعك العابث بالمنطق كما ذهابك، تشعلين هذا الجمر الذي يأبى أن يترمّد. فمهما نويتُ أن أشفى منك أظل أسير سحرك الغامض. فمك الملطّخ بالتوت أضحكني وحرّك، في آن، شهوتي الملجومة. لم أتجرّأ. فأنا بتُّ أخشاك».

كانت المائدة جاهزة، تفوح من أصنافها أنفاس الفراريج المشويّة على الفحم والتبّولة والباذنجان المتبّل بالثوم وحبوب الرمّان. سلمى الخبيرة بدوزنة أعشاب الحقول الموسمية في طنجرتها، شاءت أن يكون هذا اليوم مميّزاً. عودة ثريا المفاجئة أضافت إلى مقاديرها إضمامة من حسن نياتها، لعلّ المياه السائبة تعود إلى مجراها.

كمن يرحّب بمغترب عاد بعد غياب إلى الديار، استوحت سلمى من شعراء الضيعة ما حفظته منذ الصغر، لتقوله على وزن القرّادي لابنة المدينة، عربون محبة و... عتاب:

«ضلّي معي، وشوفي كيف القمر/ بيغمز العرزال من بين الغصون/ وكيف الهوا بيخلق هوى بلمحة بصر/ وعنغمتو كل الخطايا بتنغفر».

نظرات ثريا التائهة بين التبولة والشِّعر العاميّ، قرأ فيها فارس كلَّ معاني الغربة. ليست ثريا من هذه التربة التي من ملحها المعدني يتخاوى الإنسان بالطبيعة ويغدو جزءاً لا يتجزّأ منها. وبالرغم من ذلك، فإنها عادت تطلب من الجدة أن تجعل لها في العرزال بيتاً يؤويها مع فارس. لم تكن سلمى ساذجة. هي التي قاومت بشراسة للتغلّب على المآسي التي فتكت ببيتها حتى صارت بين يديها المفلّعتين عجينةً أتقنت مع الوقت السيطرة عليها، انتقلت من القرّادي إلى مواجهة على خط واحد لا يقبل نقاشاً:

«عدتِ يا ثريا في هذا الموسم من القطاف مع النحل الحائم على عناقيد الكروم يمتص سكّرها. من أي صنف من النحل أنت؟ تكلّمي! حاولي أن تكون نياتك صافية ولا تواربي، فأنا أنثى مثلك، في إمكاني أن أفهمك».

أعادت ثريا ملعقتها بنفور إلى الصحن وسألت:

«بمَ أخبرك فارس عن علاقتنا؟ وما هي الأوصاف التي اتهمني بها ليبرّر عودته إلى بلدته؟»

أمور غامضة لا شك في أنها حدثت بينهما، زعزعت زواجهما. تأويلات ثريا صدمتها في الصميم:

«الصمت الذي آثر فارس أن يقيمه سدّاً بيني وبينه، كان أكثر بلاغة من الكلام. عودته إلى البيت وحيداً، خائباً، يائساً، تلقيته اعترافاً من دون أن ينبث بكلمة. راح يفتش عن بريق أمل لحياته في الأرض، وإنهاض القرية من كبوتها بدلاً من أن يصحّح حياته الزوجية ممّا ألمّ بها من سوء تفاهم،

وربما من سوء معاملة. لم يأت البتة على سيرتك، كأنه سعى إلى اقتلاعك من حياته. وأنت، العائدة اليوم، ما هو السبب في رجوعك إليه؟»

فارس الساكت حتى تلك اللحظة، رفع كأس العرق احتفالاً بعودة الابنة الضالة إلى بيتها الزوجي، وبجرعة واحدة سكبها في حلقه، محوّلاً المواجهة الكاسرة بين الامرأتين إلى جوّ من الملاطفة الساخرة:

«عادت ثريا لتشن بغنائها حرباً عشوائية على العصافير، وتمنع غزوها شجرة التوت. فمن محاصيل هذه الشجرة نوت احتراف شراب التوت».

كانت سكرته قاسية، مرّة، نابعة من قلب ينزّ دماً فاسداً. قامت عن المائدة منكسرة، والدموع في عينيها:

«أشعر بأني على مفترق طرق لا أدري أيّه اتجاهي الصحيح. لم آت لأطرد العصافير، لم آت لأصبغ فمي بأحمر التوت القرمزي كلما تفرّس فيه فارس، يريد التهامه. عدت لأن الغياب حب وشوق».

لم تنتظر ردّاً. بلمحة كانت أصبحت في العرزال.

«ليلة العرزال لم تكن ذلك اللقاء الحميم بين زوجين عاشقين. لم تكن بالنسبة إلينا تلك الاستراحة من السير الطويل في المجهول. إلى هذه العلّية المعلّقة بين أرض وسماء، والتي في خلوتها اكتشفت سلمى الفتاة اليانعة، السعادة مع يونس، جئت يا ثريا،إلى معبد الحب هذا، تلتمسين من الذكريات الحلوة المعشّشة فيها، معجزةً تلملم كسورك المبعثرة. هذا ما اعترفتِ به وأنت متكمّشة

بي، تطلبين مني أن أعيد إليك إيماني بك. لكن عن أي إيمان تكلّمت، فلعلّ ما دفع بي، إلى اللحاق بك أمام نظرات جدتي العالمة بكل شيء، هو تأثيرك الخفي فيّ؛ هو هذا الحب الذي لا يستكين إلاّ ويترك بيننا تمزّقات وأسىً. فهل كان لا بد من هذا الغياب، لأدرك أني لا أستطيع العيش من دونك مهما حاولتُ أن أجد أسباباً للخلل المتأصّل فيك منذ تكوينك في رحم أمّك؟ كنتُ الفلاّح الذي تعلّم أن يشق بطن الأرض ويذرّي فيها البذور لتحيا. وكنتِ الصوت الأثيري الذي تأنسن فيّ وصار امرأة. من هذين العنصرين النقيضين تلاقينا، فكان الاندماج سريعاً بيننا، مقدّرين للحياة معاً، مقدّرين للعذاب معاً.

«أمهلني بعض الوقت للتأمل»، قلتِ. وافترقنا قبل أن يغتالنا الضجر وتبيت الألفة في فراشنا، هذا ما كنت تخشينه. وحين طال الغياب، نزعتُ هذه الحلقة التي باتت تربطك بحلقات عمري ورميتُها مع نفايات الحياة الصدئة. لكن ظلّ خيالك رصدي. كيف عساي أستقبلك الآن، وبكل بساطة وغباء أقول لك: «أحبّك».

قلمي كان أسرع من مشاعري المبلبلة، المرتبكة وهو يصف ليلة العرزال. على الورقة لم ينس أن يضع على دفتي الميزان، حياتي وتراجيديتك. هذا المسرح الذي احتوانا بعرينا الجسدي والروحي، كان لمن يعرف أن يقرأ بين السطور، حقيقتنا.

ليلة العرزال، سمعت كلماتك كملحد استنار بها ليؤمن. وكنتُ قبلها أفتعل السخرية عمداً، حتى لا يخونني قلبي ويهزمني أمام سلطة هذا الحب الذي لا ينكسر. كنتُ أنا المصاب بالانفصام ولا أدري أيّ جزأيّ إلتحق بك،

الحاقد أم المدمن على ذاكرة جسدك، بينما كنتِ أقوى منّي قدرة على جميع الأدوار. «دعنا من الأمس يا فارس ولننسَ ما مضى».

كان العناق أشبه بغارقين متلاصق أحدهما بالآخر، يتخبّطان في صراع عنيف لينجوا من الغرق، أو ليغرقا معاً في لجج حبهما.

هكذا كانت ليلة العرزال يا ثريا و لم تتكرّر. مع الشروق لم أجدك. رحلتِ، تاركةً في شراشف العرزال آثاراً من عطركِ وذات كلمة، كانت آخر ما سمعته منك «معاً إلى الأبد»، بينما باب مملكتك كان يدعوني إلى الدخول إليها ملكاً، لا مرتزقاً. كتائه فقد ذاكرته وهويّته وإيمانه، مضيتُ أبحث عنك، أبحث عنّي. ليلة العرزال، كالحلم تلاشت هذا الصباح وذراعاي فارغتان منك سوى من أوهامي. كنتُ من عرق تلك الأغنية التي كان يرندحها ماجد كلما أخذته الذكريات الحزينة إلى نسرين، فاجعته:

«أنا مَن ضيّع في الأوهام عمره».

في غرفتها كانت جدتي شاخصة أمام أيقونة العذراء تصلّي. لم تحرّك ساكناً. لم تتفاجأ برحيل ثريا من دون علم أو خبر. ظلّت حبّات المسبحة تكرج بين أصابعها حتى لا يتعطّل هذا اللقاء الصباحيّ، الروحيّ، مع أهل السماء. كأنها كانت على بيّنة بما سيحدث. اختفاء ثريا اعتبرته غياباً لن يطول، صادراً عن إنسانة ضائعة بين الواقع والخيال، لا تعرف الاستقرار.

هدوء جدّتي وتسليمها بمشيئة القدر لم ينتزعا ثريا من لحمي. انغرس شوكها فيَّ وتشرّش. وبناء لنصيحتها، وقفت تحت شجرة التوت لعلّي أسمع

غناءها. سألت كل عابر سبيل عنها. شاهين الخضرجي رآها تستقل سيارة أجرة وفي يدها حقيبة. لم يبق لي سوى الذهاب إلى البيت الذي جهّزناه معاً لسعادتنا، ومنه افترقنا. كم جارحة كلمة سعادة، كم حزين الفراق.

قرعت الباب كمن يهدّ جبلاً، فتحت روزا شقيقة ثريا، مذعورة:

«فارس؟ لماذا هذا اللبيد على الباب؟»

«أين ثريا؟»

«ما بك يا رجل؟ ثريا ذهبت البارحة مع حقيبتها لقضاء بضعة أيام معك في عين الشمس».

دخلتُ وارتميتُ على الكنبة منهكاً كعدّاء ماراتوني، عَبر أميالاً ليصل إلى هدفه. طلبت منها قدح ماء أطفئ ظمئي. وضعت يدها على قلبي وقالت:

«لعل الصدفة متاحة لنتكلّم. عن ثريا طبعاً. اجلس واسترح. أعطِ قلبك الوقت لتستكين دقاته و سأعود إليك بعد لحظة.

عادت وعلى صينية إبريق من الليموناضة، يفوح منها عطر برش الليمون وروح ماء الزهر. سكبت من هذا النكتار في كوب وقدّمته إليَّ وهي تقول:

«هذا الشراب منعش، قد يساعدك على تقبّل ما سأرويه لك».

روزا، الابنة البكر لنهلا وتوفيق معتوق، وقفت إشبينة لأختها الصغرى يوم زواجنا. لم تسنح لنا الفرصة لأن نتعارف، سوى في المناسبات القليلة التي

جمعتنا في فترة خطوبتنا و يوم زواجنا. رحلنا بعد ليلة زفافنا إلى البندقية، ومنذ ذلك الوقت لم ارَ أحداً من هذه العائلة ينير الظلمة التي بدأتُ أعيشها مع ثريا حبيبتي.

جلست قبالتي وأنا أتأمّلها، امرأة متوسّطة الجمال، بدت أثلام رقيقة حول عينيها أذبلت نضارتها منذ انفصالها عن الرجل الذي أحبّته. من ثريا علمتُ أن روزا باتت على وشك طلاقها من نديم بعدما تأكدّت من علاقته بتلميذه في معهد الفنون الجميلة. بدأ الكلام من حيث لم يكن في بالي:

«أعتذر منك يا فارس لاستباحتي هذا البيت، بيتك. دعتني ثريا لأقيم به في انتظار أن تحلّ قضيّتي مع نديم في المحكمة الروحية».

بالرغم من حسن نياتها، شعرت بطعنة في قلبي. يسكن الغريب في بيتي وأنا مطرود منه. مسحت عرقي بمحرمتي وانتظرت منها ما أنا في شوق إلى معرفته: «أين يا ترى اختفت ثريا؟».

لم أنزعج من الصمت الواقف بيننا. فما نفع السؤال الذي يؤدي إلى آخر؟ «أين ثريا؟» أسألها، فتجيبني بسؤال بت أنتظره «ألم ترها هذا الصباح؟ ألم تقل لك شيئاً؟».

الليموناضة المعطّرة ببرش الحامض كانت جواباً عن سكن روزا في بيتي. لقد تركت البيت الزوجي فلجأت إلى هنا لتتصرّف كما لو كان بيتها، بينما جئت غريباً، أطلب منها كوب ماء أطفئ به عطشي.

لمّا رأتني أهم بالانصراف، كسرت الصمت الصاخب بيننا، وقالت:

«لعلّها كعادتها، حين تفقد السيطرة على عقلها، تذهب إلى القبر تلتمس من مايا أختها التوأم، شفاعة لروحها المعذّبة».

سمعت في صدري قلبي يُنذرني بما قرأته وجيهة البصّارة على جبيني. كنت صغيراً وما زالت كلماتها محفورة في ذاكرتي. إن لم تهزني تنبؤاتها يومها، فها هو صوتها ووشمها الأزرق المدقوق على ذقنها يهدّدان توازني. قلت:

«أذكر جيداً يا روزا، ما كانت جدتي سلمى تحكيه لي عن أهوال ما عاشه اللبنانيون زمن الاحتلال التركي والفظائع التي ارتكبها العسكر ضد الفلاّحين، لكن ما أسمعه منك الآن، يفوق إدراكي. هل لثريا ماضٍ ظلّ خفيّاً عليّ؟».

«كانت تريدني أن أرافقها إلى القبر لتتقوّى بي، ثم صارت تذهب بمفردها بعد زواجي من نديم».

«اسمعي ما سأقوله. تفاجأت أمس بعودتها. لمست تغييراً إيجابيّاً لديها كأنها عادت لتستقر من هربها الدائم. العرزال المهجور من زمان، أرادت أن يضمنا بعد طول الغياب. لم يكن الموت حائماً حولها، بل كلها للحياة. نامت بين ذراعي وهي تقول لي، «معاً إلى الأبد».

كانت روزا أَعْلم بمزاج أختها مني:

«أذكر ما كانت تقول لي: أشعر بأني عابرة في هذا العالم. مكاني هناك مع مايا. إليك بنصيحتي يا فارس. أمّي وحدها في استطاعتها أن تنوّرك على كل ما

حدث لثريا منذ ولادة التوأمين. حبك لها اعتبره والداي شفاءً لهلوساتها. لمَ لا تفاتح الأهل بما حدث بينكما منذ زواجكما؟»

كانت المرّة الأولى التي أطأ فيها بيت توفيق معتوق بعد زواجي من ثريا. استمعتْ إليّ نهلا، أروي فصلاً تلو آخر من مأساة غامضة، لعلّها تنيرني بما تعرفه عن ابنتها.

«بعد ثلاث سنوات على ولادة روزا، تمّنينا أن يرزقنا الله صبياً، يحمل إسم العائلة. بعد سبعة أشهر علمت بأني سألد توأمين، فلعلّ واحداً من الطفلين يحقق أمنيتنا. كانت الولادة عسيرة، تم جزء منها على خير بالمولودة الأولى، وظل بطني في عراك مع من تبيّن أنها من جنس أختها، إلى أن سحبها الطبيب في عملية قيصرية، مهنئاً إياي بالسلامة مع كلمة أضافها، بقيت عالقة في ذهني:

«في بعض الحالات يمتص الجنين قوّته وغذاءه من توأمه، فيبدو الفرق بعد الولادة. المولودة الثانية هذه قد تحتاج إلى رعاية واهتمام أكثر من أختها».

«بين ثريا ومايا بدا الفرق بارزاً. لثريا الحيوية والذكاء، ولمايا إعاقة في الكلام والمشي. فبينما تتلقى ثريا من الحياة حلاوتها إن رقصت، إن غنّت، إن عزفت، كانت مايا في حضن والدها، يغدق عليها حناناً، أثار بلا شك غيرة ثريا من أختها المعاقة. كانت تنافسها في قلب والدهما، بينما كنا نبذل ما في وسعنا لنقرّبها من هذه الأخت التي لا تلعب معها ولا تتخاوى بها، فلا تدرك ثريا أن مايا تخفي وراء صمتها حبّاً عضوياً لها، عجزت عن التعبير عنه بكلمات.

«كبرت المأساة واتسعت بسبب زلة لسان من أمي. كانت مايا في ذلك الحين، تعاني إلتهاباً حاداً في الرئة بسبب ضعف المناعة لديها. وعن غير وعي، ردّدت بعد سبع سنوات ما قاله الطبيب يوم ولادة التوأمين:

«ثريا سلبت مايا عافيتها». لم تكن الكلمة عابرة. وبعد وفاة مايا لم نلاحظ أن إعصاراً كبيراً هزّ كيانها. كانت هي فلقة التوأم التي كتب لها الحياة. صببنا حبّنا كله لابنتينا لكن الداء راح يحفر أنفاقه في فكر ثريا.

قامت نهلا تتسكّع على أحزان هذا البيت، وعادت وفي يدها دفتر، ناولتني إيّاه قائلة:

«خذه واقرأ ما كتبته ثريا مذ أصبحت على أن تعبّر عما في فكرها بالكتابة. لقاؤها إياك غيّرها. لم تعد تعير أهميّة لكتاباتها. ظننا الزواج أراحها. بقي الدفتر هنا تحت فراشها، مخبئها. أنت أحق به الآن، لعلّ بقراءته، ينجلي الغموض الذي بت تعاني بسببه».

أخذت الدفتر والذهول يغمرني. في طريقي إلى عين الشمس، بدأ القلق المخزّن في رأسي يتبدد شيئاً فشيئاً لتحل مكانه انقشاعات، تخيّلت من خلالها نهاية النفق. استقبلتني جدتي كعادتها من غير سؤال. هي تعرف أن سؤالاً قد يجرف أسئلة، لست على وفاق مع نفسي للإجابة عنها. جلسنا إلى المائدة نأكل من بقايا مأدبة البارحة وفكري سارح في الدفتر. ماذا عساي سأقرأ؟

دفتر ثريا كان بحجم المفكرة. على الصفحة الأولى كتبت «مَن أنا؟»، عنوان، بان لي وأنا في صدد التنقل من عبارة إلى أخرى، الخيط الذي قادها في عبورها مراحل

حياتها. الخط المنمنم قرأت فيه تصميماً من ثريّا على البقاء في سن الطفولة. الدفتر صديقها تبوح له بما تأبى التعبير عنه عالياً. من الخيال و الواقع أفكار لا صلة بينها، كنقد العصافير في البداية، حين تروي ذلك اليوم من وفاة مايا:

«تأمّلتها في نعشها الأبيض قبل أن يطبق الغطاء عليها وتُحمل على الأكف إلى حيث لا رجوع. بين لوعة أمي وبكاء أختي روزا، كان والدي الأكثر فاجعة. حمل النعش الصغير على كتفه، وبصوت أبحّه الحزن قال لمن حاولوا مساعدته:

«دعوني وحدي مع مايا». وسار يخرق طريقه بين الناس.

«مايا الملاك الخالد سوف تظلّ في قلب والدي طفلة. وددت لو كنت مكانها في النعش الأبيض، فأمضي على كتفه إلى الخلود».

«قتلت مايا. لم أتذكر كيف»

من صفحة إلى أخرى صرت أمشي على خطاها:

«ماذا وراء كل هذا الخوف؟ هي الفوضى التي هزّت دماغي والغرق في لجج الجنون. وهل أكثر منهما شراسة؟

«أحمل زهوراً بيضاء لمايا، أضعها على قبرها لأستمدَّ من صمتها غفراناً لروحي المعذّبة. القبر هو المكان الوحيد للتأمل في الحياة».

«هل لاحظت مايا ونحن في بطن أمّنا أني كنت أسطو على كل الغذاء الذي كان يصل إلينا من حبل سرّتها؟ أكّدت جدتي أني السبب. لا أتذكّر».

«موزار الصغير، يدعوني إلى واحتي الخضراء، البيانو، لأجني من مقطوعته «موسيقى صغيرة لليل» تفاؤلاً بالوجود».

«الراهبة التي كانت في المدرسة تعلّمنا الغناء والسولفيج مرّة في الأسبوع، اكتشفت أن صوتي صالح للغناء».

«هل طرح موزار، يوماً على نفسه السؤال الذي لا أنفك أسأله: لماذا لم أمت صغيرة؟ فلو حدث ذلك، لكان حملني والدي على كتفه صباح الأحد، وسار بي باكياً إلى المدفن، و بكفّيه جرف التراب وغطّى به نعشي الأبيض. هل السبيل الوحيد إلى الفوز بحنان الأب أن نمضي على كتفه إلى الهناك؟»

«نعشي الصغير، خرجت منه يوم أحبّني فارس وكذّب بالحب خرافة موتي. «جسدك منحوت للحب يا ثريا». قوة خارقة كانت تقتلعني من بين ذراعيه وتعيدني طفلة إلى نعشي الأبيض».

«هل الحب الذي يغمرني به فارس، سيقهر الموت؟ غداً يوم زفافنا، سأدفن مفكّرتي في فراشي ومعها الطفلة التي كنت. لن ألعب مع الموت بعد اليوم».

أقفل فارس المفكّرة. كيف عسى إبن الأرض يفهم سرّ امرأة، و ظنّه أنها أرض كالأرض التي يحرثها، ومواسم هي كالمواسم التي يسقيها، وعطاءٌ بقدر اعتنائه بها، تدرّ عليه خيراً وهناء.

صار المشهد يتكرّر أمام عينيه. الأب يحمل نعش مايا بينما تتشوّق ثريا لأن تكون هي فيه.

«ثريا لم تنس. في استسلامها لفرح الحب كانت أنثى عطشى إلى عناقي ولا ترتوي، حتى إذا بدأنا معاً نرتقي إلى النشوة، كانت تصرخ «لا»، فنتساقط معاً كورق الخريف اليابس. الآن بت أعرف أن مايا كانت بيننا، فثمة دَينٌ لم تسدّده ثريا بموت توأمها».

قصدت جدتي، وفي قرارة نفسي أن أضعها في حقيقة ما يجري. كنت مطمئناً إلى حكمتها، واثقاً برأي امرأة مرّت في امتحانات الحياة القاسية ولم تنهزم:

«فارس، يجب أن تعلم ثريا بأن المفكرة معك، وأنك قرأتها وتمعّنت في مضمونها. هذا ما سيجعلها بعد المفاجأة، تأمن لك وتفتح قلبها للرفيق الجاهز لعبور النفق الأسود معها. رافقها إلى القبر. إذهب إليها الآن وعد معها إلى موسم القطاف. فكما قطفت التوت، وهي تغني، ستقطف العناقيد وتملأ بها السلال بالفرح ذاته. ثريا ليست ضالّة، هي في انتظارك».

لم أقرع الباب، لم آتِ محقوناً بالغضب. المفكّرة في جيبي كانت دليلي. قبل أن أراها، سمعتها تعزف رسالة بيتهوفن إلى حبيبته «إليز»، رسالتها إليّ في أثناء خطوبتنا، تلقّيتها هذا المساء بحذافير كل نوطة، تعبيراً عن شوق ممزوج بالغربة. قامت واقتربت مني كما كانت تفعل آنذاك، سوى أني لم آتِ إلى الحبيبة بباقة ورد، بل لأعيد إليها مفكّرة الوجع والقلق والضياع. غمرتها. قبّلت شفتيها وطعم التوت يهيّج ذاكرتي. بين أزرار قميصي فتّشت عن طمأنينتها وغلّت. لم تتفاجأ حين أعطيتها المفكّرة:

«ظننت أن العيش معك سينسيني آفات الطفولة. مايا معششة فيّ، أحبها وأكرهها. واقفة بيننا ما دمت لم أسدّد دَيني لها».

«وما هو هذا الدَّين يا ثريا».

«موتي. التوأمان لا ينفصلان».

ثريا، الرقيقة كزهرة الياسمين، كانت من عالم لا يمتّ إلى عالمي الفلاحي بصلة. بهذه اللغة التي يتحاكى بها الفلاحون بددتُ من حولنا شبح الموت:

«ثريا، حبيبتي، لقد أغدقت عليك الحياة بكرمها. صوتك، رقّتك، أنوثتك، ذكاؤك. كل ذلك، بدلاً من أن ينمو ويشعّ فرحاً، حوّلتِه في مفكّرتك إلى ذنوب، لا شك أنّها ناجمة عن طبيعة متأصّلة فيك للدراما. لم أنسَ ليلة الأوبرا في البندقية. أدركت، وأنت في فستانك الأسود الطويل، أنك تدخلين في مأساة غادة الكاميليا وتريدين مني أن أحبك كما أحبها عشيقها. أين كانت مايا في هذه الرحلة التي حوّلتِ فيها عسل عرسنا، إلى مرّ؟».

لم تجادل، لم تقاطعني، كانت في كوكبها، حيث لا مركبة فضائية تصلني بها:

«غداً نزور مايا في قبرها. سنصلّي ليس فقط لراحتها بل لراحتك بصورة خاصة. ثم نمضي معاً إلى بيت العقد. غداً يبدأ القطاف. أودّ ان تشاركي الرجال والنساء في عيد الكرمة.

كان لها ما تقوله:

«مكتبة ماجد مزرعاني في حاجة إلى من يديرها. أتمنى لو أتولّى مسؤولية الكتاب لأجعل هذا المكان العابق بذكرى المعلّم المثقّف، لقاءاتٍ ثقافيةً، أدبية مع الطلاّب والمعلّمين. الكتاب سيكون جسر تواصل بينهم، كما بين الغائب وبيني».

تملّكتني الدهشة. نزلت ثريا من كوكبها إلى عين الشمس، حيث الواقع الريفي المتواضع، في حاجة إلى الكتاب وسيلةً للتعبير والتفاهم. طيف ماجد شجّعها كي تتبنى هذه الرسالة.

«ابتداء من اليوم،ستكون مكتبة ماجد مزرعاني بإدارتك. كلنا في انتظارك».

الخريف هنا كلوحة انطباعية بريشة رسّام، اختار الألوان التي توحي إلى المتأمل فيها، لحظة موقّتة،على وشك الرحيل. العرائش تلطّخت أوراقها التي لم تتساقط بعد، بلون الصدأ. بساتين الزيتون، بعد أن تحرّرت من حمولتها، بهت بريق أوراقها. وكأميرة لفصل واحد، لبست الأحراج ثوب الأرجوان والذهب.

بدأ فصل جديد في حياتَي فارس وثريا. بعد أن ينهي كل منهما عمله، هو في الأرض، وهي في المكتبة، يمضيان في نزهة استجمامية، تقودهما دوماً إلى ضفة النهر؛ إلى ذلك المكان الشاهد على بداية حبهما الخجول واختبارهما القبلة الأولى. لكن، بالرغم من الهدوء الذي حلّ على حياتهما الزوجية بعد الأعاصير التي فتكت بها، ظلّ في قرارة نفس فارس حذرٌ، متيقّظ كجمر لم يرمّد، ينذر بما قد يزعزع هذا الهناء.

ماجد مزرعاني أصبح لثريا البديل عن مايا شقيقتها التوأم. تجمع باقات من شقائق النعمان والأقحوان وتذهب إلى حيث دُفن، بعيداً عن مقابر القرية. غريباً بقي، لم يحظَ سوى بكومة تراب وشاهدة من خشب السنديان، نقش عليها فارس كلمات للذاكرة: «هنا يرقد ماجد مزرعاني المعلّم». هذه الزيارة للغائب الذي ترك مكتبة ثمينة للأجيال، كانت تجد فيها ثريا تواصلاً حقيقياً مع روحه، تكلّمه على الفتاة الصغيرة القابعة في داخلها، فتشعر مع نسمة الهواء المداعبة وجهها بما يشبه العزاء. هكذا كان يحاكيها.

بانتهاء الخريف وهطول الأمطار الأولى، الواعدة بغزارتها بمواسم خير، انتعشت التربة بعد جفاف الصيف واغتسلت الأشجار من الغبار المتراكم عليها. قبيل عيد الميلاد، وبناء لرغبة ثريا، قطع فارس غصن شربين وجاء به إلى البيت لتجعل منه شجرة ميلادهما الأوّل.

«ثبوتها في بيت العقد بدأ يُطمئنني. أربعة أشهر مضت على خير، من غير نكسة، كالنكسات الأليمة التي عوّدتني عليها. لم تُبد اشتياقاً إلى الأهل، ولا إلى البيت الذي أثثناه معاً. هنا بين بيت العقد و المكتبة وجدت شبه توازن، لم أكن كفيل ديمومته. الجروح القديمة، وإن دُملت فإنها تبقى مشرّشة في النفس. تعود من مدفن ماجد وآثار البكاء في عينيها، فأعلم بأن ما احتواه رأسها من ذنوب وتخيّلات منذ طفولتها، يعود ويشتعل في حضرة الموت. فهل كنت فعلاً على قدر أن ألملم شظايا طفولتها وأرمّمها من حطام طفولتي؟ هذه القوة ما كانت لتكون لو لم أكتشف فيّ هذه الطاقة الجنونية للحب. الأفكار المقلقة التي باتت تساورني حيال

مستقبل حياتي مع ثريا، كانت تتماهى، حين نرسو بعيداً عن شقاء النهار، في فراشنا. كنّا كائنين مكرّسين للحب، نسمو في اتحاد جسدينا و روحينا إلى السلام.

«لن أنسى تلك اللحظة التي أبلغتني فيها أنها حامل. بينما كنت ألقّم نار الموقد بالحطب، وجدتي سلمى مجتهدة، تطمر رؤوس البطاطا والكستناء تحت الرماد، رأيتها شاخصة أمام النافذة، تصغي إلى سمفونية الطبيعة. قمت إليها أشاركها في افتتانها بالمشهد. قالت وعيناها متشبثتان بكل حركة:

«اسمع فارس هذه الأوركسترا الفلكيّة، التي لم يستطع فيفالدي في سمفونيته «الفصول» مجاراة الطبيعة بكل ما لديه من آلات. سنّ حواسك جيّداً لتتلقى هذه الآيات المعزوفة بين هدوء وغضب من دون أن تفقد السمفونية ذرّة من توازنها. اسمع حين تنهمر الثلوج، ساكنة، جنائزية، تغطي الأشجار بكفنها الأبيض، فيتلقاها عويل الرياح، شبيهاً بزعيق الساكسوفونات».

هل كنت على سعة من الخيال كي أقارن بين «فصول» فيفالدي ومواسم عين الشمس؟ الشتاء بعواصفه وثلوجه كان يلمّنا على بعضنا البعض لنتدفأ. هذا الدفء الذي لا يقوم على معايير محدّدة سوى غيرتنا على توازن حياتنا. هذا ما لمسته ثريا في هذا البيت الوحداني، السخي بعاطفته. أرضعتني سلمى إنتمائي إلى عائلة، وشرّشتني في أرض وهي تقول لي «فارس، هذه أرضك» وصوّنت حولي قلعة لاستقراري.

النفناف المتطاير على وقع الريح، تحوّل من نغم ناي حزين، إلى جوقة فرح:

«فارس، أنا حامل».

«فتحت النافذة ودعوت أوركسترا الطبيعة إلى الدخول. الصبي اليتيم، وجد في رحمك يا ثريا، مكاناً يلده من جديد».

من رسالة إلى أخرى كان ياتي على ذكر سناء التي غدرت بالبيت والوطن في سبيل إشعالها حرباً عشوائية ضد عدو واحد، والدها.

عدتُ، لا كمهاجر أضناه البعاد. رجوعي كان له صدى الصوت الذي فاجأني في المنام، صوت سناء، عرفته على الرغم من المسافات الزمنية التي فصلتني عنها، وهل يخفى صوت الدم؟

«عسى أن تصل إليك رسالتي بعد طول الغياب، كتبتها على الرمال المنبسطة كورقة عذراء وانتظرت رجوع الموج ليحملها إليك».

تفاجأت بهذه الرسالة الغامضة. المنامات كما ألفتها، كانت خيط اتصالي بين الأحياء والأموات. تقصدني أمي إلى بيت العقد لنتعارف. البيت شبه مهدّم، وثريا التي أحبّها فارس لصوتها الغرّيد، يصل إليّ كلامها مشلّعاً،

ممزّقاً، أفهم منه تأنيباً لاستباحتي خزانتها، ولاسيما فستانها الأسود الطويل، وبه سلبت دورها على المسرح. وسناء، أمن عالم الأحياء أتت إليّ، أم من عالم الأموات، ولم يصل خبر وفاتها إلى أهل أمّي، وخصوصاً روزا، خالتي التي ربّتنا؟

في رسالته الأخيرة وقبل أن يغتاله الموت، ألحّ عليّ بأن أبحث عن سناء في كل مخيّم وكتيبة يعلو على سطحها العلم الفلسطيني، بلا ملل، حتى العثور على «العنزة الجربى» وإعادتها إلى حظيرتها. كان هذا طلبه الأخير.

لم تبك لحظة سمعت صرير باب المدفن يتأهب لاحتضانه إلى جانب ثريا وسلمى ورفيق ويونس، هؤلاء الذين سبقوه إلى الهناك، وما بقي منهم إلاّ هي. بكت ملحاً حارقاً وهي تقرأه.

هذا العنقود الذي شاءته سلمى متراصّاً، لا تقوى عليه شدّة، لم يمنحها ما كانت ترجوه في صلواتها وزياحات درب الصليب، بل ظلّت صامدة، تشهد على حبوبه يفرفطها القَدَر، الواحدة تلو الأخرى، إلى أن هوت بدورها حين لم يعد في عروقها قطرة دم تقاوم بها. بيت العقد حرّك الحنين إلى الماضي. عادت إليه رشا وفوح الكمون واليانسون واللاوندة، ينعش ذكرياتها الطيّبة مع جدّتها وكلمة استقبلتها بها من زمان:

« الطبيعة ستفرش ألوانها على ورقتك ولن تبخل عليك بوحيها».

«لما كنت...» من هذا العنوان انطلقت في قراءة حياة هذا الوالد الأكثر توحّداً منها، إلى أن عاد العنوان يوسوس في رأسها ويحرّك هذا النصف

الضائع منها ينتظرها في خاتمة الكتاب، كقفل أوصد به الكاتب سنيّ صراعه مع الحياة و الموت.

«أعطوني ورقة وقلماً لأكتب»، هذا ما قاله حين دخل زنزانته. لا ماء يطفئ به الظلم، ولا وسادة يلقي عليها رأسه المثقل بأهوال ما حدث في ذلك النهار. ورقة وقلم.

«الكلمات، الكلمات، ليست في حاجة إلى الضوء لتكون. من ليل الخيال تولد و تترهّف إلى أن تغدو هي الضوء منير العالم. الكلمات في هذا الدفتر ستكتبني، فيأتي من بعدي من يقرأني ويتذكّرني، فمآسي الحياة لا ندرك طعمها المُرّ إلاّ حين تتخذ شكل الورقة».

مشت رشا على دروب الصفحات الشائكة، الجارحة، إلى أن تاهت عن حقيقتها. خشيت أن تسأل ذاتها عن سبب هذا الفراق بين الوالد وابنتيه، حتى لا تسمع صوت سناء الثائرة على بيتٍ لا آحاد فيه ولا أعياد، حتى لا تتذكر أن علّتها انكشفت يوم تخلّت سناء عنها. العنقود ظلّت حباته حصرماً لم يُروَ بالعطف والحنان ليحلو. كانت الذكريات تتقاطع بين الكتاب وحياتها مع ضياء العجمي الكاتب والمخرج إلذي مزّق غشاء التوحّد وأطلقها على المسرح.

في تلك الليلة، اشتعلت الصالة تصفيقاً، ورشا في فستان أمّها المخمليّ الأسود، تكلّم الغربة، مسكوبة في شخصية دورا، المرأة الأسطورية. من حنجرتها،ارتفع ما يشبه الغناء. رثاءٌ يقاطعه بين كلمة وأخرى صوتٌ أبلغ تأثيراً في أنفس الحضور من الغناء:

«ها أنا أهب روحي للظلمة، للصمت، للغياب». قالتها عشرات المرّات بينما المسرحية تتنقّل من مدينة إلى أخرى بعنوان لافت «دورا طير يغني في الليل». مسرحية الوحدة والغربة، كتبها ضياء العجمي لها. ففي تلك الليلة، كان نجمها أكثر إشعاعاً، وأداؤها حباً وناراً للذي أخرجها من علّة التوحّد إلى وحدة كونية. أخذها بين ذراعيه، يهدهد ارتعاشاتها ويُطمئن الجنون الذي كان بتفجّره من جوارحها، يلد شخصية دورا، ويجعلها طيراً يغني في الليل.

طوت ذكرياتها مع ضياء حتى لا تعود وتمتلئ به. كشحت من فكرها تلك الليلة التي دخل فيها إلى مقصورتها بعد أن فرغ المسرح من آخر مشاهد.

«أدركت وكلّي شوق إليه، أن المرأة التي أخذها بين ذراعيه، لم تكن رشا الممثلة، الحبلى بدورا حتى الطَّلْق الأخير. لقد جاء يبحث فيّ عن دورا المرأة الخيالية الكامنة فيّ.

في دخوله المفاجئ مقصورتي، كنت أمام المرآة أمسح المساحيق عن وجهي لأعود أنا. فاحت رائحة السكر منه. الوجه الآخر لضياء كان أمامي؛ الوجه الذي لم يعكرّ صفو توحّدي منذ سكناي معه، بل كان دوماً يُطمئن الخوف المعشّش فيّ. يدعوني «أوفيليا» حبيبة هاملت:

«مثلها أنت يا رشا، روح لا قشرة تصونها من التلف. سأحميك من جنون هاملت ولن تموتي غرقاً».

هذه الاستعارات أصبحت مع الوقت لغة نتكلّم بها كلّما أعياني البحث

عـن حقيقتي، فـإذا لمحني ضياء متعثرة في ظلّي، أخـذني بين ذراعيه وهدهد روعي. كنت طفلته، وكان معلّمي. عشقته سرّاً بكل ما في نفس المتوحّد من حبٍ جارف، تقف أمامه سدود من الصعب كسرها لبلوغ الضوء.

فماذا حدث بعد النجاح الهائل الذي حصده العرض السابع لـ «دورا طير يغني في الليل» وكنا على وشك الانتقال بها بعد أسبوع إلى مونريال؟ أَللنجاح فاتورة باهظة علينا تسديدها معاً؟

بعينيه المتوهّجتين كالجمر راح يتفحصني كأنه يبحث فيَّ عن شيء أضاعه. بلمحة كانت فرشاة المساحيق بيده، كأداة حادة ينحت بها وجهي، وأنا مستسلمة لفعله، إلى أن سمعته يقول:

« ها قد بلغتِ الشكل الذي أودّه يا دورا».

عمّن كان يبحث؟ ضياء الرجل الذي حضنني بروحه العالية وأخذني من يدي ليسدّد ديناً اقترفه بيَ القدر، وأنا ألبّي حلمه الغامض، استنسخ من عصارتي ألف دورا، وفي كل ليلة، دورا جديدة، مخلوقة من نار الحب والثأر والغيرة. لم أَرَه يوماً سكران. لكن في تلك اللحظة، وهو يعيد ملامح دورا عليّ، بألوان فاقعة، مكثّفة، عنيفة، ثأريّة، زرع فيّ ما يشبه البلبلة وأنا خاضعة للعبته العبثيّة، إلى أن ناداني باسمها:

«هذه الليلة تعودين إليّ». الخمرة أولته حريّة المزج بين المسرح والواقع، حتى إذا غافله وعيه من كثرة ما شرب، كانت هذه المرأة الغامضة في انتظاره. فمن سواي كان في استطاعته أن يقول عالياً على الخشبة، إن

الوجود مسرحُ الوحدة. لقد كان على يقين، يوم سمعني ألقي كلمتي في مؤسّسة المتوحّدين، متحرّرة من أغلالي، بأني كنت ملتفّة بقشرة شخصيّة نارية، ركبتها في خيالي. فهل كان حلمي أن أكونها، على الخشبة؟ هل كنت، وأنا على مسافات من عالمه، أتنبّأ لنفسي بأن أدخل ذات يوم وأنا في سكرة الدور، في طيف المرأة التي أحبها وشيّد لها مسرحاً من أجزائي المبعثرة في غربتي؟

«وهل في هذا الالتباس المفاجئ في شخصيّته، كان عليّ أن أكون فعلاً هي، وفستان أمي الأسود مرميٌّ على الأرض، وأنا بين كلاّبتين، يعتصرني ويمتص رحيقي حتى أصبحت دورا، الملغاة من حقيقتها، والواهبة روحها وجسدها لهذا الليل الطويل، وللعبة شبقيّة، شيّقة، متواصلة بين المسرح والمقصورة؟

«أصبحت دورا، أتعاطى الخمرة معه بعد كل عرض لأخرج من ذاتي فعلاً لا تمثيلاً، وأدخل في جنون هذه المرأة، أرتوي من عطشها إليه، أكتوي من ناره فيها، وأرتقي معه، في آن واحد، إلى قمة الفرح، معبّرة على تدويم اللحظة بينه وبينها. من عبق لهاثه في عنقي سمعته كمن يطلب الغفران:

«شيّدت لك مسرحاً أعيدك به إلى الحياة، تكفيراً عن خطيئتي».

بلسان سكّير أثقلت كلماته الخمرة، تلقيت بوح رثاءٍ للحبيبة الراحلة. أدركت، وكنّا ما زلنا معاً في قمة النعمة، أن جسدي المشتهى، هو جسد امرأة ميّتة».

صحت رشا من شرودها في الزمن الواقف على تلك الحقبة المثيرة من حياتها.

السيرة التي بدأ فارس كتابتها في السجن، وتابع تدوينها ذكرياتٍ، كانت في انتظار رشا على هذه الطاولة، الشاهدة على قلمها المتعثّر، يوم بدأت جدتها سلمى تملي عليها حكاية هذا البيت بحلوه ومرّه.

كان ذلك البارحة. والحفيدة راضية عما ارتأته الجدة بعفويّتها الفلاحية، الطبيعة، علاجاً للتوحّد الذي فرضه عليها القدر. فسلمى كانت على يقين بأن الحريّة وحدها كفيلة بأن تطلق سراح صغيرتها من الغل المتربّص بها، كعصفور ضاق ذرعاً من قفصه. أسلوبها السرديّ، الحرّ من أي التباس، أضاء شمسها. صارت تشعر بأمور لم يفقه بها جسدها من قبل.

في هذه المدرسة تكوّنت رشا، وصار الحلم زرعاً أخضر في صحرائها. أزرار الورد صبغت سحنتها الذابلة، وشعاع الشمس سكب بريقاً أسود، في عينيها اللتين وصفهما ضياء العجمي بعيني ذئب جائع يبحث في الليل عن طريدة.

عبرت ذكريات في خاطر رشا، تسأل ذاتها أين هي اليوم من الأمس. المتعة الحقيقية كانت القلم، الذي به سعى والدها إلى أن يكشح ظلمة السجون، فكانت الظلمة رفيقة حياته.

«إلى ثريا حبي الأبدي» الإهداء، في الصفحة الأولى من الدفتر الأزرق، سطا على نياتها. فمهما ابتعدت، فستظل غصناً من هذه الشجرة التي لعنها القدر وأيبسَ أغصانها. تخيّلت ثريا في فستانها الأسود الطويل، مشعّة بسحر إطلالتها. ثريا، المرأة التي عشقها فارس وذاق معها مرارة الحب ونيرانه الحارقة ولم يتحرّر منها.

«فارس، أنا حامل» قالت له. من شدة سعادته، شرّع النوافذ على مصراعيها، ودعا أوركسترا الطبيعة إلى الأحتفال بالحدث.

كلمة أخيرة، لم يَبرِ من بعدها قلمه ليكتب، رأت رشا فيها، جنيناً متعثّراً في نفق أسود لم يبلغ منه النور بعد:

«الصبي اليتيم وجد في رحمك يا ثريا، مكاناً يلده من جديد».

«جاء الربيع باكراً. أشجار اللوز والمشمش والخوخ أزهرت قبل أوانها. أمشي والحشيش الطري تحت قدميّ ينعش خطواتي، مرطّباً من ندى الصباح. الطبيعة

المكلّلة بالأزهار لا تتذكّر مأساة الوطن، لا الحرب المدمّرة ولا من قتلوا وخطفوا وما عادوا. هي فرشت كل هذا الاخضرار، ودعت كل الطيور المهاجرة، إلى الأحتفاء بالهاربين من الموت. على بعد بضع مئات من الكيلومترات، ما زال الدمار في المدينة والضواحي شاهداً على حرب، قالوا مرات على القنوات التلفزيونية إنها انتهت، لكن الانفجارات المدوّية على أطراف المدينة وضواحيها تكذّب الأخبار وتحذّر الناس من التوغّل في الأماكن المزروعة بالألغام.

«أمشي على حفافِ الصمت، لكن السلام الذي أتوق إليه لا يمكنه أن يرفع عن كتفيّ ثقل الموت، فلا شيء بعد اليوم في إمكانه أن يمحو من ذاكرتي والدي وسلمى، وأمي، التي بتّ أخترعها في خيالي، وأحسُّ بها تنبض فيّ كلما تدثّرت بفستانها الأسود الطويل. أحوّش من أزهار البراري باقة، أزيّن بها المدفن المتواضع المغطى بالأعشاب، لأقول في سرّي، كان لي عائلة».

عادت إلى بيت العقد، وروائحه المعششة في مسام جدرانه، لتلتحف بذكرياتها فيه.

«هنا أجلس لأكتب وأمامي بستان الزيتون. الحبوب الخضراء مكدّسة على أغصانه تحنّ إلى من كان يجعل موسم القطاف عيداً. تفضل العصافير مذاق الكرمة، تنقد العناقيد وتترك للنحل مهمات امتصاصها. مواسمي هي الكلمة، منها دفق الحياة، كينبوع لا ينضب. هذا ما قاله ضياء وأنا في هذا المعهد الخاص بالمتوحّدين في بلجيكا، ألقي على الحضور، الكلمة التي قرّرت مصيري:

«قتلت أمّي لأحيا».

حين استفقت من تيهي، كان صمت كثيف يلفّني وأنا في صراع مع نهر جارف، حتى لا أغرق. شعرت وأنا أصطك برداً، بيد تغمرني وتطمئن روعي. تقوقعت على صدره. كان هو ضياء، الكاتب والمخرج، الذي أطلق من رحم المسرح ولادتي الثانية. بثقة محلّل النفس البشرية أعطى اللجنة الفاحصة تقريراً شفهيّاً عنّي:

«لا شك في أن الكتابة لدى رشا، علاج أقوى مفعولاً من الجلسات لدى الطبيب النفساني. ما قالته، هو صراعها للبقاء، هو المفتاح الذي تمسكه بيدها لتشرّع باباً كان مقفلاً على مواهبها».

اليوم الذي قرّر فيه والدي إعادتي إلى بيت المدينة، لم يكن يتوقّع أن طلقة رصاص تدوّي من حي شعبي في بيروت، ستكون البداية لحرب طويلة، تؤجّج نارها بالأسلحة المدمّرة، مخططاتٌ جهنّمية شرذمت المدينة والضواحي إلى خلايا، تفاقمت أعدادها يوماً بعد يوم. مقاتلون مناصرين للقضيّة الفلسطينية، من أهل هذا الوطن، هبّوا من كل صوب، للدفاع عنها وتحريرها من «الغزو الصهيوني» بافتعال المجازر والخطف والتهجير على الأرض اللبنانية.

«حرب لا لشيء». عنوان هزّ كياني. إذاً، لأجل مَن، ولماذا؟ فلو لم تكن، لما كان كل هذا الموت والتهجير والدمار، ولمّا تحولت بيروت من عاصمة للسلام إلى مدينة محروقة، نبتت على حطامها أكوار حزبية، طائفية، مدسوسة من هنا وهناك، حتى تبقى نارها على أهبة الاشتعال عند أول إشارة.

«إلى عين الشمس المدرسة التي لقّنتني أبجدية الفصول ومزاج الطبيعة، عدت لأسترجع شيئاً مما كنت، سجينة الغشاء الذي وُلدت فيه، وأتذكّر يد جدّتي سلمى، كقابلة قانونية، تحاول إطلاقي من غشائي، كما كانت تساعد ميرا العنزة البيضاء في وضعها جديها.

«عدت، ليس فقط إلى وداعي الثاني والأخير لأبي، فلهذه العودة رجوع إلى البدايات، أقرأها، ولكل فصل ضوء يجلي الغموض عن طبيعته المخزّنة أشوالاً من يأس، تكلّس مع الوقت وصار صمتاً، يحارب به ثورة سناء المتأصّلة فيها، ورفضه علّتي التي لمس فيها غربة، قد أكون ورثتها عن غربة أمي. عدت لأستنير بذكرى سلمى.

«حكاية سلمى حكاية امرأة علّمتها مآسي الحياة أن تتلقى ضربات القدر بكفّين فلّعتهما شقاوة الأرض ونزوات الطبيعة، و لم تيأس. منها تعلّمت ما في عمق التربة من جذور شاهدة على أن الموت خرافة، كلّما وقفت بين أثلام الزرع، أراقب معجزة الحياة تسري الهوينى في عروق الأوراق.

«على طاولة المطبخ كنت أكتب ما تمليه عليّ من ذكريات، فتنتفض في أعماقي أحاسيس كانت غافية فوعت. سنتان، انطوتا كسنابل القمح تحت ثقل المورج، حين آن الرحيل. كان الوداع كئيباً مع الطبيعة التي حرّرتني من الغشاء الذي كنت سجينته. ارتسم المشهد في ذاكرتي حتى لا أنسى. وقفت سلمى بين القناطر تلوّح بيدها، وبالأخرى تلملم الدموع المنهمرة على هذا البيت، الذي لا يزال ينزف حزناً كلما اجتاز عتبته نعشٌ ورحيل واغتراب، بينما العصافير التي ألفت نزهاتي، اصطفّت على غصن السنديانة الهرمة تنشد لحن الفراق.

«ما إن وصلت السيّارة إلى محاذاة مدخل الحي الذي نشأت فيه، حتى تفاجأ والدي بحاجز من المسلّحين قطعوا سبل السير بالعجلات المحروقة. كانت الطريق خالية من السيّارات، سوى سيارته. طلبوا منه هويّته، ومكان سكنه. وبينما كان خاضعاً لأوامرهم، سألهم عما يجري. الجواب الذي تلقّاه كان قاطعاً:

«إشتعلت الحرب».

برشق رصاص بدأت. بين ليلة وضحاها صارت سطوح الأبنية مراصد للقناصين. والرصاص المنطلق عشوائياً من فوّهات بنادق صيد تحوّل إلى أسلحة فتّاكة، تتدفق على هذا الوطن الصغير لتفتعل فيه المجازر والدمار والتهجير. أصبح لبنان على فوّهة بركان، بينما فارس رستم يعمل على جبهتين: إرسال ابنته رشا إلى معهد خاص بالمتوحّين في بلجيكا، والعمل بما تبقى لديه من سطوة والد، على إقناع ابنته الثانية سناء بأن ولاءها لأعداء وطنها، جريمة تتعمد اقترافها بالدعايات والتظاهرات المغرضة ضده:

«ثورتك يا سناء لأشرس مفعولاً من البارود».

وجوابها يتلقّاه كسكين في قلبه:

«الفلسطيني، الطالب العلم والتنوّر، يستحق العيش الكريم في وطن يقدّر طموحاته، أكثر من ابنتك رشا التي تهدر عليها أموالاً لا طائل منها».

«رشا مجتهدة، طموحة، قادرة على التحرّر من نفقها بمساعدتي لها. هذه مسؤولية الأب تجاه كل واحدة منكما. أما أنت، يا سناء، فسرتِ في الخط

المعاكس لشقيقتك، بتحويلك كل هذا الذكاء، والعلم والاختصاص، إلى أحقاد على الوطن وعلى عائلتك. كبرياؤك كانت فاصلاً بينك وبين توأمك. سلختِها عنك حالما علمت بدائها، وتركتِها تتدبّر في عالمها المقفل بدلاً من أن تمدي لها حبك ويد المساعدة. هلا الفلسطينية كانت البديل. وفلسطين المكوّمة في المخيّمات، كانت بديلاً عن الوطن».

لن تعود بذاكرتها إلى الأمس، يوم كانت كالقطّة الصغيرة العطشى إلى حنان، تحفّ جسدها النحيل بوبر أختها وتغلّ به لتتدفّأ، بينما سناء النمرة، المتعالية على أجناس القطط، تدفع بهذه الدخيلة عنها، لتفهمها أنها عبء على حياتها.

بعد وفاة ثريا، أخذت روزا المبادرة للعناية بالتوأمين، ليس فقط للحلول مكان الأم الغائبة، وإزاحة العبء الكبير عن كاهل فارس. بترددها يومياً على بيت أختها لهذه المهمة العاطفية والإنسانية، كانت تحاول أن تنسى زواجها الفاشل من نديم حاتم، وقصّة طلاقهما بعد أشهر قليلة من زواجهما. موت ثريا أنقذها من الغرق. شدّها من يدها لتقوم فوراً إلى الطفلتين وترضعهما عطفاً وطمأنينة. لملمت نثرات قلبها ومضت إلى مدرسة الأمومة تستعير من ثريا الراحلة رحماً، تتعلّم منه أن تكون ولو شبه أم، لم يقدّر لها أن تكونها. فهل بحضورها الموقّت على الثواني لملء فجوة الغياب، استطاعت أن تكون رسولة سلام ومحبة لفارس الذي دخل نفقاً ما بعده ضوء؟

برفضه موت ثريا، لم يكتم فارس رفضه للبنتين. غرقه في قعر الفاجعة، جعله كمختل، يصوّب عليهما أصابع الاتهام، لا بموت الأم بقدر ما شعر

بهما خصمين لدودين، حرماه من المرأة التي أحبّها كالأرض، وبموتها صارت سنابله قشاً في بيدر مهجور. بينما صارت نهلا بصلواتها تتمنى لو تحلّ روزا مكان أختها في حياة فارس، وبعطفها تعيد إلى البيت الذي زعزعه الموت، ركيزته. رضيعتان لا تنفكان عن البكاء مهما حاولت نهلا بشتى وسائلها التخفيف عنهما إلى أن تولّت روزا حضانتهما. هي تلك الأغنية التي كانت ثريا تغنيها أثناء حملها ويدها على بطنها المكوّر، تهدهد بنغمها الطفل المعشّش في أحشائها، التي وجدت فيها روزا وصفة سحرية تهدئ بكاء الطفلتين. توقّفت ثريا عن الغناء وظلّت الأغنية عالقة في بال روزا بلحنها العذب وصفاء صوت أختها، ما أن تعلو بها حتى يعمّ السلام في الغرفة الوردية. لكن ما لم تفقهه نهلا معتوق، هو أن ثريا تركت، برحيلها المبكر، جذعاً يابساً لا يصلح حتى حطباً للتدفئة. ففارس دخل في زمن الصمت، لا يعكّره سوى صوت الآلة الكاتبة التي أصبحت بديلاً عن القلم. يكتب لا ليمحو وجه الموت الذي شحتر البيت بسواده، يكتب حتى تبقى صورة ثريا في ذاكرته، بحذافير الأيام القليلة التي عاشاها معاً؛ بعناقيدها الحامضة والحلوة.

بقراءتها، والكلمات منهمرة على الورقة كالبكاء، صارت رشا تكتشف، لا وجه الأم التي لم تعرفها، بل شخصية رجل عاشق، كسره الفراق فشكا إلى الورقة حزنه:

«صمتك يستثير هبوب الأعاصير فيَّ. غيابك لفّني بكفنك، حتى أضحيت كحصى مبعثرة في الصحراء. أسرعتِ في الرحيل يا ثريا والحب كان لا يزال

في موقدنا مشتعلاً، أتعمّد فيك ليتسع إيماني بالله. من أرض الفلاحة اقتلعتني وصوتك ينيرني إليك، حتى أضحينا واحداً في جسدين مكرّسين للحب».

تسأل رشا نفسها:

«من تكون ثريا، هذه الملهمة التي يعمد فارس على إحياء ذكراها في هذا الكم الذي لا ينضب من الكتابة، و كأن دمها الذي نزف في أثناء ولادتنا، دمه، تواصل القراءة وطعم الدم في فمها:

«أنظري إليّ كيف اغتالني النسيان، فذاكرتي بك تهدر دماً، هو دمك. فهل أنسى يدك المتكمّشة بيدي، لنتشارك معاً في آلام الولادة كما أردتِ، لحظة بدأت تتلاشى من يدي، بينما عيناك الغائرتان في الليل، تقولان لي كم سيكون ليلي من دونك، طويلاً؟».

حين علمت ثريا أنها حبلى بتوأمين خشيت أن يتكرّر في بطنها ما حدث في بطن أمها. صراع بين عدوين، والأقوى منهما يأتي إلى الحياة وفي يده شارة النصر. في الأشهر الأخيرة من الحمل، نقص مخزون الحديد في دمها، وبدا الشحوب على سحنتها. ولما قربت ساعة الولادة، أوصت فارس بالولدين:

«لن أكون معهما لأعدل بينهما. كن أنت ميزان عدل بين القوي منهما والضعيف».

حين تنتهي الأغنية، ويعمّ شبه سلام في الغرفة الوردية، كانت روزا، بالخفاء عن كبريائها المهدورة، تعود إلى صور عرسها، الشاهدة على

مغامرة بطولية خاضتها بكل ما في حبها لنديم حاتم من تحدّيات، للظفر بهذا الطائر النادر.

الصبية في فستانها الأبيض وابتسامتها المشرقة، بدت لها إنسانة غريبة عنها. فبين مربية لطفلتين لم تلدهما من رحمها، ويوم عرسها، زمن مضى. هذه المسافة جعلت حكمها من صورة إلى أخرى أكثر إيجابية وتحليلاً مما كانت عليه وهي في فستان النصر، مسرعة إلى تحقيق حلم طائش، على إيقاع دقات قلبها، من دون أن تسخّر عقلها للتنقيب في سر كل هذا المثال.

إلى رشا العائدة إلى البيت بعد غياب، في فستان الحداد على والدها، تتفقّد ذكريات معششة في حناياه، كانت الفرصة متاحة لهذه الخالة لأن تستعيد قصة لم تبارح ذاكرتها:

«اعتزازي أمام صديقاتي بالفوز بنديم يوم زفافي، لم يدم. أحببته من غير أن يبالي بمشاعري نحوه. كان في نظري كائناً مميّزاً عن سائر الرفاق، بعيد المنال ولم أيأس، بل أقول في سرّي، هو، ولا أحد سواه. كنت ألاحظ تصرّفاته المعتدلة مع الفتيات، حين كنا نلتقي في سهرة أو في نزهة بحريّة. لا يعير أياً منهن اهتماماً، فأعزو ذلك إلى طبيعته المتشاوفة من دون أن أعدل عن دفق مشاعري نحوه.

«حبّي الجارف له صار هاجساً، أطارده بجميع الوسائل فأراه يهرب مني، حتى إذا بدأت الشائعات تحاصره في عمله ومجتمعه، فكّر في روزا المتيّمة به، حلاً. زوجة له أمام الناس تكون له غطاءً يحمي به طبيعته الشاذة التي صارحني بها بعدما صرنا زوجين،و لن يساوم عليها.

الحلم سقط غباراً يوم اكتشفتُ زين في فراشنا».

لم تكد تبوح بسر حياتها حتى لاحظت زوغاناً في عيني رشا، وتلاشياً أوقعها أرضاً. طفت على شفتيها رغوة بيضاء مصحوبة بكلمات متقطّعة، بانت لروزا أنها تكلّم زين. جمدت في مكانها. رشا دخلت في عالم الغيب، تكمّل ما حدث.

«كان فكري عاجزاً عن ترجمة ما حدث».

شيئاً فشيئاً بدأت نوبة الصرع تنحسر إلى أن استعادت رشا وعيها. استقامت بعياء في مقعدها، تشكو من ألم في صدغيها. أتتها روزا بكوب ماء وقرص مسكّن وجلست قربها صامتة، تترصّد حركة منها، إيماءة، قد تهديها إلى ما يجول في أعماقها. من داء التوحد اللاجم فضولها للوجود، عادت بعد سنوات إقامتها في بلجيكا، كائنةً أخرى، مولودة من عصب المسرح وغرائبه. في استقبالها لها كانت مفاجأتها الأولى. الواقفة على عتبة البيت، بانت لها كالرؤية الموجعة، نسخة عن ثريا، قامةً وحُسناً. إضطربت في سرّها وعصر قلبها غيرةً، وبظاهرها الكاذب هفّت إلى العائدة تغمرها بالقبلات و كلمات الشوق. البيت، تذكّرته رشا، لا شمس تشرق عليه من نوافذه المقفلة دوماً. صارت ترى ما لم تقشعه طفولتها المعرقلة في خيوط التوحّد.

«هو، هذا البيت الذي كنت مشتاقة إلى العودة إليه لأفكّ حصاري ولو موقّتاً من المسرح، أجل يا روزا، المسرح».

لم تنسَ روزا، الطفلة الجامدة في مكانها، تنظر في اتجاه واحد، ولا تردّ عليها حين تكلّمها. لم تنسَ سناء الزائغة كزرقطة لا تستقرّ مكاناً. لا تطلب رشا شيئاً، وسناء لا يرضيها شيء. أخذتها الذاكرة إلى تلك المرحلة العصيبة التي تولّت فيها تربيتهما. ماذا حدث في معهد المتوحّدين في بلجيكا حتى انقلب ذلك الصمت المفجع وصار صراخاً كونياً؟ الجالسة أمامها على سجادة أرض الغرفة الوردية، إنسانة غريبة عن عالمها الرتيب، جاءت إليها من البعيد لتكشح عنها ضجر الحياة، وتقصّ عليها تجربتها مع المسرح، وتعمّقها المثير في هذا الاختبار العجيب الذي نشلها من الصمت إلى الكلام.

«المسرح كان ولادتي الثانية. مرغمةً خرجت من غشائي الواقي، لأغدو بين كفّي ضياء، دمية، يعيد كل مساء جبلها من طينة دورا الغامضة، حتى بتّ هي، ما إن أدخل في حزمة الضوء السحرية، حتى أعيد رسمها في أذهان الجمهور، أسطورة موشّحة بثوب أمي الأسود الطويل، أُحييها بدمي وعرقي حتى لا تموت».

«وما حكاية هذا اللحن الصادح باستمرار من حنجرتك، كأوركسترا بكامل آلاتها؟».

«على موسيقى بوليرو رافيل، كان دخولي هذا العالم الرؤيوي، سجينة غلالة ضوئية، تقودني إلى وسط الخشبة. الموسيقى تلتف حول جسدي كثعبان ناري، فتحوّلني إلى كتلة شهب. على نغم «التام تام» أصغي من أعماقي إلى تراجيديا دورا، أتلقاها قشعريراتٍ لجوجةً، ملحاحة، متشنّجة، عنيفة، لا تطاق. صوت دورا يعلو مني في الموازين الأخيرة للبوليرو، ليكسر الغموض:

«أنت الذي شيّدتَ لي مساحة كونية بين البشر والأرواح العائمة حولي، أعبر في حقول ملغومة لعلّي أبلغ نقطة الصفر حيث كياني... وموتي»، حتى إذا انسدلت الستارة على هذا المشهد وعلا التصفيق، كنت أعود إلى قدري المغزول في شرنقتي، أتقوقع فيه وكلّي اشتياق إلى ما كنت، إلى الصمت المخيّم في هذا البيت، إلى هذه الخالة التي ربّتني مع أختي. روزا، أنت الوحيدة الآن، القادرة على أن تتذكّري الطفلة التي كنت، والأسباب التي جعلت سناء ترفضني وتسخر مني أمام صديقتها هلا. كم أحتاج إليها الآن وقد أصبحت على قدر من الوعي يسمح لي بتبادل عادل معها.

هل كانت روزا آنذاك، على قدر أن تغوص في عالم الانطوائي المجهول؟ وفي تلك الأثناء من ولادة التوأمين، كانت تجرّ ذيول الخيبة والأسى من زواج لم يمض عليه أشهر حتى ظهر دخانه الأسود، وبدأت الألسن المغرضة تصنع منه فضيحة الموسم في المجلات الرخيصة؟

«كانت ثريا مخطوبة إلى فارس، أنتظر رجوعها من مواعيدها معه، لأتيه في عالمها السرّي. كان البيانو بوحها. تجلس إلى ملامسه وتبدأ أصابعها على كل نوطة تعبير عن مشاعرها. هكذا صرت أتلهّف إلى قراءة مضمون رسالة مفعمة بأحاسيس أختي. لم أكن على قدر سحر ثريا وصوتها الغرّيد. كنت أسمع عمّاتي يقارنَّ بين أنوثتها الآسرة وذكوريتي الموروثة من جب آل معتوق، الذي اشتهر رجاله زمن الحكم العثماني بالفروسية والشجاعة. كنت منهم.

«وهذا الزواج الذي لم يدم؟»، تسألني رشا، وألبوم صور زواجي من نديم، بين يديها، تتمعن في كل صورة كأنها تستقصي السبب الذي أدى إلى فشله.

«كنت ذلك الأعمى الذي أحب عصفوراً لا لغنائه بل لألوانه. هكذا كنت. أفضّل ألا أرى وألاّ أسمع ما يشاع عنه، عن علاقات أكثر من ودّية بخبراء في الهندسة الداخلية. نجاحه لم يتوقف فقط على اجتهاده وشغفه بالمادة التي شاء أن يتخصّص بها ويبرع فيها، بل كان على ثقة بأن جاذبيته وابتسامته المثيرة، ورقتان رابحتان في علامات الأمتحانات. ففي سنته الرابعة لمع اسمه في الأكاديمية. المجسّمات والتصاميم التي كان ينفّذها أصبحت نماذج يحتذي بها الطلاب في أثناء فترة عرضها».

ويحوم سؤال رشا في رأس روزا ملحاحاَ، لجوجاً كما بوليرو رافيل، الذي غيّر حياتها:

«هل موت ثريا كان فاعلاً في تفوّقك على صدمة زواجك من نديم؟»

سؤال لم تكن روزا تنتظره من رشا في هذا اللقاء الأول بينهما بعد سنوات الحرب.

«ما بقي في بيدري من هذا السنين، قشٌ، يترك في السهل تربة عقيمة لا تصلح لبذار جديد. في ابتعاد سناء عني، وبالرغم من إطلالاتها النادرة، كلّما تسنى لها العبور خفية على خطوط التماس، فأشتمّ من عناقها رائحة الجائع إلى لقمة حنان، تعود بعدها مسرعة إلى ثورتها الداخلية، تؤجّجها

في حربها العلنية على الوطن، بينما كنت أنتظر رجوعك إلى هذا «الرحم» المستعار، الذي تفوّق على أناتوميتي. الفاجعة التي دمّرت أسس البيت برحيل أختي، جعلتني أعي ما حلّ بنا. تخطّيت عقم زواجي من نديم حين شعرت بطلق عجيب في كلّي. كنت جاهزة لأن ألدكما من قلبي. أغنية النجمة الواقفة على جبين الليل، والتي كانت ثريا تغنيها بشدوها العذب، لتهدئة الصراع القائم بينكما في أحشائها، اختبرتها بصوتي فكان مفعولها العجيب، المسكّن الوحيد لبكائكما».

ارتمت رشا في حضن خالتها، تطلب منها أغنية أمّها. لكن، قبل أن تباشر روزا بما بقي من هذه الأغنية في فكرها، سارعت رشا إلى دوزنة ثغرات من لحن عالق، لم تعد تعرف في أي مرحلة من أشهر عمرها الجنيني، اتخذ سكنه فيها: أفي مرحلة التكوين أم في ما بعد الولادة. تملّكت الدهشة، الخالة، وهي تراقب رشا في إصرارها العنيد على اكتشاف مصدر اللحن. في أي زمن من الأزمنة دخل قنوات ذاكرتها؟ صارت الأفكار تمرجحها:

«لا شك في أن رشا كائن يمتّ إلى عالم رؤيوي، سقط سهواً في عالمنا الرتيب. أفيكون ضياء العجمي من فصيلتها يوم أدرك أنها الملهمة التي طالما بحث عنها لتكون دورا؟».

لم تنسَ روزا السنوات الطوال التي تابعت فيها نموّ رشا المتعثّر في قضبان انطوائيتها. لم تكن الطفلة تعير اهتماماً لأي شيء، في تلك السن المبكرة التي تبدأ فيها حواس الولد تتفتح على الدنيا. قطة منتوفة من وبرها تبحث في وبر أختها عما يقيها من البرد. وحده دفتر الرسم وأقلام التلوين عالمها.

أشجار بلا أوراق. وجوه بلا أعين. بيوت بلا نوافذ. هكذا كان يتراءى لها عالمها مبتوراً من حركة الحياة. أعادتها الغربة كائنة أخرى، إذ ثمة من راهن على كنز مدفون في داخلها، نبشه وأطلقه على المسرح، وبفضله كانت ولادتها الثانية.

فمن هو ضياء العجمي، الرجل الذي وصفته في رسائلها بالمعلّم الذي روحن الجماد المتأصّل في حناياها؟

كان المعهد يدعوه، لاختصاصه في المسرح، إلى كل امتحان يعدّه لطلابه. وفي كل امتحان كان يصوّب إصبعه إلى رشا:

«رشا فتاة مؤهّلة لكتابة التراجيديا. هذا ما لمسته في كل مرّة دعاني فيها المعهد كي أكون عضواً في هذه اللجنة المنذورة للتنقيب في عمق كل متوحّد، والسعي إلى سبر آفاق مغمورة لديه».

في السنة الرابعة شاء هذا المعهد النموذجي، أن يكون للامتحان هيبة الاحتفال بالمواهب. غصّت الصالة بالأهل والمربّين والاختصاصيين بعلم النفس، جاؤوا من كل صوب، يستقون دروساً من النتائج التي أحرزها المتوحّدون، كل في ميوله وحدسه. العملاق الأسود، كان حاضراً كعادته، وفيّاً لرسالته.

«اسمي الذي لم يكن منقوشاً في دماغي حتى ذلك الوقت، حرّكني حين نادوني به. كان لي علّة فصار لي اسم. وقفت متدثّرة بفستان أمي الأسود الطويل، أبوح بسرٍ كان مخزّناً، فأطلقته في اتجاه واحد، ضياء العجمي:

«اسمعوني! أنا قتلت أمي لأجل أن أحيا. الخيوط المسيّجة حرّيتي، عقابي. سوف أعود إلى رحم أمي وأطلق سراحي منه بولادتي الثانية، بحيث تكون لي الحياة التي أستحقها».

«الصمت الذي عمّ الصالة، سمعت رشا دوّيه يزلزل أطرافها، ويعوقها عن الحركة إلى أن سمعته يشق الجمود الذي أصاب القاعة ويقول:

بهذا البوح الكوني لمست رشا ابنة العشرين، ميتولوجيا الموت».

المتقوقعة في حضن خالتها رجعت سنواتٍ إلى الوراء، تستفقد بين ذراعي روزا أشلاءً مما تركته وراءها في ذلك الحين، حين قرّر والدها أن مكانها ليس في هذا الحضن العطوف الذي لم يُنذر مع السنين بتقدّم ما. بانتقالها إلى المعهد الخاص بالمتوحّدين، لم يكن اقتلاعها من حنان خالتها مأساوياً بقدر ما عاشته روزا اقتلاعاً من رحم فَرَضيّ، ابتكرَته بوفاة أختها لتسقي به أحشاءها الجافة. وها هي رشا تعود إليه طفلةً، أيقظت الغربة ما كان غافياً. الأغنية عادت تلقائياً، حالما وضعت إبهامها في فمها وأخذت بنهم تمتصّه بديلاً عن الثدي الذي حُرمت منه.

لم تحرّك روزا ساكناً. تركت دولاب الزمن يدور بهما إلى الوراء. أمور كثيرة كانت تجهلها عن ماضي فارس إلى أن صارت تقرأها خواطر ملأ بها دفتره، يوم قرّرت أن تعيد إلى البيت المهجور، حياته، لتستقبل فيه رشا العائدة لوداعه. أعادت الأغنية مرات، وصغيرتها غافية في حضنها ترضع إبهامها بنشوة رضيع غمرته الحياة بطيبتها. تراءى لها فارس طيفاً يجرّ أذيال حزن

أبدي، وطعم الرماد في فمه. مات من دون أن يمنحه الموت المأذونية ليرى رشا، مولودةً كونية من رحم المسرح.

ماذا عرفت روزا عن فارس سوى ذلك العاشق المجنون بأختها ثريا. أحبّها لصوتها، لسحرها. عشقها بطبيعتها المتقلّبة، بساديّتها وغموضها. «مذكرات سجين» التي كتبها في عتمة السجن متَّهماً بريئاً بمقتل معلّمه، أهداها إلى هذه الحبيبة. أمّا الخواطر، التي كانت رفيقته اليومية، فإكتشفت في قراءتها كائناً غامضاً، قست عليه الحياة، فمضى إلى كائنات السماء يتحاور معها لعجزه عن التفاهم مع الأرضيين، ويتلقى منها إشارات.

ما لم تحكه للطفلة النائمة في حضنها، أن والدها، بمصرعه، أضاف إلى كتاب القَدَر الأسود الذي عليه انبنت حياتها، فاجعةً لا تقل شراسة عن موت أمها. ففي ذلك اليوم الذي لقي فيه فارس حتفه على خط التماس من قنّاصٍ جعل سطوح الأبنية تسليته بأرواح المارّة، كان مستقلاً سيارة أجرة في طريقه إلى المطار. لم يتردد ثانية في تلبية دعوة ابنته إلى مشاهدتها في مسرحية «دورا طير يغني في الليل»، على مسرح أفينيون في فرنسا. الرسالة هزّت كيانه بالكلمات القليلة التي أرفقت بها بطاقة الدعوة:

«لولا حسُّك الأبوي، لما كنت ما أصبحت عليه الآن. تعالَ واجلس بين الناس لأستنير بك».

رشا رستم... هذا الأسم الناتئ في أعلى البطاقة، قرأه للمرّة الأولى، «رشا»... تاه في الذكريات الأليمة، يتذكّر الطفلة المنكمشة في عالمها

الغامض، المحمية بصمتها، الحاملة في ضلوعها الرخصة جريمة موت أمها، وها هي على المسارح العالمية تفكّ ارتباطها بالفتاة التي كانت، لتغدو كل مساء امرأة أسطورية من ضلع المسرح.

تركتها غافية، تفتح الباب على طفولتها لعلّها تتذكّر ملامح الطفلة التي كانت، بينما صوت رشا في خيالها، تسمعه هذه المرّة، صادحاً في فلك المسرح:

«اسمعوني! أنا قتلت أمي وأبي».

أبعدت الصوت الجريح عن فكرها حتى لا تُقلق نوم الطفلة، بينما ملحمة العائلة الهوميرية تعبر بتفاصيلها على شاشة ذكرياتها. صحوة رشا أعادتها إلى الغرفة الوردية. كان الزمن ملبدّاً، تودّ أن تكشح كل هذا الضباب الذي أغرقها في ميوعته كي تسمعها تروي لها المنام:

«أشكرك لأنك أعدتني إلى حضنك. نمت وحلمت بأمي. هي المرّة الأولى التي أرى فيها ثريا في نومي، واقفة على المسرح في فستانها الأسود الطويل الذي جعلت منه تعويذتي ولباسي التمثيلي. كنت جمهورها. نظرت إليّ وصوتها كالغناء ينسكب فيّ، قالت:

«أبحث عن مكان لي ولا أجده. لقد مللت التيه في أرض الغربة».

دارت في الغرفة ترمق الصور المرصوفة على الرف، تتمعّن فيها، كأنها تريد أن تبني مع الوجوه الجامدة في أطرها، علاقةً. عادت إليّ وفي نفسها ما تودّ التعبير عنه:

«العزلة الكبرى ليست في القبور فقط، حيث أمي ووالدي وجدتي سلمى. لقد اكتشفتها في المارّة، وحيثما أقف لأسأل عن سناء، في الجامعة الأميركية، حيث علّمت، وتركت على اللوح الأسود نظريةً من ثورتها، وأسأل عن هلا بوري صديقتها الفلسطينية التي لأجلها تخلّت عني، لعلّي من خلالها أصل إلى أختي. لم يعد أحد يعرف أو يتذكر. مشيت في الطرقات، وما رأيت سوى أشباحٍ تائهة. ما زال كابوس الحرب معشّشاً في ضلوعهم. توغّلت في المخيّمات وصورتها في كفي أفتحها علّهم يتذكرون الوجه الذي حارب في صفوفهم. لا، لم يتذكر سناء أحدٌ. على عتبة تخشيبة جلست إلى جانب شاب مبتور الساق، وكلّمته عليها، أجابني:

«الذين استشهدوا في هذه الحرب اللعينة طالت أعدادهم مئات الآلاف، فكيف عساي أتذكرهم، وقد كتب لكل كائن تجنّد للقتال من أجل أوهام قذرة، أن يُقتل حلمُه قبل أن يتنعّم به. هذا أنا، أعيش عزلة لا خروج لي منها. زُججت في حرب كاذبة. لم أقاتل، إذ لم يكن لدي هدفٌ مقنع لأقتل أخي الإنسان. وهل قضيتي كانت هنا، على أرض لبنان؟»

«أنا أبحث عن أختي سناء، عن هلا صديقتها، عن ماهر الشاب الذي أحبته وأهدته أطروحتها الجامعية عن أطفال فلسطين. وأنت عمَّ تبحث الآن؟»

«عن براءتي الضائعة. عن نصفي الذي فقدته تحت الركام. أكتب. الكلمات لم تمت في مجزرة صبرا وشاتيلا. شاهدة هي على صراخ النساء والأطفال، رائحة الدم في أنفاسي. لست محمود درويش الذي تستثيره ذكرى رائحة

قهوة أمه في قصائده. أنا هنا على هذه العتبة القذرة، ملطّخ بدم أخوتي؛ ملطّخ حتى يوم الدينونة بدماء الأبرياء الذين قتلهم البغض في لحظة من الجنون. فما حدث ليس البارحة ولا غداً، هو هذا الحاضر، اللجوج في ذاكرة ميت- حي».

«وأنتِ؟ سألني، من أنتِ؟»

«أنا رشا. المسرح مكاني وعيادتي ودوائي. أريد أن أعرف ما حلّ بأختي».

قام يستند على عصاته وعاد وفي يده رزمة أوراق:

«خذيها واقرئيها كعمل مسرحي، عنّت في بالي كتابتها حين صرت أرى الأموات في مناماتي، يتنزّهون في سهول خضراء، يتكلّمون، يتسايرون في أمور ليست من هذا العالم. في كل فقرة حوار مع ميت من الأموات - الأحياء. وعلى الرغم منة هشاش الحوار، فإنه يدعم هيكلية المكان، ويمنعه من السقوط ركاماً».

قلت في سرّي، هذا نص يتآلف مع سوريالية ضياء وأسلوبه في طبخه واقع الوجود على نار الأساطير.

أخذت رزمة الأوراق المربوطة بخيط، ووعدي أن أعود إليه بعد أن أكون استكملت بحثي عن سناء، شقيقتي.

قال: «اعتبريها في عداد الأموات - الأحياء. لعلك في قراءتك هذا النص تجدين ما تتساءلين عنه في شخصية هذه المتمرّدة».

كنت على حافة هاوية بين اليقظة والمنام، وصوت الشاب يأتيني من مكان بعيد. صرت أسمع صراخ رجال وعويل نساء إلى أن اقتربوا من حيث كنت، ودويُّ الراجمات يطاردهم. لم أدر كم طالت غيبوبتي، إلى أن شعرت بأنفاس امرأة تلفحني وتحاول بأصابعها إسعافي بتحرير لساني العالق بين فكيّ. كنت أنا، تلك الحيّة- الميّتة، التي تكلّم عليها منذ هنيهات، الشاب المبتور الساق. اقترب صوته مني:

«جاءت تبحث عن شقيقتها، سناء رستم، الصبيّة المثقّفة التي أضاءت على بؤس المخيّمات في أطروحة جامعية، نالت عليها تهنئة قيّمة من ياسر عرفات. فتاة ثائرة، متمرّدة، تركت عائلتها وانخرطت في العمل الفدائي بهدف إيصال أصوات أطفال المخيّمات إلى العالم، من دون أن تفقه، هذه المنذورة للأعمال الإنسانية، أن صوتها، ولو ببدلة القتال التي كانت تعتزّ بها، لن يعلو فوق أصوات الراجمات والمدافع الملعلعة من كل صوب».

حاولتُ بجهد أن أفك رباط لساني لأستوضح ما يعرفه عن سناء:

«كنّا رفاقاً منذ سنوات الجامعة ولم نعد نفترق، بل صرنا مع اشتعال الحرب أكثر إلتئاماً،هلا وسناء، ماهر وأنا. مقاومتنا كانت مختلفة عن المخطّط الجهنمي، المدمّر. وصفه كل من جاء لينضم إلى صوتنا، ولم يطل به البقاء معنا، بالاجتهاد «الأوتوبي» العقيم، إذ لم يكن شعارنا تحرير فلسطين على أرض لبنان، ولا الاستيلاء على البلد كما فعلت إسرائيل بالشعب الفلسطيني، كنا نريد أن تتشابك الأيدي لبناء غد أفضل، نحققه بالسلم، لا بقوة السلاح. المناشير، التي صرنا نوزّعها،

كانت مكتوبة بخط أطفال المخيّمات، «الكتاب والقلم والدفتر أسوة بأطفال لبنان». لكن المخطّط الصهيوني كان يريد غير ذلك. المجزرة الرهيبة التي افتعلها شارون وجنوده في هذا المخيّم، حصدت العشرات من أهله، وصمة في تاريخ الحرب اللبنانية، كما مجزرة الدامور التي سبقتها بست سنوات. رأيت، وأنا مضّرج بدمائي، رفاق دربي يلفظون أنفاسهم الأخيرة وليس من مسعف لهم سوى الموت. ها أنت هنا، تسألين عن صبيّة مقدامة، ارتفع صوتها أعلى من أصوات أهل المخيّمات. كنا نحن الأربعة،المنبوذين، المعادين للقضية، لكوننا رفضنا هذه الحرب الضروس التي تركت رماداً أسود لن يزيله الوقت من نفوس من فقدوا أولادهم وبيوتهم ورجاءهم. بين اللبنانيين والفلسطينيين بحرٌ من الدماء لن تجففّه الذاكرة».

كان السأم من كلامه، بادياً على وجوه الجالسين، إلى أن استنفر أحدهم بعدما عال صبره:

«اخرس يا جهاد، ألم تنسَ بعدُ أن مناشيرك أنت ورفاقك، المناهضة للثورة المقدسة، بلبلت مسار الراجمات والقنابل؟ ثورتكم البلهاء المعاكسة لثورتنا، ارتدّت مفاعيلها على المخيّم وأهله؟ يا أيّها المسيح الدجّال الذي نادى بالمحبّة والسلام والأخوّة على حساب أخوته، مجنوناً كنت ومجنوناً ستبقى».

استعدت وعيي بينما المتحلّقون حولي يتراشقون بحصى الغضب المتغلغل في نفوسهم. سمعتهم يتكلّمون لغة حرب، وبقاء، مختلفة عما رواه لي والدي:

«لن نموت مهما فعلت الدول المتكاتفة مع إسرائيل لإبادتنا. مجزرة دير ياسين كانت البداية لهذا المخطط الدولي الجهنّمي، وما تبعه من تطهير إثني. الشعب الفلسطيني يا جهاد، إن لم يبقَ منه سوى محمود درويش واحد، سيظلّ ذلك الوشم في ضمير التاريخ».

اتخذت مكاني كإنسان له حق المشاركة في جدال، مبقورة فيه الجروح الأليمة، نازفة أبداً لا تندمل:

«جئت أسأل عن شقيقتي. تلك هي وصيّة والدي. سناء نذرت اجتهادها وإنسانيتها لأطفال المخيّمات الفلسطينية، تشي من خلال أطروحتها الجامعية عن همجية الأمم التي تغضّ ضمائرها منذ عقود عن حق العودة إلى الديار. سناء انسلخت عني أوّلاً، أنا توأمها، حين علمت بأني مصابة بداء التوحّد. نبذتني و كنت في أشد الحاجة إليها، فكانت هلا بوري، الفتاة الفلسطينية، بديلاً عني. ثم افترقت عن عائلتها لتتبنى عائلة هلا ببؤسها وحرمانها، بديلاً عن البيت الذي ربّاها وعلّمها. الأم التي حُرمت إياها عند ولادتنا، وجدتها لدى أم هلا.

«كم أنا حزينة بينكم، جئت أسال عن سناء، فإذا بالسؤال يتحوّل إلى رجاء. في أي حفرة رُمي جثمانها؟ فوعدي لوالدي هو أن أعيدها إلى بلدتها، حيّةً أم ميتة. الآن، وقد علمت منك يا جهاد، بأن الموت لم يفصل بينها وبين ماهر الذي أهدته اطروحتها «العلقم في أفواه أطفال فلسطين»، ظلّت في بالي كلمة الأهداء: «أنت من جعلت من مساحة جسدك وطناً»، الآن بات عليّ أن أتخذ قراراً جريئاً، وحدهم أرباب الميتولوجيات قادرون على اتخاذها. فهل أعود من دونها، وأتركها في الغربة التي اختارتها؟»

«إسمعي يا رشا، كان الجزارون ممعنين قتلاً وتشنيعاً بأهل المخيّم، حين سمعتُ سناء على مقربة مني تحاكي ماهر. كنت مصاباً برجلي، وعاجزاً عن القيام بحركة. رأيتها تزحف إليه والدم ينزف من صدرها. اندمج دمها في دمه وهي تقبّله. كلمات قليلة قالتها قبل أن تهوي إلى جانبه:

«أقسمت أن أموت معك».

عمّ صمت، كآخر الأزمنة هديره. وقف المتحلّقون من حولي وبدأوا يتفرّقون بين زواريب المخيّم. تراجيديا الحب والموت، وجدت مكانها في هذا المكان الذي لن تجفَ دماؤء ما دام طيفا سناء وماهر ساهرين أبداً، يلقّنان الحكاية لأجيال لم يتعلّموا تهجئة «أمل» في كتبهم. أبجدية حذفت منها الأحرف المشعة، تلك التي على نورانيتها تغدو الأحلام حقّيقة لا نزوة، و مشروعاً صادقاً يعد بآت أفضل.

حمل جهاد عكّازيه المسيِّرين الجزء الباقي من جسده، ومشى برفقتي وأنا أتأبط رزمة الورق، التي من غير أن أدري، صارت دافعي إلى المخيّم وإليه. افترقنا عند منعطف درب بين المخيّم وضجيج الأوتوستراد، وأنا أسمعه يقول:

«سناء وجدت في الموت التربة التي شاءت الاستراحة فيها إلى جانب الإنسان الذي فدت حياتها حبّاً به».

كلمات هذا الرجل أنارت فيّ طبيعة سناء التي لم تعثر على نصفها الضائع بيننا، سوى هنا في هذا المخيّم.

عدت إليه وفي بالي كلمةٌ أخيرة أقولها له:

«حيثما تُزهقْ دماء يرتفعْ مسرح، يحكِ بلغة كونية مأساة البشرية».

عدت إلى بيت العقد، وفي بالي إعادة الرباط بما افتقدته طوال سنوات الحرب. كنت في عجلة من أمري لأكمش بين كفّي، شبه سلام، بدأت أشعر ببوادره مذ وطأت مدفن العائلة وكلّي أمل في أن يتلقى والدي خبر وفاة سناء كحمل رهيب أنزل عن كتفيه.

«عدت إلى عين الشمس لعلّي ألتقي بالفتاة الهائمة في الحقول، تلمّ البلّوط و أعشاش العصافير التي كانت زوابع أشهر كوانين تسقطها عن أغصانها. إلى بيت العقد جئت وكلّي شوق إلى تلك المراهقة، بمشيتها المتعثّرة وصمتها الذي كان يغيظ سلمى الجدة. عدت كي أجمع حواسي وأتعلّم من جديد أن أرى وأسمع وأتأمل، وأعوّض بمجيئي إلى الوطن، عن السنوات الضائعة، ويبقى عرفاني الأكبر لوالدي الذي أرسلني إلى بلجيكا وفي فكره رجاءٌ شبه مستحيل، وهو أن يتحسّن وضعي وأصبح مسؤولة عن ذاتي، استقلالية، في أجواء تحميني من ضراوة الحرب. ومع الوقت، صرت مشلّعة، ممزّقة بين من يموتون في الوطن، وجبلة الطين التي صرتها بين كفّي ضياء، يختبرني تدريجيّاً في أدوار صغيرة، مكيّلة على خطواتي المتعثّرة، إلى أن توصلّ إلى الكيمياء المحبوسة في كياني وأطلقها إلى الحياة».

هنا في عين الشمس، ما زال العشب يانعاً، طرياً، والهواء منعشاً. الطبيعة لم تبال بالحرب. ساكنة، سامية، لا تتذكر. في رحابها تسير رشا، تغامر حين

يهبط الليل في سماكة الصمت. بين الأشجار وعلى ضفة النهر كان علاجها الأول. شرودها كان يطول ويطول إلى أن تكسحها العتمة، عازمة، بالرغم من الخوف القابض على صدرها، على العبور أبعد من قضبان علّتها.

في تلك الليلة التي مضت فيها رشا تقرأ ما في أوراق جهاد، كانت سناء تنتظر أن تغط هذه الأخت الغريبة عنها في النوم لتبعث إليها برسالة صوتية تعيد بها الاتصال بينهما:

«عسى أن تصل إليك رسالتي بعد طول الغياب...».

في رسالتها إلى ضياء، كان المنام هاجسها:

«سمعت فقش الموج هادراً، يرحل بعيداً بهذا الصوت الذي عرفته، صوت سناء، ثم يعيده إليّ. على عجلٍ، وقبل أن يذوي من فكري، استعنت بالورقة والقلم، ونقلت الرسالة بحذافيرها. لكن البرقية لم تكن مجرّد حلم عابر. صوت أختي ظلّ يلاحقني، كأنه يطلب مني ردّاً على رسالتها. كيف السبيل إلى إعادة الرباط بيننا؟ أفتكون المنامات ساعي البريد الوحيد بين الهُنا والهُناك؟».

لقاؤها بجهاد كان أكثر من صدفة. عند عتبة التخشيبة توقف بحثها عن سناء. ففي رزمة الأوراق التي صارت تقرأها بالفاصلة والنقطة، بان لها عالم هذا الرجل المبتور الساق، متّزناً في رصف كلمات مدقوقة في بدن الورقة السمراء كالوشم، مفتوناً بسرِّ الله. فمن هو يا ترى هذا الكائن الذي ينعته أهل المخيّم بالمجنون؟ أوراقه تحكي عنه حين لم يبق له سوى الصمت يلتف به في هذه الغربة التي باتت مسكنه.

الصفحة الأولى، كانت مفتاح عالمه المغلق. بكلمات قليلة ساوى المرأة بالفلك:

«في تكوينتك العجيبة يكمن سر الكون».

مَن هي تلك المرأة التي ألهمت قلمه وأحاسيسه المضطرمة؟ تساءلت رشا. صارت كلّما توغّلت أعمق في عالم جهاد الفكري، تشعر بقوّة غريبة تدفع بها إليه.

«الكتابة هي فعل حب، وإلاّ فلن تكون سوى خربشات على ورق».

عبارة أعادت رشا قراءتها مرّات، تستدل بها على عزلة جهاد التي تفوّقت على الموت، بفعل الكتابة. الرفاق مضوا إلى عالم الحق، بينما ظلّت أرواحهم حائمة حوله، تبث في حبره علاجاً واقياً من الجنون والكآبة.

«على هدي هذه الأوراق المكتوبة بأصابع مرتعشة، متردّدة، لمحتُ طيف والدي الذي تفوّق على الظلم وعتمة السجون بالكتابة. كلمات سوداء، ككسوف الشمس، كتبها بعد رحيل ثريا «الرائعة» عن دنياه:

«فهل يا حبيبتي، بعد الموت حياة؟»

أعود وأراها، بكسوفها بين أوراق جهاد، فيما اسمّاه «موشحاً غنائياً حتى لا يغتالنا الفراق»:

«قومي يا حبيبتي من غفوتك/ فالليل في انتظارك لتبدّدي عنه الظلام».

مَن هي، يا تُرى، هذه الملهمة القادرة على أن تبدّد ظلمة الوجود؟ أتكون مولودة من خيال جهاد؛ امرأة تُريه الكون كما يحلم به أن يكون؛ امرأة تعيد إليه شبراً من وطن يزرع فيه سنابل قمح، وشقائق نعمان تعلو بينها كالوعد:

«في أحشائك زرعت حلم طفل، وبقلم أزرق رسمت له حقولاً وعصافير يلهو معها. وحين استفقت كان الحلم رماداً، وشقائق النعمان بقع دماء».

الجالس على عتبة تخشيبته، مبتور الساق، المبتور من حلم كاذب، لم يعد يرسم حقولاً وعصافير للطفل الموعود به. حين صار كل ما حوله عدماً، دخل في زمن الاستسلام للغائب الكبير. فالبداية والنهاية هو. جهاد الصامت، المنبوذ من أهله و الحيّ، كتب سيرة وجدانية. كنت في سرّي، كمن يشرب من كأس الآخر ليحزر نياته. أسمع من جوف الكلمات، لحناً مرفوعاً على سلّم غناء صوفيّ، تحرّر فيه العاشق من نفق الحياة المظلم، وانطلق إلى النور. في البدء كانت هي، حنين عاشق صعب عليه أن يتكيّف مع الموت:

«كنتِ دليلي على الأرض، عل هدي ضوئك أمشي / كنتِ ندى الصباح أمتصّه من شفتيك لأرتوي».

التفت نحو الخالق، إذ لم يعد له سواه. الجسد الذي كان ينبض جوعاً حين يتوغّل في أحشاء الحبيبة، و معاً يتقاسمان لقمة الحياة المرّة المغمسة باللذة، صار يداً، تستعطي سلاماً ورجاء على الورقة:

«المسايرة مع الله بوحٌ مستتر لا يسمعه إلاّ هو، يعيده إليّ بما بات يلمسه من روحي التائقة إلى التسامي بالحب، فأكتب ولا أرتوي من هذا النبع الذي لا ينضب.

في بيت العقد، تكوّمتُ لأحصر فكري في كل عبارة، لعلّي بها أستنير بالجانب الظليل، الفارش لبساً على هذا الكائن. ثمة قوّة كانت تعيدني إلى نشيده، كأني معه في اتحاد تام. في الخارج الطبيعة ساكنة. شجيرات الدفلى فرشت أزهارها القرمزية على الجانب الجنوبي من القناطر. أسراب من العصافير حطّت على أغصان شجرة المشمش المسنّة، لاستراحة قصيرة، تغادر بعدها إلى آفاق بعيدة. من حيث أنا، في هذا الركن الذي تعلّمت فيه أن أكتب إملاء جدتي سلمى، يعلو مواء قطط الحي تنادي أنثاها. خارج بيت العقد، لا يشكو أهل الطبيعة من الوحدة، في حين يكتسي الداخل بأرواح محنّطة، تأتي إليّ في النوم، مشوّهة المعالم، ولا أخطئ في التعرّف إلى كل منهم، كأني أنتظر الليل ليعيدهم إليّ.

من تيهها في هذا الماضي الذي ما زالت أصواته ترنّ كأجراس الحزن في فكرها، تعود إلى أوراق جهاد تستشفُ منها درباً ولو شحيحاً إلى النور، بينما كاتبها قابع في الظل.

سمعت من البعيد عواء الثعالب. باتت الكروم مشاعاً بعد رحيل سلمى، يأكل منها كلُّ عابر درب، وتبقى الحصّة الأكبر للواوية، تغزو ليلاً هذا الفيض من خيرات الأرض ولا تترك على الجفنات سوى عراميش يابسة لا تصلح لأن تكون مأدبة للعصافير.

العائدة من مسرح ضياء العجمي، شلحت عنها ثوب دورا، والتفّت بمريول سلمى، ففي مسامه تتنشق وجود هذه المرأة التي وهبت عافيتها للأرض بلا ملل، وفيّة لما أوصاها به يونس. هذه الوصيّة التي سمعتها مرّات من سلمى، تنغز ضميرها اليوم. فهل تترك محاصيل العنب للواوية، وترى الزيتون تتجعّد حباته على الأغصان، وما من يقطفها؟

لم يعد في الديار سواها. عائلة رستم إنقرضت، والأرض بعد أن احتفلت على مدى عقود بالمحاصيل المباركة، باتت تنعى ذبولاً، وعمّا قريب، تصير كفناً للذاكرة. هكذا تنبّأ يونس، يوم اقتاده العسكر التركي إلى سفر برلك. رشا المتوحّدة،التي ظلّت تجرّ ذيل علّتها من معهد إلى آخر، وترسم أشجاراً عارية من الأوراق، إلى أن أخذها المسرح إلى عالمه العجيب، لم تتعلّم لغة الأرض، ولا بأي يد تنكش تربتها. في الطبيعة البكر اكتشفت الحرية وقدماها تكادان لا تطآن حشيشها الطري، تفتّحت حواسها المقفلة، إلى ذلك الحين، على ما يجول حولها، فأنِست إلى الروائح المنبعثة من أجمام الزعتر والقصعين والشمّر، والسمّاق، وتعلّمت أسماءها من جدتها سلمى. سكرت بتغريد العصافير، هذا النغم الأوّل الذي أطلقته الطيور، فأصبح قاعدة لموسيقى الكون، استأنست بخرير السواقي، وزفير الهواء في الصفصاف الباكي... هنا في رحاب الطبيعة كانت مدرستها، وبقيت في غربة عن الأرض التي لا تتروحن وتعطي زرعاً إلاّ إذا فُلحت ونُكشت و ارتوت بالحب والعرق. ذاكرتها أخذتها تلقائياً إلى دفتر فارس الحميم، يقارن الفعل المقدّس الذي يحقّقه في اختراقه عصب الأرض وموانعها، بالاحتفال الكوني عند بلوغه أسرار امرأته، ويرتقي معها إلى ذروة العطاء.

رحل فارس رستم برصاصة قنّاص طائش، وبقي قلمه ينزّ حبره القاني في صفحات استشفّت منها إنساناً جبّاراً، مكابراً على قساوة الحياة، بينما ثمّة صراع وجودي ظلّ مدفوناً في صمت قشرته. ليتها التحمت بحياته كما كان ينبغي لها أن تكون، فتستنير بطبيعته المحيّرة، الصارمة. فحتى بعد رحيل ثريا وخوفه على الأرض من أن تجف أسوة بقلبه، كتب، «بتولية المرأة كبتولية الأرض لا تتفتّح ولا تثمر إلاّ بعرفان عاشق لها، متيّم بها».

ثلاثة رجال دعتهم رشا، بالفكر والروح، إلى السكن معها في بيت العقد، بغموضهم واختلاف علاقتها بهم. فارس، وضياء وجهاد. ثلاثة هم، في صدد البحث عن حقيقتهم والثبوت في مكان ما في الوجود. ماذا تعرف عنهم؟ عن أسرارهم الدفينة، أخطائهم، علاقاتهم العاطفيّة، خيباتهم، أوجاعهم المستترة تحت شحمهم الذكوري؟ مسرحية من ثلاثة أصوات، بدأت تتحرّك وتتجسّم في خيالها بعد لقائها جهاد، و قراءتها أوراقه:

«سقوطه في العدم وبحثه كضرير عن نور داخلي، يسير على هديه، قرّبا المسافات بيننا. كلانا مصبوغ بسواد الحداد ورائحة الموت. كلانا يقترف توأماً خيالياً لنتحمّل عذاب الغياب».

حين ينتعش الهواء عند المساء، تجلس رشا مع أوراقها بين القناطر، تشعر في مسامها باعتدال الخريف في الهواء الطرّي المنسّم عليها. هنا على مقربة

من أصوات أهل الطبيعة تكتب، وقلمها في هذا الانغماس العميق في مشروعها المسرحي، يعود تلقائياً إلى جهاد. تودّ أن تعرف أشياء سترتها الورقة. فما رواه لها، وهما جالسان على عتبة التخشيبة، كان حافزاً لفكرة مسرح، يولد حيثما أُزهقت الدماء. مسرح يحكي لغة كونية، كالتي زفرت بها سناء في رمقها الأخير، وشفتاها تنزفان حباً على شفتي ماهر «أقسمت بأن أموت معك».

الحروق على ورقتها لا شفاء منها، ترشح وجعاً، فتتساءل إذاً ما هي الكتابة، كتابتها التي ستبقى ملتحفة بظلّ حياتها القاتمة:

«دورا لا تزال فيّ، كعواء ذئب جريح، تحرّضني على الكتابة. عن أي زمن أحكي، وعقارب الوقت واقفة عند اللحظة التي لم يعد لدورا فيها وجود. كنت السلّم الذي عليه، يرتقي ضياء لبلوغ منتهى السعادة معها، وبعد هذا الحلم الذي كنت بثنائيتي العجيبة أحمله إليها، كان يجثو أرضاً ويشهق بالبكاء. لم أسأل. كيف لي ذلك وأنا هي، دورا، الواهبة كلّيتها له، يزرع ثمرته فيّ وعواؤه في عنقي «دورا، دورا، يا حبي الجنوني، أريد منك ولداً حالكاً كليل بلا قمر».أتركه في حزنه وأعود إلى شرنقتي، دودة، تتدرّب لتتحوّل غداً من جديد، إلى فراشة ليل أسطورية.

«أحاول أن أتذكر اللحظة التي همد فيها جنون «البوليرو» واستفقت من سطوته السحرية على تفاصيل جسدي. بلا وعي، كنت، مع عويل الأبواق، أشعر بأني تعرّيت من جسدي، روحاً هائمة فوق الجاذبية الأرضيّة. هل فعل الكتابة في هذه الخلوة الريفية، هو حقّاً سبيلي اليوم إلى إخماد الحريق الذي

أشعله ضياء فيّ، أم هو الخيط الذي يربطني به، ولا أودّ أن ينقطع. مدمنة على سواده الحالك، رائحة القصدير المنبعثة منه، قابعة فيّ، أتنشّقها حتى الإغماء. أقف أمام مرآة جدتي، المتقشّفة من صفاء مائها، وأتيه في ملامح تلك المرأة الساحرة، حين كان المسرح يأخذها على أمواجه العاتية. كان سحر دورا ينطبع فيّ، فأسمع ضياء يحيي جمالها وأنا أتلقى مديحاً استوليتُ عليه بالحرام. الآن صرت أرى ذاتي على حقيقتها، شبيهة بهذه المرآة المبقّعة، مسنّةً قبل أواني، كأني منذ البدايات آتي متأخرّة إلى حيث يجب أن أكون، هذا الموعد الذي لولا ضياء، لما كنت ذلك الحدث الخاطئ على خشبة تلقّنتُ عليها لأن أكون هي. هذا هو قدر الممثّل، يكتسي بثياب ليست ثيابه، ويشيّد على الخشبة قَدَراً ليس قدره. المرّة الأولى التي خرجت فيها من غشائي، مدفوعة بقوّة عجيبة، كانت الحاسمة التي قرّرت ما صرت عليه.

صمتي الأزلي الذي كان حدوداً لوجودي الخاطئ، دوّى من أعماقي «قومي لأقوم معك». هذا الوعي المفاجئ، كان له تأثيره في أشجاري التي صارت تحت أقلام التلوين تورق، وتفرد أغصانها للعصافير. فهل كنت من فئة الطيور أنتظر من ضياء غصناً لأرى منه الكون أوسع؟ صرت من تأثيره فيّ، أكتب، يلقّمني أفكاره، سوداويته، شهواته، فأراها الآن في هذه الخلوة المباركة، تنمو على أوراقي بما في خيالي، دراما من ثلاثة أصوات ذكورية، في مواجهة مع الحقيقة».

رشا لا تعرف الكثير عنهم. الغموض الذي يلفّ البعض منهم هو الذي استأثر بقلمها، ودفع بها إلى بناء مسرح دراميّ من وحي الظلال الحاجبة حياتهم.

«كيف كان لي أن أستنير بشخصية فارس رستم لو لم أقرأه؟ وكنت إلى حين انتقالي إلى معهد المتوحّدين في بلجيكا، أسيرة غشائي، لا أسمع، لا أرى، لا أتكلّم، ولا من يكلّمني. فهل تعرّفت، في هذا الكمّ من الأوراق إلى والدٍ، أم إلى ملحمة إغريقية بقلم إنسان تلذّذ بمآسي حياته، وتذوّق مرارتها حتى الثمالة؟

أما جهاد الذي لم أره سوى مرّة واحدة، فقد قرّبني من حقيقتي بينما كنت أسعى إلى حقيقته من خلال كتاباته. بعد لقائي إياه، فهمت مصدر علّتي. غشائي هو السجن الذي أُودعت فيه لأكفّر عن موت أمي».

هذه الرزمة من الأوراق التي أعطاها إيّاها، صارت تسمع منها صرير العكّازين على الأديم، يرافقانها إلى خارج المخيّم. تذكرت نظراته الحزينة عند الوداع، تقول لها «عودي لا تتأخّري».

أول ما قامت به في إثر عودتها إلى الوطن لوداع والدها، إعادة فستان ثريا الأسود إلى خزانتها. فلكم تمنّت الخروج نهائياً من مفعول دورا السحري عليها. لكن هذه المرأة باتت متجذّرة فيها، تحاصرها في صحوها ومناماتها. تتذكر ما قاله لها ضياء في ليلة ما بعد العرض الأخير لـ«دورا طائر يغني في الليل»:

«أنت يا رشا، من ضلع أسطورة سيزيف، تحملين دورا لعنةً على كتفيك لإيصالها إلى النور الأسمى، وفي كل ليلة وإلى ما لا نهاية، ستظل دورا حملك ولا تبلغين به المنتهى».

«أسطورة سيزيف حرّكت اللعنة القابعة فيّ. سجينة كنت بولادتي، سجينة أصبحت في عالم دورا، تستعمر حرّيتي لأكون هي. في تلك الليلة، بينما كنت أحاول انتشالها من الغرق كي أعيدها إلى أسطورتها، شعرت بأني لن أبلغ الحريّة المشتهاة ما دامت دورا حملي. بعبوري الصعب من العتمة إلى النور، صرت شيئاً فشيئاً أرى أوضح، وأجلى. اسمي الغائب عن البرنامج، ثار وانتفض من غيبوبته. وضياء، بإخراجي من سجن التوحّد، أغلق حولي سجناً خرافياً، يعمّه الضوء الباهر».

على إيقاع بوليرو رافيل صارت رشا تتابع التحوّلات المتفاعلة فيها. من العجينة الطيّعة المقتلعة من اللاشيء، صنع ضياء امرأة جهنّميّة تاهت فيها الصبيّة عن حقيقتها. ليلةً تلو ليلة، كان يختبر في الظل، ردات فعل الجمهور المسنونة على البرهة، الكلمة، الحركة، حتى إذا بدأت القصيدة تتهادى وتتناهى ومن حولها رمق البوليرو الأخير، كان الجمهور الحابس أنفاسه حتى تلك اللحظة، يهبّ صارخاً:

«دورا، دورا»

«لم أكن شيئاً، سواها، مولودة من كفّي ساحر، بحسب ما تتراءى له ذكرياته مع الغائبة. أعود إلى التحيّة مرّات، على قدر تصفيقهم وهتافاتهم، وفي أفواههم اسمها. فاسمي كان مغيّباً عن اللافتات التي عُلّقت على واجهات المسارح الأوروبية، ومغيّباً عن المقابلات التي أجرتها القنوات التلفزيونية والصحف مع مخرج كبير من رعيل السورياليين، لمسرحياته حيثما حطّ، دوي ثقافي وفني هائل.

«دورا طائر يغني في الليل» كنتُها. بقدرة عجيبة، ألدها من عتمتي، نجمة ساطعة تضيء بوهجها آفاق المسرح، ولم أحظَ ولو مرّة، بمقابلة صحافية تسنح لي التعريف عن نفسي.

في تلك الليلة الختامية لعروض مسرحية «دورا طائر يغني في الليل»، شعرت بعرفاني للمسرح ووفائي للضوء الملتف حولي هالةً لحمايتي. كنت في مقصورتي أستعد لأكون هي، عندما رأيت المزق في فستان أمي. في هذه اللحظة الحاسمة، والستارة في انتظاري لترتفع على الجمهور، سمعت أمي تكلّمني:

«دعي عنك هذا الفستان الذي سرقته دورا مني لتحيا به. فليكن جسدك اسمك، لا تتردّدي».

«الملالة الشفافة المنسية في دولاب مقصورة الممثلات، كانت بإيعاز من ثريا، في انتظاري. لا شعورياً، رفعتها عن التعليقة بغبارها ونسيانها و اكتسيت بها، بشرةً رقيقة فوق بشرتي. الهمهمات التي ضجّت بها الصالة وأنا أمتطي حزمة الضوء لأكون دورا، شدّت عزيمتي في هذا التحدّي الذي سبّبه المزق في فستان أمي، لألد امرأة الأسطورة من ذاتي. دورا هي أنا، هي حقيقتي، مشرّشة فيّ. بعريي وجرأتي، كنت شاهدة على ولادتي المباركة من رحم الحريّة، منعتقة من جحيم سيزيف واللعنة التي أرساها ضياء العجمي فيّ.

الكلمات المعدودة على موازين بوليرو رافيل، حثّني على افتعال زوبعة، أنقذ بها كياني المهدور من براثن جنيّة مستبدّة، أسرتني في شخصيتها الطاغية.

دورا في تلك الليلة الختامية، كانت فيّ لا أنا فيها، أطوّعها بإلهام خفيّ، عجيب، كسر غشاء انطوائيتي وعرّاني من الخضوع المتملّك فيّ إلى المشاركة في تراجديتها».

لم تبالِ رشا بالغضب المنتظر لا محالة بعد حين. فضياء عندما بدأ يطوّع قدراتها البكر على استيعاب موازين المسرحية القريبة من الشعر أكثر من النثر، قال لها:

«هذه سمفونية مشغولة على النوطة، إن خرجت كلمة سهواً عنها، تبلبل الإيقاع وتاه خارج إطار التوازن الضابط في عصب واحد، الكلمة والموسيقى».

التقدّم الملحوظ لدى التلميذة رأى فيه المعلّم وعداً لمسرحيته القادمة. رشا، بانعتاقها من وعاء التوحّد، صارت تجد في هذا الوعاء الآخر، مبعثاً لشفائها من علّة، حكم الطب النفسي عليها، بأن لا شفاء منها. بات معلّمها الدعامة الوحيدة لوجودها الهش. فأصداء الحرب كانت تسمع دوّيها في رسائل والدها، على نحو يجعل العودة إلى البلد أمراً مستحيلاً. عرفانها لهذا المعلّم حرّك في داخلها إحساساً دافئاً لم تشعر به من قبل. حبّها الكتوم له لم تَرَ بداً في التعبير عنه سوى في استثارة إعجابه، طيّعةً، مستسلمةً ليدَي نحّات صنع من جبلة الطين الصامتة، مثاله.

بدا التمثال أمامه آيةً في الحسن. دارينا التي أخذها الليل، عادت من الغياب تبثّه نيّاتها الجهنّمية وتحرّك شوقه إليها. شعوذات المرأة التي سطت عليه مذ

كان مراهقاً، واستملكت روحه وجسده، إلى أن أصبح عبداً لها، خاضعاً لمفعولها السحري على حياته، تراءت له في شخصية ميتولوجية. عادت تزعزع أساسات كيانه، بعد أن ابتعد عن محيط عائلته ووطنه ليتجدّد في معهد التمثيل العالي في لندن و ينهض بالحطام الذي تركته وراءها، حين توارت في ظلمة الليل كما أتت.

تأمل طويلاً في البراءة المشعّة من هذا التمثال. رشا المغسولة من خطايا البشرية، رآها تبتسم له بحب وعرفان، مطمئنة إلى احتضانه مصيرها الهش. الصوت الآتي من أعماقه يسأله: «كيف عساك تسعى إلى حقن دم دارينا الفاسق في عروق فتاة ناصعة، حماها غشاء التوحّد من وحشية البشر؟» فيبعد عنه هذا الصوت، المتطفّل على تجاربه المثيرة، القارضة شيئاً فشيئاً كالأوكسيد، مبادئه الإنسانية. الطينة الليّنة بين كفّيه سوف يجعل منها أتون ثأر للعذابات التي اقترفتها الذئبة برحيلها، وتواريها في ليل سوادها الفاحم.

«دورا، ستكونين لها أكثر من شخصيّة مسرحيّة». تستمع رشا إلى راعيها ومدرّبها يقول لها كلاماً موشّىً بالاستعارات، بينما التمثال بين يديه يلقّمه حذافير هذه المرأة الغامضة، فتحفظ في ذهنها ملامح إلهة سوداء من أساطير وطنه إثيوبيا.

«كلّما ارتفع صوتك في فضاء المسرح، سيقرع صوت من الماضي في مسامي»، يقولها في سرّه، فتسري في عروقه قشعريرات من ذلك الماضي. حب رشا له، لم يكن خفيّاً عليه، ففي قرارة نفسه بات مقتنعاً بأن تبنّيه لها، كان فعلاً

إيجابياً سوف يغسلها من علّتها. في حواسّ الصبيّة، غرس ضياء العجمي مداميك مسرحه. فما إن هتفت «المدينة تقرع حداداً على موتي وها أنا أنعى ما هو أشرس من الموت، الثأر»، حتى شعرت بجناحي طير يحلّقان عالياً مع كلماتها.

على نار هادئة بدأت العلاقة بينهما، علاقة رجل بأنثى من دون أن يحسب لها ضياء حساباً. فرشا، قبل أن يبدأ اختباره الشيطاني عليها، ويصنع منها ذاكرته الموجعة، كانت بالنسبة إليه الابنة التي تبنّاها في معهد المتوحّدين، من دون أن يدري أنها ستكون ورقته الرابحة، ومن غير أن يقرع في باله أن الفتاة الغائبة عن أمور الحياة البديهية، ستجد في هذا الأب الافتراضي ملاذاً لأنوثتها القابعة كالثفل في قعرها. لقد أعطاها دوراً وخشبة فحلّقت، وبين ذراعيه ذاقت خطيئة الحب فتفتّحت براعمها وصارت امرأة نارية متساوية بامرأة الأسطورة.

من حقيبتها، أخرجت فستان أمّها المخمليّ، الأسود الطويل، وقالت له:

«به سأكون دورا، هذه المرأة الميتولوجية التي أردتني أن أكونها». بسماعه كلماتها أدرك ضياء أنه لم يقترف سوءاً. المطعوم المجبول بالخطايا، الذي حقنه في هذه النبتة البريّة، سيجعل منها غصناً وارفاً في سماء المسرح العالمي.

في تلك الليلة الختامية، لم يقف الجمهور هاتفاً «دورا، دورا»، ولم يكلّل هامة مخرجها بالنصر الذي كان في انتظاره في هذا العرض الأخير. خرج ضياء من باب المسرح الجانبي، متخفّياً كاللص، يجرّ خيبته، هائماً على أرصفة المدينة يبحث

عن خمّارة يطفئ بكأس، فشل المسرحية، والخيانة التي اقترفتها رشا بالشخصية التي جعلت منها تراجيدية مرموقة. عاد مع تباشير الفجر إلى المسرح ليفجّر غضباً ازداد احتقاناً مع كل كأس. في طريق العودة، راح يفكّر في الأسلوب الذي عليه استخدامه لتأديبها. تشابكت الأساليب في رأسه المخمور إلى أن تراءت له اللوحة الختامية المتكرّرة في كل ليلة. هو يتلقى التهاني والهتافات، بينما العنصر الرئيسي مغيَّب عن عرفان الجمهور له. جلس على حافة الرصيف وبكى. وَعَى على حاله والدموع تشق في تجاعيد وجهه قنواتٍ مالحةً. لم يخجل من بكائه، ففي البكاء عزاء وحنان وحب، قال في سرّه. لقد بكى فتيّاً حين هجرته دارينا؛ بكى على نعش والدته، وها هو الآن يبكي لأنه أغرق رشا في جنونه. لحقت به مُطمئنة، حاملةً بحياة جديدة، موعودةً بهذه العجينة التي سيخلق منها رشا أخرى، تنزع غشاء التوحّد الساجن مواهبها، من دون أن تُنبئها براءتها بأن هذا المارد الأسود الذي وقعت أسيرة نظراته المشعّة كأسهم نارية، سيحرّرها من سجن ليُدخلها سجناً آخر.

لملم دموعه وسار إليها مستغفراً من الطغيان الذي مارسه عليها. صورتها في خياله، طيّعة في امتلاكها الخشبة، مستسلمة لهواجسه، يبحث عن دارينا الضالة بين أدغال إثيوبيا، في أدغال جسدها البكر، فتتلقى من هذه الغريمة، الغامضة، المقادير الحسّاسة لإسعاده. كانت المقصورة فارغة منها ومن فستانها الأسود الطويل. أخذ الملالة الشفافة وتنشّق رائحة عرقها طويلاً، وصوتها يصدح في أذنيه:

«ها أنا بكامل عريي أقتل دورا لأحيا».

بعد زمن على هذا الفراق، بعث إليها برسالة إلى العنوان الذي تلقى منه ظرفاً أزرق، حين فضّه وجد على الصفحة البيضاء ما أرادت التعبير عنه برسم بدائي قوي بمعناه. كتلة صخرية وإزميل زوّدتهما بعبارة «هذه أنا، نحّات ذاتي».

الرسالة برموزها ومعانيها كانت البداية لمراسلة صريحة بينهما، لا غبش عليها، تبوح من بعدُ المسافات، عما كان محظوراً الكلام عليه، خفايا مبهمة، كانت تشعر بها حين يهتف الجمهور «دورا، دورا»، ويبقى اسمها كالنكرة لا وجود له. اسمها، كم تمنّت سماعه وهو في ذروة اللذة، يزأر في عنقها اسم دورا. العلاقة الكاذبة بين رشا وضياء كالعثّ نخرت نسيج عيشهما معاً. هربت من قضبان هذا القفص الذي ما عاد العصفور المسجون فيه قابلاً على التغريد. رحلت من دون مصارحة، لعدم ثقتها بلسانها العاجز عن تصريف الأمور الوجودية بجمل سلسة. فلطالما كان الشوك الآسر لسانها، يجيّر الكلمات المشتعلة كموقد دائم في أعماقها، على الورقة. حرّرت لسانها بالقلم عمّا كان مستتراً بينهما، وصارت من رسالة إلى أخرى تروي له حياتها كما استقلّت في ترميمها في هذه العودة إلى الوطن.

إشتاق إليها صبيّة بكراً، عثرت في المسرح عن مكان لاستمراريتها. من هذا الانبهار بمواهبها الأنثوية التي كانت نائمة فتوقّدت، صار، يوماً عن يوم، يلمس ذوبانها أكثر في المرأة التي أحبّها. أصبحت هي، على الخشبة،هي في فراشه. ظنّ أنه استملك جسدها وروحها، وها هي في رسالتها تزفّ إليه مشروع حياتها الكبير:

«دورا، يا ضياء، صارت في خبر كان. لقد عرّيتُ ذاكرتي وجسدي منها، لولادة جديدة مغسولة من خطاياها. المسرح، كما علّمتَني أنت أحاجيه، بدأت بوادره الواعدة مع هواة من شباب طالعين من الحرب، يبحثون في المسرح عن منطلق لثورتهم المتأجّجة في أعماقهم. مدمنون على المخدرات، مشتّتون في بلد عاجز عن لملمة فتاتهم، شاهدون على حاضر لا مستقبل يناديهم، من هؤلاء أتتني نماذج جيل تمازج بدمار مدينته. الإعلانات الصغيرة في الصحف اليومية، أعطت ثماراً خجولة إلى أن بدأت القنوات التلفزيونية تعلن عن الخبر بدعوتي إلى الكلام على مشروع وحداني جريء، غير مدعوم من مؤسّسة رسميّة. أتذكر، يا ضياء، كيف كان اسمي محجوباً عن اللافتات الإعلانية الموزّعة على جدران المدينة، بنياتك المذلّة للإنسان الذي استفاق معك على إيقاع الحياة؟ أتذكر كيف كنت تمحو كل حضور لي في الإعلام المرئي والمسموع، وخوفك من أن تصبح دورا الميتولوجية، الغامضة،المولودة من النار، واقعاً ملموساً خارج الخشبة، تتكلّم لغة البشر؟

هنا، في الخربة التي عثرت عليها على خطوط العار، كما كان والدي يصفها، وعليها لقي حتفه لإيمانه بوطن واحد للجميع، صار للمسرح نكهة من واقع الوجود و مرارته، بمؤازرةِ اختصاصيةٍ بعلاج النفوس المعذّبة، لطالما تمنّت أن يكون شفاءُ مرضاها من خلال حقول الفنون بصورة عامة، كالمسرح والموسيقى والرقص والرسم. تلاقينا لنحث المُشاهد على اكتشاف ذاته، وليلمس الخراب الذي أصاب طمأنينته. من كنبة المحلّلة النفسية، حيث كان البوح خفيضاً، خجولاً، إلى الخشبة صراخهم. هذا المسرح تعبير عن الحياة، الحب، الأمنيات، الفراق، رفض الواحد للآخر، الموت.

«وحي الكتابة جاءني كالطَّلْق الموجع من كتابات والدي، التي أنا اليوم في صدد نشرها بالعنوان الذي توّج به مأساة حياته «لما كنت». تحيّة لذكراه أصبحت هذه الخربة اللاحمة برسالتها البيروتين، ملتقى ممثلين من جميع المعتقدات والمذاهب، يتكلّمون كلّهم لغة الغربة التي حقنتها حربٌ لا لشيء، في عروقهم».

ما لم تتجرّأ رشا على البوح به وهي في قبضة ضياء، طيّعةٌ بين أصابعه السحرية، أقدمت عليه والمسافات توليها شجاعة الكلام. قرأ رسالتها بغصة جارحة نالت من كبريائه و أنانيته. «أين كنت ستكونين يا رشا لولاي؟ وكيف كانت ستكون حياتك بعدي لو لم تقتلعي المسرح الذي شيّدته لك لأجعل منك أسطورة، فمضيت به كاللصِّ تغرسين مداميكه بعيداً عني في وطنك، وكان ظني أني شيّدت لك وطناً على مسرحي؟»

ردّه كان صادحاً من نَفْس متألّمة، غارقة بين تمزقّات الأمس وخيبة الحاضر:

«رشا عزيزتي، جميل أن يعود الإنسان إلى وطنه ليبني فيه مدفناً يحوي عظامه. أنت عدت لتبني فيه مسرحاً. بعد قراءتي رسالتك الوطنية، تساءلت: أي وطن هو وطني؟ وأين هي أرضي لأبني فيها قبراً. لم أنسَ ما رويته لي عن لسان جدتك سلمى، «من ليس له قبر ليس له وطن». أتذكرين؟ فمذ تركتُ، مرغماً، أرض أجدادي، والغربة مسكني أينما حللت. المسرح حمل اسمي، صار هوية متشرّد يجرّ خلفه حقيبة حياته. دارينا المرأة التي بسببها تشرّدتُ عن أهلي، زرعت سمّها في قلمي فصار مسرحاً أجوب به العالم، مترجماً إلى عدة لغات.

«الآن يا فتاتي، وقد خلعت عنك فستان أمّك الأسود وعدت إلى ذاتك البكر، إليك بَوْحي، فأنا اليوم أتوق مثلك إلى مكان ما، أُلقي رأسي على ترابه وأغفو. لكن في أعماقي الممزّقة، صوتاً يقول لي «هذا المكان هو اللامكان». فاسمعي يا رشا، اعترافات خاطئ تائب. خاطئ فعلاً لأني جعلت منك صورة عنها من دون أن آبه بروحك المعذّبة. من طهرك صنعت شخصية امرأة قاتلة، ثائرة، ومن حبك الأعمى لي الذي لم تساومي عليه مرّة، خلقتك أنثى على مثال حبها البربري، ذئبة متوحّشة كأدغال أرضنا السوداء. برحيلك عني، فقدت عودة دارينا إليّ. لهذه العشيقة الغائبة شيّدت مسرحاً حيّاً كما تُشيّد المعابد للآلهة. كنتِ هي، موشّحة بطيفها الجذّاب، تستأثرين بالجمهور، ساحرة، من أزمنة الساحرات الميتولوجيات، ثم تتعرّين منها، وتأتين إليّ، بعريك الناصع، عطشى إلى حبي الكاذب، فأفرش ذراعيَّ بشوقي وحنيني إليها.

«صوتك قرع في أعماقي منذ ذلك اليوم الذي خرجت فيه كالساحرة من قمقمك، وقلت أمام دهشة اللجنة:

«أنا قتلت أمي لأحيا». كأنك بهذا الاعتراف الجريء، أطلقت سراح صبيّة أمضت عشرين سنة في سجن هذا الغشاء، تكفيراً عن جريمة اقترفَتها جنيناً، بموت أمّها. في ذلك اليوم، وأعضاء اللجنة يضعون العلامة التي تستحقّينها، كنت أصمّم في خيالي مسرحاً لك. بعيدة عن وطنك الغارق في حرب مدمّرة، بعيدة عن والدك الذي كان يراسلك ليطمئن عليك، أخذت مكانه. صرتِ ابنتي التي نويت أن أعلّمها وأهذب مواهبها فأجعل صوتها يصدح عالياً على مسارح العالم. هذا كان رهاني ولم أخطئ.

«في بداية حياتك معي، ولم أكن قد تجرّبت بعد في عالمك الوحداني، كان صمتك كالصراخ الجوّاني يهزّ كياني. صرتِ بحثي ولجوجيّتي، أحرّرك من طفولتك البائسة، وأُريك الصبيّة المتعثّرة بسنيّ عمرها، لعلّك تعين أنوثتك النامية، حتى إذا فردتِ لي مكاناً ولو ضيقاً في قفصك، كنت أتسلّل إليه مصغّر الحجم، رفيق طفولتك، لأفهم، فأضيف إلى بيوتك المرسومة بأقلامك، نافذة، وأقول لك، من هنا يدخل الضوء، وعلى الوجوه الفارغة أرسم عيوناً، فأُقرأ على محيّاك ابتسامة عرفانٍ، كأني بهذه النقرات الصغيرة أعدتهم إليك.

«تحت كثافات هذا الصمت يا رشا، كان بركانك نائماً،ينتظر فتيل هذا الدور لينفجر. في الليلة الأولى لمسرحية «دورا طير يغني في الليل» رأيتك امرأة- فراشة خرجت من شرنقتها، ساحرة، بالفستان المخمل الأسود الطويل، فانتفض قلبي اندهاشاً لهذا التحوّل الذي سطا على حواسي، فاستيقظت هواجسي. شيطان دورا عاد يفتك فيّ، ليلةً تلو أخرى. تماسكت حتى لا أدع غريزتي الحيوانية تغلبني. كنت بعد العرض أتركك في مقصورتك، تنزعين عنك جسد دورا وتعودين إلى شرنقتك، فأشرد في شوارع المدينة بحثاً عن خمّارة أطفئ في كأسي لهب عطشي إليك.

في الليلة السابعة، ونجاح المسرحية لا مثيل له، ما إن انسدلت الستارة حتى ارتميتِ بين ذراعي. كلمة همستِها في عنقي وأنا أقبّل شعرك، «خذني إلى جحيمك»، قرّرت مصيرنا. فكيف كنت سأمتنع من احتوائك بعناقي، أنت المصبوغة بسواد حبيبتي، أغمض عينيّ فلا أعود أرى

سواها. دارينا كانت تحقن دمها في عروقك، وتصبغ بياضك الناصع ببشرتها المحروقة.

لعلّك حين تقرئين هذا الأعتراف، تتوضّح لك الظروف التي أدّت إلى نزولي إلى الجحيم، كأسطورة أورفيوس، أبحث عن حبيبة تملّكت فيّ إلى أن اقتلعتني بسحرها من جسمي البشري لأغدو بين ذراعيها كائناً من أهل الجان».

يوم دخلت دارينا بيتنا... هكذا بدأت الحكاية. أتت، برفقة كاهن قبطي، بات معروفاً، من شرق إثيوبيا إلى غربها، متزهّد، لا يخرج عن عزلته إلاّ حين يقرع ناقوس خطر الموت في بيوت الناس، فيهبّ ملبّياً رسالته، وفي جعبته ما جمعته اختباراته للتخفيف من أوجاعهم، تعلّم لغة الأعشاب البريّة، بمنافعها وأضرارها، ومنها صار يركّب شتى العقاقير. من جعبته، أخرج صرراً صغيرة، وقال متوجّهاً إلى المرأة الجالسة إلى جانبه:

«دارينا، بنيّتي، سوف تكونين لهذه الأم التي تصارع الموت، ملاك رحمة كما عهدناك. هذه العقاقير أنت وحدك ملمّة في كيفية إعطاء جرعاتها للمريضة. رافقيها بإسعافاتك وصلواتك كي تتخطى بسكون هذه المرحلة القاسية من حياتها».

ثم تذكّر أن يعرّف العائلة إليها:

«دارينا، بعد شفائها من الأرواح الشرّيرة التي استبدت بها وهي في عز نموّها، نذرت حياتها لآلام البشر. تذهب إلى حيث يمكنها أن تصنع من

مواهبها الشافية، خيراً. بمساعدتها المتألّمين تساعد نفسها على الترقي دوماً فوق الروح الشرّيرة التي تحاول بين الفينة والأخرى تجربتها والمسّ بها.

كان الكاهن الجليل يتكلّم وهي صامتة تتقبّل منه نشر حياتها بلا انفعال. في ثوبها الأبيض الناصع بدت دارينا نقيض بشرتها الفاحمة، امرأة من أساطير أرض إثيوبيا السوداء، تعيش صراعاً فروسياً بين الخير والشر. في نظراتها التائهة إلى البعيد كان من الصعب اختراق الغموض الملتف حولها. رحّب أبي بمجيئها، مدعومة بفضائل هذا الناسك، والإقامة في غرفة أمي، مسعفة وطوباوية.

حين لم يعد للعلاج الكيميائي أمل لشفاء الورم السرطاني المعشّش في رحم أمي، أو يسكّن أوجاعها، و أمام أنينها المتواصل، كانت الكلمة الأخيرة للجدة: «فلنؤمن بطب الأعشاب، وبالناسك القبطي الخبير بها».

«بعد أيام قليلة من دخول دارينا إلى بيتنا، بدا تحسّن، ولو طفيف، على وضع أمي. المرأة في ثوبها الأبيض الطويل كانت قليلة الكلام، تؤدي رسالتها لمريضتها من دون أن تدع أهل البيت يشعرون بوجودها. كان من يدخل غرفة أمي، ليطمئن عليها، يرى تمثال الأبينوس في وضع زهرة اللوتس، جامداً، لا يتحرّك، وأمي غارقة في نوم هنيء؛ حقّها في الحياة بعد أشهر طويلة من صراعها مع الأوجاع. ملاك الرحمة كانت ساهرة على نومها كما على يقظتها، تُخرجها من فراشها ما إن تفتح عينيها. تعرّي جسدها الهزيل من قميص النوم وتغسلها في وعاء نحاسي بالصابون والغار. طقوس الحمام كانت تليها طقوس التمسيد والتدليك، مصحوبة بتعويذات وبخور

وترانيم ذات نغم بيزنطي قديم، ترفعها دارينا ابتهالاً إلى الله الشافي، بينما بشرة أمي الشفافة البارزة من تحتها عظامها، تئنُ عرفاناً لأصابع هذه الجنيّة- القدّيسة، التي كانت تحطّ بحدسها على أماكن الوجع وتعالجه إلى أن يتخدّر ويستكين.

«كيف حدثت معجزة الشهيّة لدى أمي بعد انقطاعها الطويل عن الطعام، وكان المصل آنذاك، المعلّق فوق سريرها، السبيل الوحيد إلى ابقائها على قيد الحياة؟

«قالت «أنا جائعة». المقادير التي تهيّج القابلية كانت دارينا وحدها ملمّة بتحضيرها. بدأت أمي تأكل ولا تشبع، فالتوابل التي كانت ملاك الرحمة ترشّها على الأصناف، بدت أقوى مفعولاً من عقاقير الناسك على وضعها الصحّي. ويوم بدأت أمي تنام الليل بكامله، وتجرّ في نومها عائلة بكاملها، أرهق أفرادها الأرق ومزّقت آذانهم أوجاعها، صار لطقوس دارينا المشغولة بفن وتأن لسكينة أمي، وجه آخر.

«في ذلك الوقت كان لملاك الرحمة رسالة إنسانية تفوق طقوس الحمام، والتدليك والتعاويذ والترانيم البيزنطيّة والبخور المشتعل باستمرار لطرد الأرواح الشرّيرة. كنت أنا على رأس قائمة هذه الطقوس. كيف أنسى تأويلات جدتي حين كانت دارينا ترحل بنظراتها إلى البعيد، و لا تعود تتحرّك «أخفضوا أصواتكم، فملاكنا في انتقال إلى عالم الغيب، تجني منه خيراً لمريضتنا». جدتي هذه المرأة السلطوية، الفارضة إرادتها وأحكامها علينا جميعاً، تلاشت عزيمتها أمام دارينا وأصبحت أسيرة سحرها،

ولاسيما بمفعول المخدّر الجهنّمي الذي طالت الجميع بمفعوله السلس، الهنيء. كنت من عرق العائلة ومعتقداتها.

«دارينا روح عجيبة، كانت ما إن يشتد سواد الليل، حتى يتماهى سوادها فيه، فتختفي عن أنظار والدي وأخوتي، إلاّ أنا، إذ كنت أراها قطعة من هذا الليل، تتنقل بخفة في أرجاء البيت كجنيّة قصص الأطفال. أسمع عبورها كروح مباركة، جاءت إلى بيتنا لتحط فيه الأمان. تحت جناح ملاك الرحمة كان الجميع يخلدون إلى النوم الهنيء، بما فيهم أوجاع أمي، حتى إذا مال القمر بوجهه عن نافذة بيتنا، تلحفّت دارينا بسوادها وأتت متسلّلة إلى غرفتي المحايدة عن البيت. في عمق البستان المزروع بالتبغ والشاي والمانيوك، بنيتُ عشّي بالقش وجذوع القصب اليابس لأتوحدن. هنا، بعيداً عن البيت العائلي، جعلتُ خلوتي للكتابة والتأمل. هنا كان صراعي بين ذراعي الخير والشر، إلى أن سلّمت نفسي نهائياً لهذا الاختبار العلمي الذي يرقى بصاحبه إلى ذروة الافتتان.

«كيف حدث ذلك والليل كان ساهراً على سطح بيتنا يلاعب نجوم السماء حتى لا تغفو؟ ما إن أخذني النوم إلى مناماته، حتى شعرت بهواء ساخن يهب من النافذة الشرقية ويلفحني بحرارته. لم أعِ إلاّ والزوبعة في وسط الغرفة، ترسم في الظلمة الحالكة ملامح أنثى. أساطير جدتي المنسيّة، عادت إلى ذاكرتي، صارت واقعاً، أمراً محتوماً لا خرافة. الجن كان هنا يلفح أنفاسي بروائح البراري الفجّة. جمدت مكاني والشلل يكبّلني، ينهاني عن الفرار إلى أن أصبحت سجين ذراعي أنثى، وبصوتها العذب تقول لي:

«أنا دارينا لا تخف مني. دعنا نحتفل بعطايا الطبيعة السخيّة».

«في تلك الليلة فقدت براءتي، محتفلاً بمعموديتي الأولى في جسد امرأة. هناك في بيت الأهل كانت ملاكاً ورحمة، وهنا حين يعمّ الظلام، تأتيني بسواد ليلها إلى غرفتي، جنيّةً من عالم الجان. من كبوة عمري الطري استيقظتُ و روائح البراري الوحشية تلفح بعبقها أنفاسي فأنتشي. فكما أدمنت أمّي على طقوسها الشفائيّة العجيبة، أدمنتُ أنا على طقوس هذا الحب البربري الذي طغى على إمكاناتي الفكرية وطموحاتي العلميّة. ملاك رحمة في النهار، صائمة عن الماء والطعام، تصلّي، وجنيّة في الليل لا ترتوي.

«استمرّت رسالة دارينا سنتين في دارنا، تُطيل حياة أمّي بمقدّسات أفعالها، مطمئنّة إلى تقدير العائلة لها، بينما كنت حذراً من افتضاح أمرنا. وخز الضمير كان يهبّ فيَّ بين الفينة والأخرى، ما دامت الشمس طالعة والنهار لم يلفّها الليل بعد. نظرات والدي إليّ، حين يسألني عن دروسي وامتحاناتي، كانت تغرس في نفسي أصابع الخطيئة، فأتلطى في الكذب وأنتظر دارينا في الليل لتعيد، بفنون اقترافها الخطيئة، إلى الخطيئة وهجَها وعزَّها.

«توفّيت أمي، في تلك الليلة التي توارت فيها دارينا عن الوجود. حين فرغ بيتنا من المعزّين، ناداني والدي على انفراد، وقال بصوت العقلاء:

«أنت يا ضياء، دنّست من حيث لا تدري مقدسات الموت. فبينما تتحضّر أمك لملاقاة ربها كنت تمارس خطيئة الزنى مع ملاك الجحيم. كنت أراها حين ينام الجميع، على مفعول أعشابها المخدّرة، تتسلل من نافذة غرفتك

لملاقاتك. تركتك تتعلّم من وصفاتها الجهنّمية كيف يصبح الفتى رجلاً. تركتها في بيتنا للمعاملة الطيّبة التي أسدتها إلى والدتك وأطالت بها حياتها. بعد اليوم، وقد رحلت والدتك عنّا واختفت جنيّة الناسك مع أرواحها الشرّيرة، لم يعد لك مكان في هذا البيت. أما غرفتك التي عمّرتها من زغب الطيور والقصب للتأمل والكتابة، فحوّلت لياليها إلى ذئاب تعوي. تعال وانظر ما حلّ بها. كانت شهب النار في اندلاعها الجنونيّ، ترسم في التواءاتها شكل جسدين متعانقين».

إلى هذه الخلوة المزنّرة بالمراعي وشدو العصافير على أغصان الشربينة، عدت. إنسانة حرّة، منعتقة من القالب الذي وضعني فيه ضياء، فلكم كنت في حاجة إلى إعادة ترميم ذاكرتي واستعادة اسمي الذي كدت أنساه مذ انطبع اسم دورا بيّ، وصرت طيفها، أحترق في جحيمها كي أشفى من لعنتها.

إنتظرت جواباً، يعترف فيه بالخطأ الجسيم الذي اقترفه بحقي، ثمناً لشهرته ونجاح مسرحيته المدوّية في المسارح الأوروبية. بعد فترة من الزمن، صرت أُحصي الانتظار لا بالأيام، لا بالأسابيع، بل بمواسم قطاف العنب ولمّ الزيتون، أحصيه بهجرة العصافير وعوداتها، بالأوراق الصفراء المتساقطة عياءً من أغصان باتت متأهّبة بعريها للاغتسال بأول زخّة مطر من غبار الصيف. أتاني الجواب بعدما مللتُ الانتظار. الطبيعة خارج القناطر، بيضاء، صامتة، ملتحفة ببرد كوانين، أمضي شتائي قرب الموقد، أكتب، وحيدة مع أوراقي. أشوي على الجمر رؤوس البطاطا وحبّات الكستناء، وأرمي القشور في النار فأراها تترمّد والذكريات.

سلّمني البوسطجي ظرفاً بنّياً، طوابعه البلجيكية حرّكت ثقل الانتظار. نبضات قلبي المجنونة سمعتها تلطم قفص صدري كموج على الصخر. لم أفضَّ الظرف فوراً، ألقيته على الأرائك بالقرب مني، وفي المماطلة أقاوم شوقي إلى قراءة محتواه. هذا الامتحان النسكي كان لأشبه بصائم يقهر الجوع بتفوقّه عليه. بشتى الأساليب حاولت قراءة ما في الظرف غيباً، وفي كل مرّة تتغيّر المقدّمة، عاطفية، حقودة، دافقة عشقاً، مدوية غضباً وخيبةً، إلى أن عالَ صبر الظرف الراكن بالقرب مني. فضضته. أخرجت الأوراق المطوية منه وعبرت من وكري الدافئ إلى ضوء النهار المتوهّج ببياض الثلج. هنا، بين القناطر وفي صمت الطبيعة، اطّلعت على سرّ المرأة التي أغرقت ضياء في لججها واستملكت برضاه، طاقاته الفكرية والجسدية، إلى أن أصبح عاجزاً عن استرداد روحه.

في رسالته، لم يأت ضياء على ذكر ما اقترفتُه عمداً في الليلة الختامية من تشويش على مسار المسرحية. قرأت سيرة إنسان جريح، كان طامحاً إلى العلم والمعرفة إلى أن دخلت المرأة المجهولة البيت، تشعل البخور نهاراً، وغرائز الفتى ليلاً، حتى أدمن على الليل، وما عاد يريد سواه ليحيا.

«إبناً ضالاً صرت و من بيت أبي طُردت لاستهتاري بمقدسات الموت. عادت دارينا إلى عالم الجان تاركة إرثها السحري فيّ. صرت من أهله، موسوماً بطقوس الميتولوجيا القادرة وحدها على أن تدلّني إلى مسرح أستعيد به اتصالي بها. من وحيها كتبت وأخرجت «دورا طائر يغني في الليل»، ورحت إلى معاهد المسرح أبحث عمن في إمكانها أن تؤدي

الدور، إلى أن سمعتك في ذلك اليوم الامتحاني في معهد المتوحّدين، تصرخين من أحشاء ممزّقة «أنا قتلت أمي لأحيا». أدركت أنك ضالتي. صرت أتشخّصك هي، بكل ما في شوقي إليها من مخيّلة، حين كنت تطلقين العنان لهذا الطائر الأسطوري على الخشبة، فأراك من حيث أنا، كتلة نار في جسد امرأة... فكما رحلت هي، رحلتِ أنت بعد أن كوّنتُ منك أسطورة على صورتها ومثالها. فهل أعود وأجدها يوماً حيث لنساء الأساطير مكان وعنوان؟ أورفيوس الشاعر الميتولوجي هو أنا. الأسطورة تروي أنه حمل ستارته ونزل إلى الجحيم يغوي بأنغامها السحرية آلهة الموت لعلّها ترجع إليه حبيبته أوريديس. عاد إلى وحدته، حزيناً، منكسراً بعد أن فقد أمل العثور عليها. بعد بحثي الطويل عنها، وجدت نفسي نسخة خرافية عن أورفيوس، وحيداً، مطروداً من عائلتي، ووطني. عدت الآن إلى أوراقي أكتب لأبقى، أكتب كي أرى في أفقي البعيد مسرحاً أعيد عليه بناء وجودي.

رشا بُنيّتي، لا تنسي ما بنيناه معاً، فلنبق على خط المراسلة، فالكتابة هي اتصالي الوحيد بك، أنت الباقية في البال».

طويت الرسالة والأحساس بالبرد غاب عني. تعرّيت من ثيابي وارتميت على الثلج أتمرّغ في بياضه العذريّ، لأتطهّر من الخطيئة السوداء التي صبغتني بها دورا. أسئلة كبرى راحت تتدافش في فكري ولا أجد مَن، مِن حولي، باستطاعته تنويري كي أفض الغموض الملتف حولي. السؤال الذي تقدّم على جميع الأسئلة، وما عاد يفارق تفكيري، «هل كان كل ذلك من

نسيج خيالي الواسع، أخذني على جناحيه وطار بي إلى عالم خرافي عجيب لأتحرّر من غشاء التوحّد الضيّق؟»

عدت إلى ركني شبه ملتصقة بالموقد، أسترجع برويّة حقبات عمري. من ثريا أمي ورثتُ أوهامها وتخيّلاتها. هكذا كان اطّلاعي عليها في ما كتبه والدي عن امرأة أحبها حتى الجنون ولم يحظَ معها بلحظة هناء. حاول احتواء الغربة المتأصّلة فيها وترويض أحلامها السوداء، لكنها بقيت في صراع صامت مع ذاتها. ثريا، لولاها لما ورثت فستانها المخمليّ الأسود الطويل. لولاه لما كان ما كان...

شتاء القرى طويل ولياليه كالغمّ، تقبض على النفس الوحدانية وتصم حواسها. عقارب ساعة الجدران تحرّك الثقل القابع في أعماقي، أسمع تكتكاتها تحاكيني، تُلهيني عن عواء الواوية الجائعة. أليفة وحدتي حين يعمّ الليل، وأسمع من أعماقي عواءً أشدّ جوعاً. الوقت المحصور في ساعة الجدران يذكّرني بسلمى، جدّتي. الوقت الذي كانت تتعامل معه كمرشد يُنيرها في النكش والري والتشذيب، يتحوّل حين تقف جامدة أمام ساعة الجدران إلى عدو لا يرحم، خطف منها يونس ورفيق، من دون أن يأبه بما خلّفه وراءه من حزن وأسىً. الوقت كان له شكل الحرية نهاراً، يبث فيها حيوية وإيماناً عجيباً حين تلمس عطايا الطبيعة السخيّة. تجلس ساعات تتحسّس فيها معجزة الخلق، أمّا والليل يناديها للعودة، فكنت أراها تتقوقع ضجراً، يحاصرها الليل، والمسبحة بين أصابعها تفرط حباتها تمتماتٍ تقيّةً، بينما الفكر الحرّ هناك حيث سرٌّ بقائها.

بعد قراءتي مرّتين وثلاثاً رسالة ضياء، واغتسالي في نقاء الثلج لأتطهّر منه ومنها، دخلت الليل الذي لم يكن ليلاً، بقدر ما عثرت فيه على ما ضاع مني، غشائي الذي حمى توحّدي من شر الإنسانية إلى ذلك الحين. الصمت لم يكن نهائياً ما دامت عقارب ساعة الجدران وفيّة لاستمراريتها، ذلك العدو الذي كانت سلمى في صراع دائم معه. الثواني صرت أتلقّاها منقسمةً عن بعضها: «تيك» كقطرة جليد جامدة فوق رأسي، تليها «تاك» أكثر ضراوة، تضج في دماغي ككابوس مريع، لعلّها هي التي حملت والدي على الكتابة ليخلص من شياطين الليل.

لمّا لم يعد في الموقد جمر، ولا كستناء للشّيّ، ظلّت شرارات، من بين الرماد تنزّ، ولا تستسلم. في صراعها الكتوم للبقاء، قرأت رسالة منها إليّ، «انزعي عنك هذا الكفن واخرجي إلى الحياة».

نفضت الرماد عني واتصلت بخالتي روزا، ومَن سواها في هذه المدينة أعرفه وأشتاق إليه، وجميعهم باتوا هنا على مقربة مني، أكلّمهم كلما قمت بزيارة المدفن العائلي و أنتظر من حيث هم، خبراً يواسيني. ما كادت تسمع صوتي حتى انهالت عليّ، تُفرغ أكواماً من المرارة المطمورة في قلبها:

«من أي صنف من البشر أنت وأختك سناء؟ جاحدتان، عقوقتان، كفرتما بالنعمة التي اقتلعتها من ريعان عمري لأحلّ محلّ ثريا. ربّيتكما بين ذراعيَّ حتى لا تشعرا بفقدان الأم، وانتظرت منكما خبراً، اتصالاً يرمم الهوة التي صارت تتسّع بيننا. فهل سألتِ عني، يا رشا، يوم كنت ألملم فتات زواج فاشل؟ هل حاولت الاطمئنان عليّ وأنا أعاني كسور قلبي، كما كنت أطمئن

عليك وأسعى إلى تحرير العصفور الصغير العالق في القفص، وكلّي ثقة بأن الحب هو الشافي...».

من صوتها المتقطّع أدركت أنها تبكي:

«والآن، ماذا تريدين مني، بعد كل هذا الغياب في خلوتك، لا خبر ولا اتصال؟».

لم يكن لديّ ما أقوله بعد كل الاتهامات التي رمتها عليّ وعلى سناء الغائبة. بإفراغها القيء المتعفّن في جرح لم يندمل، بان لي وجهُها الخفي، المتألّم بصمت طوال عقود، إلى أن طفح الكيل بمجرّد سماعها صوتي. الاستخفاف الذي اقترفناه بحقها حملتْه شكوىً أليمة إلى محكمة الضمير.

أقفلتُ السمّاعة. دماء أمي وأختي ووالدي جرفت في نزفها دمي. كانت على حق في النعوت التي ألبستني إيّاها. سناء تمرّدت ومضت ثائرة على والدها و البيت والوطن. أمّا أنا؟

كانت هي من استقبلني بعد هربي من دورا وضياء. مشروع المسرح الذي أخبرتها عنه، حرّك نخوتها على العمل معي. ودّعتها وهي تحذّرني بألاّ أنساها. ونسيت. حاجتها إلى توظيف طاقاتها معي في إدارة مسرح جبيب، كانت كلها أملاً، تعلّقتْ به لعلها تستعيد الوقت الضائع. مع صياح الديك، جمعت حياتي في حقيبة، وأوراق جهاد في ملف خاص به، وأقفلت بيت العقد. هكذا كان قراري بعد إتصالي المفجع بروزا. أُخلي عين الشمس للواوية فأدعها تعوي الليل بمفردها من دون أن أشاركها في جوعها.

يتأخر المتوحّد في استيعابه الأمور التي تعبر أمامه. فلكم من وقت مضى حتى أدركت أن للأشجار أوراقاً، وعلى أغصانها تصطف العصافير جوقةً واحدة، وأن للبيوت نوافذ وللوجوه أعيناً. ضياء هو من أنقذني من عتمتي وفتح لي باب زنزانتي. ضياء، كعالِمِ آثار، قلب تربتي وانتشل منها كنوزاً مخفية في أعماق باطني. هذا ما قاله.

المدينة، شبه المدمّرة، لم أكن مستعدّة للعودة إليها قبل أن أنهض بالدمار الذي أصابني. في الطبيعة الساكنة، كنت أرمّم الساقط منها بتأملاتي وتيهي عن البراءة التي أضعتها على مسارح العالم. امرأة مفبركة كنت، أنفّذ دوري بكبسة زر، ثم أدخل في ليلي، راضية، حتى لا أسمع الأنين المخنوق في أعماقي. بيت العقد هو جرن العماد، الذي يطهّر الإنسان من خطاياه. هنا طمر والدي أحزانه وخيباته، وسدّ أذنيه عن دويّ الراجمات وكتب. بيني وبينه رسائلُ سوداء عن حرب طويلة كان يصفها بلعنة مدبّرة لخراب اللحمة بين اللبنانيين. هنا كان مأواه، حين تدفع به ازدواجية ثريا وجنونها إلى هوّة إليأس. عدت لأحتل مقعد والدي وطاولته، وأستمع إلى نبرة صوته في أوراقه:

«في زمن الحرب أدركت أن الكتابة سرٌّ رسولي. أشعر بيد خفيّة تمسك بيدي وتحثني على الحفر في بدن الورقة وقائع، كانت مستترة في ليل تربيتي الصارمة، فإذا بها تلتحق بالشمس لتستنير بها».

كيف استطاع فارس أن يجمع ركام حياته في الكتابة؟ ظلّه يرافق ابنته في نزهاتها في الطبيعة، تقول له: «أبي فلندع الأموات في مدفنهم،وننظر إلى ما حولنا. الكروم والبساتين لم تأبه بغيابهم، تُبدّل مع كل فصل ثوباً وألواناً،

فلنكن على صورتها، لعلّنا نسمع من جديد تغريد العصافير، لا كما وصفتَها بعد وفاة ثريا، «العصافير تنشد بعد اليوم، لحن الموت».

في قرارة نفسها لم تكن واثقة بهذه المصالحة الكاذبة مع القدر. عودتها إلى هناء بيت العقد لم تدمل جروحها، فهي لم تتحسّس تحت بشرتها، السلام الذي تنشده. فحتى في تمرّغها في الثلج لتنقى، لم تتجرّأ على الاعتراف بأنها ستظل إلى أمد بعيد، نقيع ماء عكرة لن تنجو منها. ضياء، مهما تمرّغت في الثلج لتبرأ، سيظل هو من فتح لها القفص لتكتشف خارج قضبانه أنها امرأة.

«الكتابة فعل وراثة ووشم لا يزول. من دفاتر فارس أشرقت فيَّ فكرة المسرح، وتوسّعت بعد مطالعتي أوراق جهاد، إلى حين قرأت رسالة ضياء. من هذا البوح الذي وصف فيه دارينا بصورة أسطورية لحورية من كائن بشري وجنّ، صرت أتخيّل أورفيوس في حزمة ضوء المسرح، يبعث من أنغام ستارته برسالة حنين إلى الغائبة. المشهد في خيالي اتّخذ مكانه على الخشبة. صوت المرأة الذي كان يعلو في فضاء المسرح، صوتي، ما زال يقرع في أحشائي كطبول الحرب.

لقائي كوثر كان بداية عمل دؤوب وشغوف. في حي شعبي من بيروت أقامت كوثر عربيد عيادة، باتت منذ انتهاء الحرب محجّاً لطالبي الشفاء من الإدمان على المخدرات والكحول والنكسات العاطفية. جهاد، الشاعر الحزين، هو من كلّمني على كوثر عربيد، طبيبة جمعت العلم والفنون المسرحية في وعاء واحد. في ذلك اليوم الذي أخبرني فيه عن ماهر وسناء،

والجو بيننا مشحون بتراجيديا عاشقين حملا معاً قضيّة الإنسان المعذّب وماتا معاً بقبلة وداع دامية، لم يأت على ذكر علاقته بكوثر. اسم خطر في باله وأنا أروي له تجربتي مع المسرح في الغرب، ومن محاصيلها وُلد مشروع مسرح على خط التماس بين البيروتين لمحو عار التفرقة بينهما.

بين رزمة الأوراق التي سلّمني إيّاها، توقّفت مليّاً عند قصيدة حب مهداة «إلى امرأة مدت يدها وانتشلتني من عذابي فقرأت على وجهها، «وجه الله»

قصيدة تماهت فيها اللغة، فصرت أتلقّاها في سمعي، نغماً شجيّاً، إيقاعياً، روحاً هائمة فوق الرماد. الكوثر، هذا النهر الفردوسي، عاد في كل مقطوعة، ينشده اسماً نورانياً ردّ إليه روحه، ليسأله «وأنت أيتها الروح الجليّة، أما سمعت نداء حبي لك؟».

أصبحت كوثر هاجسي، وزاد اصراري على لقائها. قصيدة جهاد أوصلتني إليها. برفقة روزا أليفة شوارع المدينة وأزقّتها، قرعنا باب عيادتها في حي مار مخايل. الوقت الذي أمضيناه معاً نتبادل، كل من ناحيته، اختباراتها، وتجاربها، كان واقفاً، يدوّن أفكاراً ترتّق تمزّقات الوجود، و من أسمالها ثياباً جديدة. حين بدأت أروي لها حكاية الفتاة المتوحّدة، المنبوذة من مجتمعها، إلى أن قادها القدر إلى شفائها بفضل المسرح، ازداد اهتمامها بي. قصتي المختصرة من التفاصيل، حظيت لديها بما جئت أبحث عنه. قالت:

«فلنسرع في العمل معاً ولا نهدر الوقت، فالسلام على الرغم من هشاشته، يدعونا إلى رصّ المواهب وترميم ما أتلفته الحرب من موارد لدى الجيل

الصاعد. المسرح هو المشروع الذي خصّصت له فرعاً في برنامجي العلمي الواسع إلى جانب فروع أخرى، كالرسم والموسيقى والرقص...».

كانت تتكلّم بلسان دولة حديثة، متطوّرة، واعية على مصير أبنائها، إلى حد إنشاء مشروع جبار يجمع كل هذه الفنون تحت راية الطب النفسي. انتظرت أن تختم نظريتها الشبيهة بالحلم، لأعطيها نماذج عن معهد المتوحّدين في بلجيكا حيث كانت إقامتي، وأقارنه بحلمها الأوتوبي اللبناني».

بنظراتها المحدّقة فيّ كانت تقرأ كلامي وتدوّنه على ورقة، إلى أن سألتني:

«ألهذا السبب عدتِ إلى الوطن، وفي بالك مسرح على هذا الخط القاسم العاصمة إلى بيروتين؟ جهاد الشاب الفلسطيني أليف عيادتي، هو من كلّمني على مغامرتك تلك، حتى بتّ متشوّقة إلى التعرّف إليك».

«دكتورة كوثر، لقد أتيتُ على ذكر هذه المرحلة الشاقة و الشافية من حياتي، لعلّك تستشفّين منها أن ساعداً وحدانياً لا يمكنه تحقيق ما في خيالك. أنت في حاجة إلى من يدعم مشروع حسّاس ومكلف كهذا، ولاسيما إلى دولة متيقّظة، همومها الأولى حاجات الشعب وإصلاح العاهات المتفشيّة في خلايا المجتمع، فيأتي برنامجك على قائمة الإصلاحات البشرية. أنا منذ اليوم مجنّدة للعمل معك. الحقل واسع، سيدفع بي إلى البحث عمن بقي في الوطن من الذين صنعوا الحركة المسرحية ونهضوا بها، إلى ذلك اليوم الأسود الذي اشتعلت فيه الحرب وباتت هي المسرح. إرشاداتهم لا بد من أن تزيل العثرات أمام فكرة جديدة تسعى إلى شق طريق لا خطأ فيها، أملاً في الوصول إلى ترميم ثغرات في المجتمع».

بدأت أشعر بألفة حقيقية مع كوثر، تقيني غربة المدينة وأنقاضها، ولاسيما حين دخلت في حميميات المسرح الذي لم تكن تعرف عنه سوى ما أخبرها به جهاد:

«الخلوة التي لجأت إليها في بيتنا القروي، كانت تكريساً مني لإرث والدي الأدبي وجمعه في كتاب، كما لقائي من جديد الفتاة المتوحّدة، وسبر سر ولادتها مقمّطة في غشاء، منع عنها أي تواصل مع الآخرين. يعود فضل خروجي من زنزانتي، إلى والدي الذي أرسلني إلى معهد المتوحّدين في بلجيكا حيث اكتسبت ما يليق بعصفور أن يكون له جناحان. بهما استطعت أن أحلّق في فضاء المسرح وأحقّق فيه شفائي. والآن، عدت إلى بيروت لأبني مسرحاً يحمل اسم والدي، فارس رستم، في هذا المكان الذي لقي فيه مصرعه برصاصة قناص. البناء الشاهد على عنف القتال، ما زالت في مؤخّرته خربة حاد القصف عنها، إلى أن عثرت على مالكها واستأجرتها منه بقيمة زهيدة، أرفقتها بسلّة من العنب قبل أن تقضي الثعالب على محاصيل الكرمة كلّها».

كان لا بد من نهاية طريفة لقصتي. الثعالب التي تحب العنب حلّت بيننا، فضحكنا من عمق قلوبنا.

«والآن- سألتني كوثر، وهي تمسح دموعها من فرط ما ضحكت- ماذا تحضّرين لهذا المسرح الذي أظن، صار لي فيه مكان؟»!.

«بين يدي دراما لثلاث شخصيات ذكورية. لن أقول أكثر. عليك أن تجدي بين مرضاك من يثيرهم الخروج من أسمال تراجيديّتهم و الدخول في أسمال

تراجيديات آخرى. سأعود إلى خلوتي لأبني من وحي النصوص الثلاثة ما بدأت تراه مخيّلتي على الخشبة».

«ومتى سنبدأ بهذه المغامرة الشيّقة معاً؟

«هذا العمل شاق يتطلّب التأني والتمهّل. سوف أغيب الفترة اللازمة حتى يكتمل ويغدو جاهزاً. المتوحّد لا يسرع. ليس بماراتوني هو».

روزا الصامتة حتى تلك اللحظة، تصغي إلى كل منا، كان لها ما تقدّمه إلى هذا المشروع:

«الموزاييك الذي احترفته في معهد الفنون، قد يكون فرعاً من برنامج واسع. هذا الفن يتطلّب جَلَداً وذوقاً. انا متأكدة من أنه سيجلب بعضاً ممّن يتعالجون في عيادتك. الشقة التي أعيش فيها، هي محترفي في آن معاً. وإذا راق لك المشروع، أستطيع أن أحوّلها إلى محترف لمن تجدين لديهم شغفاً بالموزاييك، مادة مضمونة لعلاج النفس».

قرأت فوراً ما في نفس روزا. لعلّها وجدت في رصف الحجارة الملوّنة علاجاً ترتّق به تمزّقاتها.

كان جالساً على عتبة التخشيبة وعصاه الممدّدة على خط مواز للساق السليمة، يستبدل بها الغائبة. هكذا كان يوم جئت إلى المخيّم أسأل عن سناء. أغلق الكتاب حين رآني، وبابتسامة طافحة من وجهه سعى إلى استقبالي على ساق واحدة من دون الأستعانة بعصاه، كطير ميتولوجي علّمه الهواء الطيران بجناح واحد. هرعتُ إليه وعانقته بما احتويته من بوحه الحارّ، ونفسه الروحانية المتألّقة في رحاب الكون. هكذا استدلّيت عليه، عارياً من قشور الحياة، بينما كنت أقرأ رزمة الأوراق التي أئتَمَنني على مطالعتها.

كان الطقس بارداً، يوحي بأمطار طال انتظارها. دعاني للدخول إلى وكره كما سمّاه:

«هذا كل ما بقي لي بعد المجزرة. صور لعائلة عاشت فقر المخيّم على أمل العودة. هذا الحلم العبثي لم يبارح إيمانها بأن الأرض هي أوّلاً وأخيراً لأصحابها لا لمبتزّينها».

الصور بنيّة اللون، من زمن بعيد. «وصلت مع مفتاح الدار، كوفاءٍ للذاكرة، الحامية حكاية التراث والهويّة من الانقراض. الذين وُلدوا في أرضهم، عملوا في هذا النزوح الإجباري على زرع وشمٍ أزليّ في دم الأجيال المتعاقبة، الذاكرة، حتى لا تصبح صفةُ لاجئ، انتماءتنا، تأشيرتنا، جواز سفر. صفة مهينة لبسناها كِنيةً وكفناً، مذ سعى التاريخ الأسود إلى محو وجودنا مهما حاولنا صيانته».

لهذا الوجود تاريخ، انتشل بزّة مخمليّة مطرّزة بخيوط فضيّة، لم يكد يفرشها على الكنبة حتى عبقت الغرفة برائحة النفتالين:

«ستون عاماً عمر هذه البزة المقصّبة، لبستها جدتي يوم عرسها، ومن بعدها بنات العائلة. بعد كل عرسٍ تستعيد مكانها في صندوق الجهاز، تنتظر بحسب التقاليد، العروس القادمة لارتدائها. ذكرياتٌ ترويها أمّي حين كانت العائلة تجتمع حول المائدة:

«البزّة المقصّبة، جاءت في موكب النزوح، وأجراس الموت تقرع حداداً على الوطن السليب، بينما بقيت أمي هناك، تروي أحواض الحبق بدمها».

بشيء من الطرافة كان يتحاشى جهاد، إبراز مأساة كامنة في جيناته منذ اللحظة الأولى لتكوينه في أحشاء أمّ، كان لخيالها الواسع أثر كبير في كتاباته:

«صغيراً كنت أتحوّل بعصاها السحرية إلى رسول مبعوث لخلاص فلسطين، إلى أن شبّ وعيي، وصار على قدر استنباط ما ترويه ذاكرة أمّي المشوّشة، أستمع إليها على غرار أخوتي ووالدي، ولا أقاطع السيل الذي

على مجراه، كانت تبحر إلى ذكريات، هي ذاتها، لكن بأسلوب مختلف، يتغيّر فيه الشكل والمضمون. سيدة مسرح كانت، لها في كل حكاية ترويها عن حياتها في حيفا، دورٌ، تلقيه علينا بفنٍّ تعبيريّ لائق بممثلة تراجيدية كبيرة، إلى حد كان من الصعب التفريق بين الواقع والحلم. مع العمر، ذبلت ذاكرة أمي. لم يحمها النفتالين من عدوان العثّ الذي أمعن نَخراً في نسيج بِزّة جدّتي التراثيّة».

قلت: «ما رأيك يا جهاد لو تعيد بزة جدّتك إلى صندوقها و نتكلّم عليك، محور مجيئي إليك اليوم. فأنا لم آتِ فقط لأعيد إليك ثروتك الكتابية، كما وعدت، بل لنجعل منها نقطة تلاقٍ مع كتابات أخرى، أنا في صدد العمل عليها لمشروع مسرحية تجمع ثلاثة ذكور كتبوا بأقلامهم محطات من وجودهم دمّرت آمالهم أو أحيتها. هذا البوح الفردي يتوسّع شيئاً فشيئاً ليشمل الكل في النهاية. ثلاثة في كائن واحد».

أمسك برزمة الأوراق، فك عنها الخيط الماسك حفّاتها من التبعثر، تأمّل فيها هنيهات كمن يتيه في أوراق عذراء، لم يتسنّ للقلم بعدُ أن يفضّ بكارتها. أتاني صوته متعادلاً بما جاء في الورقة الأولى:

«حين أصبحت وحيداً بعد مصرع أهلي ورفاقي، رحت أتبع الأوامر التي يفرضها عليّ جسدي المبتور. بإيعاز منه، أدركت عدم طاقتي على الطيران خارج سربي المرمّد. قلمي كان ساقيَّ وجناحَيّ، فأنا ابن أمي، أخلق من العدم ملكوتاً ومن بِزّة نخرها العث أعراساً. لذا وددت أن تشاركيني فوحها الخانق قبل أن نتحاكى عن هذا الزمن الواقف على حصاة حاضر متأرجح».

أيكون جهاد ذلك الإنسان الجديد الذي جئت أبحث عنه لعلّنا نتداوى معاً من خدوش الوجود؟ خلته، وأنا أستمع إليه، من طينة والدي الذي دفن مُثله العليا معه، من دون أن يجد حوله شريكاً يسير معه في طريق العقل المتالّق.

«سمعتك في أوراقك تهلّل للوحدة وتبتهج لكونها وهبتك نعمة الكتابة، هكذا كان والدي، ينفرد في غرفته لا لينسى، بل كي تتذكّر الورقة عنه ما تكاد تمحوه ذاكرته. فبالرغم من المآسي التي عاشها، فإنه لم يدع الوحدة السوداء تغلبه. من طينة جدّته سلمى التي كانت تلوّن الأحزان المتراكمة على كاهلها بالغناء، ظلّ مَديناً للرزق، يغدو مع الفجر إلى الكرم والزيتون، لإتمام مسؤولياته، كمهندس في الزراعة وخصوصاً كعاشق، أحب الأرض كما أحب المرأة. الحبر الليلكي الذي كان يكتب به، والماء التي كان يَسقي به زرعه، تلاقيا في هذا الكل الذي كان يصبو إليه، حماية الذاكرة».

انتظرت منه أن يقول شيئاً تعقيباً على كلامي. كان هائماً في عالمه. أمسكت يده حتى يبقى التواصل بيننا ممكناً:

«عندما يهبط الليل على المخيّم، يعتريني خوف، كخوف الأطفال. أغدو طفلاً في حاجة إلى أغنية ولو كاذبة من الأغاني التي ترنّمها الأمهات، لأنام. ومع شروق الشمس على الناس أشعر بأني أتطفّل على ضوئها. هذه المساحة الصغيرة الحاوية النهار والليل تختصر إنسان المخيّمات، دخيلاً على أرض ليس له فيها ذاكرة ولا تراث. رحلته تنتهي على الزِّيح الفاصل بين أبناء البلد وغربته. فمن لم يحمل السلاح ليثأر من هؤلاء المتنعّمين بوطنٍ وهوية ولهجةٍ صافية لا تشوبها الشكوك، بات على هامش محيطه الضيّق، حيث كُتب له أن

يولد خطأ ويعيش مذَّبجاً بالأخطاء لأنه فقد ثقة الثوّار، من جهة ولم يجد بين المستسلمين لليأس مكاناً يقيه شرّهم من جهة أخرى. لذا أصبحت الكتابة وحدتي، والمقالات التي أتراسل بها مع الصحف المغربية والأردنية ضمانة للقمة عيشي. الغجري التائه، المطارد هو أنا، هذا المجنون، المبتور، ليس فقط من ساقه بل من رفاق، سعينا معاً إلى أن نواجه السلاح الفتّاك بغصن زيتون، أملاً في أن نكون ناشري سلام ورسل محبة. دماؤنا أُهدرت بلا جدوى».

كيف آتي لمواساته وتنقية القمح من الزؤان المتراكم في سهله، وزؤاني بتُّ أطحنه بمرارته وأشرب ماءه دواءً لدائي؟

«نحن يا جهاد من أصناف المطهريين على هذا الكوكب الأرضي الذي صمّمه الخالق بحنكة معرفته للجنس البشري. كوكب نصفه مطهر ونصفه الآخر جحيم. الفردوس أسطورة مبتكرة للتمسّك بالوجود. تعال معي نُعِدْ ولادة الإنسان من عصارة المسرح. الإنسان المهرّج، كما التراجيدي، المتفائل بالوجود كما المتشائم، العاشق كما الخائب. الأوراق التي أعطيتني إيّاها، وجدتك فيها. إنساناً روحانيّاً، خرق غشاء أسرار الكون بالروح العليا الساكنة فيه. سمعتك وانا أطالعها، تبكي تارة وتارة تقهقه ساخراً، فيأتيني البكاء والضحك على غفلة معك».

قاطعني، حتى لا يتيه عن كلمة عبرت في فكره:

«إيّاك يا رشا أن ترفعي هذا الصعلوك الجالس أمامك إلى مستوى الملهمين، العاملين على إصلاح المسكونة. أنا لا أكتب من أجل الوصول إلى جائزة

نوبل للسلام، صراعي على الورق لا يخص إلاّ ذاتي. أكتب لأغدو أفضل في مرآة ضميري. أكتب، وليس في خيالي بطلٌ أسطوري يسعى من على صهوة فرسه لأن يكون الوعد الآتي، الذي ما زالت شعوب الأرض في انتظار مجيئه، حتى يعمّ السلام. من تخشيبتي وعلى رائحة النفتالين العابقة من صندوق جدتي، أبني من ورقتي شبه حلم».

الوطن الذي يشتاقه جهاد، شجرة، لا يؤمّ أغصانها سوى الطيور المهاجرة. كان في هذه الجلسة واحداً منها، غريباً عن محيطه، مقتلعاً منه، لا ذكريات يمجّها بمرّها وحصرمها، سوى تلك التي قرّر أن يشرّع قلبه على الملأ ليكلّمني عليها:

«أقفلت على حالي حين أقفل أهل المخيم قلوبهم عني. كنت ذلك الغريب الدخيل على همومهم. قرعت باب كوثر عربيد لعلّي أُخرج أمواتي من ذاكرتي. طلبتُ منها علاجاً وإصغاء. كانت عينها على الفراغ حيث كان لي ساق، وباليد قلمٌ تدوّن به ما أقوله، بينما كنت أحاول نبش الثغرات التي زعزعت حياتي. صرت أروي لها وقائع حدثت، وهواء المخيّم يعيدها إلى ذاكرتي هبّات، محقونة برائحة الدم. بعدها، عدت إليها مرّات حتى أدركت ما في نفسي. كوثر لم ترمّم هويتي المبتورة، لم تكفكف غربتي، لم تملأ بنظراتها المشعوذة الفراغ الذي منه صار جذعي مزعزعاً. أحببتها في سرّي، أسير طبيعتها الصلبة أصبحت، أسبر من جذعها المتين قوّة وواقعاً لوجودي الهش، فالحب، ولو على خط واحد، يمنح العاشق هوية وخيالاً. هذا ما تسنى لك قراءته من بين هذه الأوراق».

سألته: «أيكون كل هذا التسامي للمرأة وكل هذا العشق، من نسج الخيال؟ حبرك ينزّ بوحَاً وحدانياً، مشتاقاً إلى عطرها، إلى طعم شفتيها، ويقف عند سرّها محتاراً ولا يبلغ المنتهى».

قال وعيناه مغمضتان على سرّ عميق:

«أنا في اتحاد روحي مع هذه الكائنة، فلا ملمس لكونيّتها سوى في الكتابة حين تغدو الورقة فراشاً تلتئم عليه الروح بالجسد، ومعاً يكتملان في فعل التسبيح للحب. كوثر، في لقائي إياها، حسبتُ أني عثرت على من ينير شمسي من جديد. وددتُ منها ما يروي أرضي اليابسة، حبّاً، يعيد إلى جسدي المبتور نصفه الآخر. لكن نظراتها الشاردة في فراغ ساقي، كانت تعبيراً واضحاً عن الهاوية الفاصلة بيننا. بأسلوب لائق، أتت على ذكر المعجزات التي باتت تتحقق والحرية التي باتت تمنحها الأعضاء الأصطناعِية، لجرحى الحروب. لم يكن لديّ ما أقوله لها، وبالأسلوب اللائق ذاته، سوى:

«دكتورة كوثر، جئت إلى عيادتك لأرمِّم كسوري النفسيّة والروحية أكثر من كسوري الجسديّة».

عادت تتفحّصني في حين كنت على يقين بأنها لم تكن على قدر استنباط الفراغ الإنساني الذي كنت أعانيه».

كان عليّ أن أتدخّل لفضّ سوء التفاهم الذي ابعده عنها:

«إذا كان المسرح هو الجرح الذي جئت أداوي به جروح جيل هذه الحرب،

فهو أيضاً المكان الذي عليه تقال الحقيقة الفجّة والجارحة. فالمسرح يداوي. الحقيقة الفجّة، اسمعها منّي يا جهاد، ونترك اللباقة وظرافة اللسان لكوثر. ما حدث بينكما لا يستدعي بصّارة برّاجة لفك فحواه. أدركت كوثر بوادر مشاعرك المبهمة تجاهها خلال زياراتك المتكرّرة لعيادتها، ولم يغب عن بداهة تفكيرها، أنك جئت إليها لتداوي الفراغ الذي تركته المرأة الغائبة في حياتك. كوثر الإنسانة الجذّابة، المتحرّرة من قيود مجتمع ما قبل الحرب، لم تتعثّر في افهامك، على طريقتها، أنها لن تكون البديل عن حبّك الضائع. بلباقة، كلّمتك عن الأعضاء الأصطناعية بديلاً عن العضو المفقود، لعلّك، بمشاعرك المرهفة، تعي مغزى كلماتها. بتفرّسها في الساق المبتورة، أرادتك أن تفهم أن لبنان لن يكون وطناً بديلاً عن فلسطين؟».

الصمت المثقل بصراخ جوّاني أوقف تكتكات الثواني بيننا. رأيته، بأصابعه، يمسّد ذاكرة الساق الغائبة، بينما رحلت بي ذاكرتي إلى كل الذين دفعوا فدية حبهم غالياً، إن بالموت أو بالتشرّد. ماجد ونسرين، فارس وثريا، ضياء ودارينا، سناء وماهر، إلى لقائي هذا التائه بين المرأة الجسد والمرأة الروح، يجمعهما في شِعره لتتسع آفاق حياته. سبر ما في فكري:

«رشا، سأكون ركناً من رؤاك. أعطني الوقت لأكتب دوري في هذه المسرحية. الرجل المبتور الساق سيكون صانع أحلام، كاتباً وممثّلاً. لبنان لن يكون بديلاً لأي شعب كان».

قمت بلهفة وأخذته بين ذراعيّ، طفلاً كسر قوقعته ليطل على الحياة.

ضياء، معلّمي ورفيقي

ها أنا أكتب إليك بعد بحثٍ جدّي عن أسلوب سليم وصحّي، يصلني بك مجدّداً بعد غياب، ومن بدون تردّد يمنحني حرّية التعبير عما في نفسي. العجينة التي كنتَ تدعكها بين أصابعك لتجعل منها مسرحك الناجح، أصبحت اليوم بفضل تعاليمك، وسطوتك على تلميذتك، بين أصابعي. من مقاديرك العجيبة، الباهرة، التي منها صيّرتني «دورا»، حبّك الضائع، أخذتُ الجوهر الذي من دونه لا يولد تفاعل بين الممثل والجمهور. الحلم الذي بات يراودني مذ عدت إلى الديار، وما من دعامة سياسية أو حزبية أو ميليشياوية، تطلق لي حرّية تحقيقه، كان أولاً، في إنشاء مسرح على خط التماس الذي لقي عليه والدي حتفه. الخربة الضائعة بين البيروتين أصبحت ملتقىً لمن كانوا أعداء في الأمس القريب. الخربة الشاهدة على عابرين ماتوا

على هذا الخط الوهمي لرفضهم مخطّط التقسيم الجهنّمي، تخيّلتُها نقيض التباعد والتفكّك، تعيد إلى المدينة الممزقّة، نسيجها الواحد. كأني كنت، بالفكر، أتخاطب مع جيل الحرب. شباب وشابات، لبّوا نداء المسرح و دخلوا في هذه اللعبة التحريضيّة التي تسألهم عمّا يشعرون به حين يسمعون صوت خوفهم. يتردّدون في البدء. فالخوف القابع في دواخلهم يحتاج إلى طمأنينة تحثّهم على البوح. المسرحيات الأولى بدأت تعطي ثمار الطمأنينة والتقارب، كما كانت صفحة البلد البيضاء، قبل الانشقاق الذي اقترفه المخطّطون له. بهذا البوح، الناجم من أعماقهم، أطلقوا العنان لوجعهم، لغربتهم، لتفكّكهم، لإدمانهم على المخدرات للنسيان.

«معك يا ضياء، خرجت من قشرتي لأوُلد زغلولاً صغيراً، نفحتَ فيه ريشاً ليحلّق، حتى صرت على يقين بأن المسرح قادر على أن يجمع شتات الإنسان على خشبة. رسالتي هذه أتمنّاها جسراً يرمّم العلاقة بيننا،وأذناً صاغية منك تستشف ما جئت أطلبه منك.

«على خط موازٍ للمسرح العلاجي، الذي أصبح عيادةً لطالبي الصوت، بدأت أضع ملامح مسرحية تتخطى حدود الهويّة، وسمة بلد. شخصيات ثلاث، غرباء عن بعضهم البعض، منفيّون عن واقعهم، مقتلعون من أرضهم، يلتقون على خشبة واحدة، لكلٍّ حكايته و ضياعه و بحثه عن أناه الأخرى، إلى أن تجمعهم حزمة الضوء، عند النقطة الواحدة التي لا مفرّ منها: المرأة.

«من وحي كتابات فارس رستم استقيت الشخصية الأولى، إلى أن قادني بحثي عن سناء شقيقتي، إلى المخيّم الفلسطيني حيث كان لقائي جهاد. في

ساقه المبتورة، قرأت تراجيديا شاب مشحه الموت من دون أن يكون طرفاً في القتال. في الأوراق التي سلّمني إيّاها، عبرت المرأة كالخيال، تاركةً في عبورها لحن قصيدة حزينة، موعودة بلقاء نهائي وأبدي على الضفّة الأخرى.

«المرأة يا ضياء، مَن سواك في إمكانه أن يكون لها ذلك الأورفيوس الباحث في أعماق الجحيم عن حبيبته؟ الدور يحمل سِماتك. أتمنّى أن تستجيب لطلبي وتكتب من وحي أسطورة أورفيوس، تراجيديا ذلك العاشق، الباحث في ليل إثيوبيا عن «دورا» حبيبته.

المشتاقة إليك، رشا».

طويت الورقة وأدخلتها في الظرف الأبيض، و في سرّي حبّة السمسم. الإجهار بها، فكمن يرمي ذاته في هويّة المجهول. مَن أنا اليوم في حياة ضياء العجمي، بعدما استبدلت فستان أمي الأسود بالوشاح الشفّاف الذي كشف عن عريي، لا الجسديّ فحسب، بل عما كان محبوساً بين ضلوعي فتفجّر، تاركاً الخزي على خشبة واحدٍ من أهم المسرحيين السورياليين؟ وكيف، يا ترى، كان سيتلقى كلمة «أحبك» لو تجرّأت على إنهاء رسالتي بها؟

بإقفالي الظرف، أحسست بالغربة تجتاحني، كما خلال الفترة الأولى لإقامتي مع ضياء، يوم فرد جناحيه الحالكين كليل طويل، عليّ. بإرادة من كبريائي، عبرت الرسالة خارج الحدود التي لا رجوع عنها، مثلما عبرتُ، في ذلك اليوم، فوق جغرافيا ظلّه لأرى من أين تشرق شمسي.

آثرتُ الانشغال مع كوثر بالمسرح العيادي حتى لا أتشوّى على نار انتظار جواب من ضياء. مع الوقت توسّع الشمل في خربة خط التماس. شبان وشابات من مختلف الأحياء البيروتية ألفوا اللقاء فيه كملعب للجميع. على جداره المقشور علّق جهاد كلمات كتبها بالفحم الأسود، ليقرأها الآتون إلى المسرح من كل صوب. «مكان للمعذّبين على الأرض»، «هنا نغتسل من آثام العصبيّات»، «في هذه الخربة نعمّر العائلة الواحدة». وبعد أيام، نقل متاعه الزهيد وجاء إلى خربة خط التماس يجعل منها مسكناً وورشة بناء. بعدة بدائية مضى متسكّعاً على قدم واحدة، يعيد بشغف إلى المكان المهجور روحاً. حوله تكتّلنا. أنا وروزا وبعض الرفاق، مضينا نستمد من طاقته المتفجّرة، قوّة لإحياء ما سمّاه «جرن المعموديّة». كنا كلّنا، من وقت إلى آخر، نطلب استراحة من عناء العمل، ما عداه. ففي هذه الورشة الترميميّة لما كان خراباً، كان جهاد يرمّم خراب ذاته. فهل في توارد الأفكار، الذي أصبح بيننا لغةً نتحادث بها من غير كلام، أدرك أني كنت في كل ضربة فرشاة على الحجر المنخور بالشظايا، أطلي مأساة ولادتي بدهان أبيض كاذب؟

في ركن من «جرن المعمودية»، حط جهاد حياته. طاولة للكتابة و فراشاً. في النهار، يرسل إلى الصحف العربيّة افتتاحيّاته تحت عنوان واحد،» فلسطين إلى الأبد» وفي الليل يتشخص دوره على المسرح فيسيل قلمه، دافقاً كالثورة القابعة فيه، تسعى إلى مخرج لتتفجّر.

هذا المكان أصبح الرحم التي شئنا أن نولد منها، أصحّاء، معفين من لعنة القدر. جهاد، الثائر،المتمرّد، عثرتُ فيه على سناء، توأمي، كمن يعثر على

شيء أضاعه. أجلس على الفراش، بالقرب منه، لأستمع إلى صوته الأبح يقرأ ما دوّنه ليلاً:

«العالم حتى البارحة، كل بارحة، زال من ذاكرتي. الناس الذين أحببتهم صاروا أمواتاً. كصانع دمى، أحرّك بين أصابعي وجوهاً ضاحكة، أقنعة تتخفى وراءها تراجيديا الإنسانية. من ضلع أمي أستوحي وأكتب. أمي لم تكتب ولم تقرأ، كانت ترتجل حكايات من خيالها وتصدّق، حتى لا تتناثر فقاعات الأحلام من شقوق صندوقها الخشبي. وريثها أنا، أكتب لأخرج شياطيني المنكّلة في عروقي اليابسة...».

طوى أوراقه ونظر إليّ محدّقاً، ينتظر كلمة منّي. لم أقل شيئاً. كنت محبوسة في فقاعته الأكثر سماكة من غشائي التوحدّي. كان توأمي، من رحم الوجع وُلدنا، تفلاً جافاً يطلب رشفة ماء. أدركت ما في نفسه من توق إلى حب يحيي به هذا الجفاف الذي بات متأصّلاً فيه. بحركة تلقائية رفع يده إلى جبينه، ومسح بسرعة صورة عابرة:

«رشا، ما سمعتِه ليس تسوّلاً من إنسان عريان يشحذ دفئاً. هو البحث المضني عن الطفولة البريئة، عن هدايا العيد، عن الفرح، عن براءة الحياة التي كلّما تخيّلت رائحتها ولونها لأكتبها، رأيت دموعي تسبقني على الورقة. تذكّري ما قاله المسيح «احمل صليبك واتبعني».

ألا ترين في ذلك حكماً مبرماً على البشر؟ كيف التحرّر منه وأنا في موكب الحاملين صلبانهم، أسير في طريق الجلجلة حتى بلوغها؟»

على إيقاع صوته، شعرت بجسدها يخفّ و يعلو كريشة في مهبّ الريح، إلى أن استوى في موكب جموعٍ، حاملة عل أكتافها صلباناً. سارت معهم في دروب لا تعرفها إلى أن بلغَ الموكب جلجلته. ارتفع صوتها حتى يسمع جهاد ما أرادت أن تقوله له من هذا المكان العالي؟

«سرّ غريب أخذني إلى هناك. صرت أمشي بقدر ما يتقدّم الموكب. أعدادٌ لا تحصى، من نساء ورجال وأطفال، يسيرون إلى منفاهم، لا حسّ لخطاهم،لا صوت لصراخهم الجوفي. أمواتٌ في ثياب رثّة يحملون على أكتافهم صلباناً، ومن بين الجموع، شاب وحداني يتكلّم، «ها هي الدفعة الأولى من معرض لوحاتي»، وأنا من عالم آخر، أسمع صوته يعلو تارة وتارة ينخفض على إيقاع الفرشاة. أسمعه جيّداً يقول «لا أعلم على أي جدار من مدن العالم سأعلّق لوحات الإنسان المنفيّ عن أرضه».

استفاقت من غيبوبة، لم تدرِ كم من الوقت طالت، بينما الموكب في خيالها، يحرّك في خطواتهِ اللاهثة عياءً، غباراً أصفر. «مسامير المصلوب ما زلتُ أسمعها تدق في دماغي وجعاً لا يُحتمل، ومن البعيد الصوت الذي أوقع والدي في أسره، ولم أسمعه سوى في المنامات، هو صوت ثريا منشداً: أنا الأم الحزينة».

عادت إلى رشدها، تحاول استرجاع الأسباب التي أخذتها إلى الجانب الخفي من علّتها. تذكّرت ما سجّله الطبيب المعالج في معهد التوحّد في بلجيكا، في ملفّها. «بين الوعي المحبوس في غشاء التوحّد و اللاوعي،

تتفوّه رشـا أثناء غيبوبتها بأمور غريبة عن حاضرها، حالتان منفصمتان في إنسـانة واحدة. الغيبوبة، انفراج لديها وتحـرّر من كابوس التوحّد. في علم الغيب، قد تكون رشـا عاشـت حياة سـابقة لولادتها، تعود إليها صوراً في حالات من الانفعال الشديد».

لم تر أثراً لجهاد. كانت ممدّدة على الفراش وبالقرب منها ورقةٌ بخطه «لا أريد أن أكون السبب. طلبت من روزا أن تأتي لإسعافك».

«لم أتذكّر. كنت ضائعة عند نقطة التلاقي بين الهُـنا والهُـناك ولا أدري أي الاتجاهين دربي». هذا ما قلته لروزا التي ركضت لنجدتي لمّا سمعت نداء جهاد على الهاتف «أسرعي، رشا تحتضر».

كيفما دار دولاب الذكريات، فمنه تعلّمت روزا أن تتلقّى رياحه الساخنة، حكمةً لا مفر منها. المكتوب. جميع المآسي التي ألقت بليلها الحالك على عائلتي معتوق ورستم، ولاسيّما زواجها المزيّف من نديم، تجمّعت دفعة واحدة على هذا الفراش حيث وجدت رشا، عائدةً من غيبوبتها، تائهة، واسم سناء يطفو من بين شفتيها مع الرغوة البيضاء، تسأل عن الغائبة. المشهد أعاد نفسه. ليتها لا تتذكر. إبنة الثالثة عشرة لم تكن تعرف من عمرها شيئاً سوى بقعة الدم الشهرية على ملابسها، فتهرع إلى سناء تحتمي بها من خطر يداهمها، إلى أن ابتعدت عنها سناء بدخول هلا، الفتاة الفلسطينية، حياتها. هذا الانفصام كان مردوده على رشا مأساوياً. أصبح البداية لنوبات صرع، تنتابها كلما شعرت بشيء يهدد غشاءها التوحّدي الساتر طمأنينتها.

«ما الذي حدث اليوم على هذا الفراش، ليكون سبباً في إيقاظ نوبة الصرع؛ هذا الداء اللعين الذي كدنا ننساه؟»

انتظرت أن تستعيد رشا وعيها، كل وعيها لتسألها، فأكثر ما كانت تخشاه هو أن يؤدي اللقاء شبه اليومي بين رشا وجهاد إلى علاقة عاطفية تدمل بها الجرح الذي لا يزال ينزّ حبّاً بلا رجاء لضياء. الأفكار صارت تتجاذبها كجنون الموج في عوداته، مثقلاً بذكريات الأمس السوداء. سناء حملت ثورتها إلى المخيم لتغدو من أهله. حبّها لماهر لم يكن نزوة، بل كان قدريّاً. لم يفترقا، بينما الراية البيضاء مرفوعة يداً واحدة تهتف للسلام ووقف هدر الدماء بين شعبين من أرض رسولية. وانتصرا بامتزاج دمهما في الموت. أما حكاية رشا مع ضياء فمختلفة. المارد الأسود أخرجها من قمقمها المقفل، أخذها تحت رعايته، ونفح فيها روحه. صوت رشا لا يزال يقرع في أذنيها وهي تروي لها تلك الحقبة من حياتها المثيرة:

«صرت أسطورته،لا ماضي لي ولا ذاكرة سواه. شيّد لي مسرحاً. أهذا هو المكتوب؟ انتقلت من وطن إلى آخر، مقمّطة في غشاء التوحّد و في حقيبتي فستان أمي الأسود وأقلام التلوين عدّتي. لم يكن المعهد سوى جسر عبور إلى عالم ضياء الميتولوجي. أصبحت عجينة طيّعة بين أصابع ماهرة، مستسلمة بجسدي وروحي لحلمه، أنير بعرفاني له، الدرب إلى الغائبة.

«أنا مصبوغة بسواد ض مهما تمرّغت في الثلج لأتنقى منه. وشمي ليس عاراً عليّ، بل شهادة، جعلتني أتفوّق على قوقعتي لأصبح ما أنا عليه اليوم. كبريائي

هي التي قرّرت انسلاخي الأليم عنه. لولاه لكنت بقيت هناك، أسيرة خيال المرأة التي أحبها حتى الجنون. توارت دارينا، تاركة في حواسه ما لا يُنسى. فتّش عنها إلى أن عثر على نسخة منها فيَّ، عجينة طيّعة تلوّنتُ بليل أثيوبيا الحالك، لأكون هي، على المسرح هي، حين يناديني باسمها، هي، أمّا عندما تفوح الأبوّة من مسامه الثملة، ويتمنّى وهو غارق فيّ، ولداً شبيهاً بسوادها الفاحم، فكنت أتذكّر من أنا. الحمامة البيضاء، لن يمكنها أن تنجب نسراً أسود».

أين توارت الفتاة الوحدانية، الصامتة، لتحلّ محلّها هذه الكائنة العجيبة؟

«كأن ثريا امتثلت أمامي يوم دخلتِ البيت بحقائبك. لم أكن جاهزة لأرى بوضوح هذا الضوء المشعّ من تكاوينك؛ لأسمع هذا الصوت الشفّاف الذي لطالما قارنته أمّي نهلا بصوتي الذكوريّ الخشن، ما كان ينهاني عن مرافقة ثريا في غنائها. وبالرغم من انتظاري عودتك إلى الوطن، فإن الماضي عاد ليحرّك المرارة القابعة في أعماقي، كنتِ هي، بجنونها وتمثيلها وحسنها. كنتِ هي في مأتم والدك، غريبة عن حزن تقاليدنا، ترفعين الموت بندبك الغنائي، إلى مصاف التراجديات اليونانية، كأنّك نسيت أنك من ضلع هذه القرية، وفرد من الجموع التي رافقت النعش حتى القبر لوداع فارس رستم، فارس الذي لقي مصرعه هنا على هذا الخط، يا رشا، يوم كان آتياً إليك ليشاهد مسرحيتك. لقد أخفيتُ عنك هذه الحقيقة خوفاً عليك من صدمة نفسيّة قد تزعزع عافيتك».

هبّت رشا من الفراش كما لو أصابها مسٌّ من الجنون. فتحت الباب وخرجت إلى الطريق، تستدلّ بحدسها على المكان الذي سقط فيه

والدها. تراءت لها الدنيا بقعة دم، فكيف عساها بعد اليوم تبني مسرحاً لشفاء النفوس، والتربة حواليها تنزف دماً لن يجف. رسالة فارس تضج في دماغها «أنت نجمتي وعزائي». جثت على ركبتيها تحاكيه «اغفر لي! اغفر لي!» إلى أن بدأ صراخ الغضب يعلو من أحشائها ويلمّ العابرين حولها: «تعالوا وانظروا الدماء على الطرقات. الدماء على الطرقات، دماء أبي».

روزا، الواقفة على عتبة التخشيبة، صارت ترى ما اقترفه لسانها من أذى. لم تأت بحركة. الخالة الطيّبة، الحنونة، توارت خلف المرأة القاضمة أحقاداً متفاقمة، كلّما راجعت حياتها وجوجلتها، فلا تجد في كف يدها سوى الزؤان. فلكم تمنّت من أعماق غيرتها الأكول لو بقيت رشا منطوية على عالمها، محتاجة إلى شفقتها ولا أحد لها سواها. فلكم هلّلت في سرّها لرحيل ثريا، هذه الغصّة العالقة أبداً في حنجرتها. هناك عند المقبرة، والنعش الأبيض يتوارى تحت كمشات التراب، بدأت روزا تخطّط لفجر جديد في حياتها الرتيبة. باتت الساحة لها بعد اليوم بلا منافس. «فمن سواي قادر على أن يحلّ مكانها في تربية البنتين، وربما في قلب فارس المفجوع؟»

زمن الأمنيات ولّى، والأحلام تعفّنت في خوابي الانتظار. وها هي العائدة بعد سنوات الحرب من الغربة، تنكش الماضي الذي ظنّته روزا، وقد توارى مع جثمان ثريا في التراب. المرأة الواقفة أمامها بحقيبة السفر صورة عن ثريا. ما الذي حدث يا ترى هناك؟ أيُّ تحوّل عجيب قلب تلك التي

اعتبرت نهلا ولادتها، عقاباً للعائلة، إلى آية في الحسن والرقّة والجاذبيّة. الأطباء نعوا قضيتها لفارس، لا شفاء من التوحّد. لكن فارس ظلّ يبحث لفتاته عما يكون خيراً لها، بعيداً عن الحرب، حتى توصّل إلى العنوان. في معهد خاص بالمتوحّدين في بلجيكا، رست رشا مع رفاق يعانون العلّة ذاتها و روزا تتلقى أخبارها من فارس، إلى أن علمت في رسائلها إليه، أنها بدأت تتدرّب لتصبح ممثلة.

هذا الشبه الموجع بين الأم وابنتها، شلّ لسانها عند استقبالها العائدة. الصوت صوت ثريا، والأسلوب المتأنّق بالكلام، أسلوبُها، هذه الجاذبية التي كانت تشعّ من تكاوين ثريا، انتقلت بسحر ساحر إليها. اللون الأسود الحدادي على والدها، قرّبها أكثر فأكثر من ملامح أمّها. فلطالما أكلتها الغيرة في تأمّلها اللجوج صورة ثريا في فستانها الأسود المخمليّ الطويل، تبتسم بإغراء لعدسة فارس أمام مسرح الفينيتشي في البندقيّة. كأن روح ثريا ملّت الغربة فعادت تتأنسن في ابنتها رشا. الفستان الأسود الطويل لم يذهب صدفة إلى بلجيكا في متاع رشا.

«عودة رشا إلى الديار لم تجرِ كما توقّعت، تعويضاً عن حياتي الفارغة، فثريا هي العائدة الآن، لا لتمارس دور الأم، بل لتعيد بكرة الزمن إلى الوراء.

«اللعنة ما زالت تطاردني مذ كنا أختين إلى أن ظهر الفارق الشاسع بين قامتها المنحوتة بيد فنّان وجسمي المربوع، بين صوتها الشادي وصوتي الأجشّ، بين إشراقتها المتصنّعة وذبولي المولود من أرض جافة. ركع فارس

على قدميها، يُهديها حبّه إلى الأبد، فتنازلت من عليائها وقالت «نعم». أمّا أنا، فلكم تزلّفت إلى نديم ودست على كرامتي من أجل أن يقبل بي زوجة له. لم أنتصر بزواجي منه على شذوذه بقدر ما جعلني أشعر حين أتعرّى عمداً أمامه، بتدنيس أنوثتي».

جاءها من البعيد صوت ثريا منساباً كزفير النسيم في القصب. قداس الأحد، كانت تعلم جيّداً، لم يكن المؤمنون يتزاحمون للجلوس على المقاعد الأمامية، خوفاً من أن تفوتهم نفدة من وعظة أبونا مخايل بعد الإنجيل، بل هو هذا السحر المنبعث من حنجرتها الذي كان يسكرهم أكثر من الخمرة. وحده فارس وقع في خطيئة غنائها، أحبّها ومات عشقاً بها، بينما كانت تتلذّذ في تعذيبه. أنسيتْ شقاءه؟ وهل شُفيتْ من حبّها لنديم بعدما رأته في فراشها مع زين الشاب المخنّث الذي كان يعرض جسده العاري موديلاً لطلاّب الرسم؟

لم يوارب، لم يتهرّب من حقيقته. «هذا أنا وعليك أن تقبلي بي».

«بل أريدك أن ترحل».

انغلقت روزا على حالها بعدما فرغ البيت من نديم، وحوّلته إلى محترف، تجمع شتات حياتها بقطع الموزاييك علاجاً ولو كاذباً لمأساتها. لكن في أعماق النفس ثفلاً يابساً، لم تجد سوى رشا في ذلك النهار لتتقيّأه، فتنقل الغثيان المستبد بها منها إلى ابنة ثريا:

«والدك كان ذاهباً إليك يوم مصرعه».

الخبر المفجع تلقّته رشا في قلبها كالرصاصة التي ثقبت قلب والدها. خرجت إلى الشارع وفي صدرها صرخة عمّت أرجاءه:» اغفر لي يا أبي! اغفر لي! «على خط التماس هذا، حطّت مسرحها. العابرون تعاطفوا معها، تدفعهم إلى ذلك قشعريرات الذكريات الأليمة التي اختبروها بين البيروتين. تكاثروا حولها حتى التيه بجنونها، يحتفلون معها بهذا القداس الأسود. على عتبة الخربة بدت روزا مسكونة برؤيا عجيبة. المشهد ذكّرها بطقوس أسبوع الآلام وجنائزية الموت. فالناس جوقة واحدة راحوا مع رشا يهتفون:

«الدماء على الطرقات، تعالوا وانظروا، الدماء على الطرقات».

تحرّك الدم في عروق الخالة المنقوعة في خلّ مصيرها ومشت إلى «ساحة الاحتفال». زجّت نفسها بين الجموع وأمسكت تلقائيّاً باليد التي امتدت إليها، إلى أن لاحظت أيادي المتحلّقين، متشابكة في رباط أخوي واحد. شعرت بحرارة لذيذة تسري في عروقها، تطلّعت إلى صاحبتها فتلاقت نظراتها بها. إبتسمت المرأة المحجّبة وعرّفت عن نفسها:

«زينب ناصر، هنا لقي شقيقي مالك مصرعه. آتي في موعد صلاة العصر مع خطيبته لنذكره في صلاتنا. لكن اليوم أصبح لهذا الخط، معنى آخر. الدماء البريئة التي سفكت هنا، حوّلتها هذه المخلوقة العجيبة، إلى حجّ لطالبي السلام».

«هل كان مقاتلاً؟» سألتها

« أخي؟ لا، بل كان عاشقاً متهوّراً، فشخ فوق تقاليد عائلتنا المتشدّدة لأجل هذه الشابّة التي ترينها أمامك، الساهمة في حزنها. خرج من الملجأ في ذلك اليوم الماطر بالراجمات من كل صوب، كمدمن، في حاجة إلى جرعة حب ليستكين. تمسّكت أمّي بذراعه تثنيه عن اقتراف مأساة لا تنجو منها العائلة. أفلت منها حين قال والدي «اتركيه يا محاسن القَدَر يفعل ما عليه». لم يعد مالك، كان الموت في انتظاره هنا».

جمدت نظرات روزا في المرأة التي دلّتها عليها زينب. قرأت ما في نفسها من لوعة الفراق ومحاكمة الذات. ألم تتمنَّ، وكلّها شوق إليه، أن يعبر المخاطر لتراه؟ مالك وفارس راحا ضحية حبيهما. رشا ارتمت على الأرض مولولة «اغفر لي يا أبي، اغفر لي يا أبي»، بينما المرأة المصبوغة بالحداد كانت واقفة كمريم المجدليّة تحت الصليب. انتبهت لصوت زينب تروي لها الحكاية:

«بعد وفاة مالك، إعتنقت كاتيا الإسلام، تكفيراً عن حبّها القاتل للرجل الذي مات لأجلها. طلبت أن تعيش معنا لتبقى ذكراه حيّة فيها. كرهتها والدتي، أما أبي، فدلّها على فراش مالك قائلاً لها:

«هنا أرقدي بجانبه، ففي رائحة وسادته سيكون حاضراً فيك».

«أي صنف من الرجال والدك؟».

«قبل مصرع مالك، كان والدي يملك نعمة قراءة الغيب. يأتون إليه للأستفسار عن ضائع لهم، فيردّهم خائبين، وبكل صدق يقول لهم، قراءة

الغيب ليست سلعة تطلبونها مني، هي هديّة من الخالق، أتلقّاها حين تقتضي رسالتي. لقد رأى مصرع مالك وهو يهم باجتياز عتبة البيت. لم يقف في دربه. المقدّر كان أقوى من سطوة والدي على ابنه.

إنتهت مراسم الموت ومضى المتحلّقون كلٌّ في طريقه. في وسط الحلبة بدت رشا جسداً بلا روح لا تعي ما حدث. رفعتها روزا من كتفيها وساعدتها بصعوبة على المشي إلى أن بلغتا الخربة وفي أعقابهما، زينب و«المجدليّة».

«كنت منهمكة في إعداد الشاي لهاتين الزائرتين حين سمعت زينب تروي لرشا ما حدث بعد رحيل مالك

«لم ترحّب أمي بدخول كاتيا بيتنا. نعتتها بكافرة أغرت ابنها بحنكتها وجرّته إلى الموت. والدي كان قاطعاً:

«نور، هو اسمها بعد الآن، سوف تعيش تحت سقف بيتنا مثلما كان مالك يحلم بها أن تكون، زوجة له. معها نعيش ذكراه».

«هجرت أمي العائلة وانتقلت إلى الضيعة، مكسورة الخاطر، تردّد لأقربائها أن كنّة مزيّفة، جاءت برضى رب العائلة، تغزو حميميات بيتها وتطردها منه».

مسحت رشا عن جبينها آثار الاحتفال الجنائزي الذي افتعلته بعصبها التراجيدي على هذا الخط الذي سيبقى أبداً مطبوعاً بوشم الموت، ونظرت ملياً إلى نور. في صمتها قرأت حكاية حب فاقت الأعراف المتحجّرة

التي تدفع فديتها القلوب العاشقة من دون حساب. تذكرت قصّة ماجد ونسرين. سرت في عروقها ذبذبات موجعة كغرز الأبر في اللحم، تلقّتها نور في مسامها رسالة منها إليها. أعادت فنجان الشاي إلى صحنه، وقامت إلى رشا تغمرها بين ذراعيها. قالت والصوت همسات:

«علّمني موت مالك أن أتوارى بجسدي البارد وأتنكّر له. أصبحت برحيله أرملة بلا ذراعين للعناق، بلا دفء، بلا انتظار. رأيتك تفشخين فوق المألوف، وتستبيحين الشارع كما وحده المسرح في إمكانه أن يطلق الدراما إلى أعلى درجات الفاجعة. من موت والدك أقمت هنا على هذا الخط القاتل، تحفة مسرحية من واقع الوجود، تسلّمها المتحلّقون حولك، دعوة إلى هذا القداس الأسود، وبدوا معنيّين به، أنا وزينب من بينهم، كما لو كنا جئنا إلى هذا المكان، مكسوّتين بأدوارنا، مثلما كنت أنا و مالك نتدرّب مع أستاذنا منير أبو دبس، في معهد التمثيل الحديث على مسرح ميتولوجي، تجريدي، يختاره في مواقع أثرية و قلاع تاريخية، بمثابة خشبة خيالية ورمزيّة. فهل كان هذا المسرح أكثر تقشّفا من الشارع الذي لا يزال ينضح بدماء موتانا، وعليه ارتميتِ ترثين والدك، وتطلبين منه الغفران؟ فماذا أقول أنا؟ وأيّ غفران أناله، وما زال صوته على الهاتف يقول لي «أنا مشتاق إليك» و ألححت بغنج على ألاّ يطيل غيابه عني: «الحرب طويلة يا مالك وعمر الحب قصير».

انكمشت روزا كحلزونة في قوقعتها. فما حدث في هذا اليوم جاء رغبة منها لترى رشا تنوء تحت ثقل الندم الذي هو أقوى من الموت شراسةً، ولا يندمل. الأحقاد الكامنة فيها فعلت فعلها، بخروج ابنة ثريا إلى الشارع والتئام الناس

حولها. كانت في وقفتها على عتبة الخربة تمج ثأراً عتيقا، إلى أن شعرت بالسم يرتد إليها أمام تهافت العابرين على هذا الخط الذي جعلته رشا موقعاً أثريّاً، استذكاراً لكل من روى تربته بدمه. صوتاً واحداً ردّدوا معها:

«تعالوا وانظروا، الدماء على الطرقات، دماء الأبرياء على الطرقات، تعالوا وانظروا».

تصنّعت البراءة أمام الزائرتين، تسكب الشاي وهي تشيد بشجاعة رشا التي لم تكتف بأن بثّت روحها في هذه الخربة وجعلها مسرحاً استذكارياً لوالدها، بل شيدت على هذه الأرض المحيطة بها، تمثالاً خيالياً للأبرياء المجهولين. ألم يكن الوقت ملائماً كي تسمع قلبها الذابل ينتعش مجدّداً للحب، بارتوائه من هذا النبع الفائض عطاءً، لا يعطش؟

زينب ونور لحقتا برشا إلى الخربة كمن يدخل كرسي الأعتراف. فهذا المسرح شاءته رشا لكل كائن ضاقت به الحياة، فيأتي، تاركاً قميص عذاباته على عتبته، ويغرق عارياً من ماضيه، في هدير أمواج ذاته، ليتنقى و يغتسل من أوساخ الوجود؟ اعترافات نور، كانت جرحاً نازفاً من قلب عاشقة، نادمة على ما اقترفه حبها لمالك من ويلات. كان بوحها صادقاً بعد صرخة رشا المدويّة في الشارع «اغفر لي يا أبي». امرأتان أمام روزا، شرّعتا علناً محكمة، تقاضي حبّهما القاتل.

«ماذا كانت ردّة فعل أهلك، حين قررت اعتناق مذهب مالك وتغطية جسدك بهذا الكفن الأسود؟»

الكفن الأسود؟ تلقت نور هذا السؤال الخبيث طعنة في صميم قلبها:

«الكفن الأسود يا أختي روزا، هو في النفس لا في هذا الثوب المفصّل على حجم لوعتي على غياب مالك».

قامت نور تهمّ مع زينب بالأنصراف. قبّلت رشا قائلة:

«لن أقول لك وداعاً بل إلى اللقاء، فمشروعك يعني كلاًّ منا».

لم تدع رشا الوقت يقف ويتجمّد في انتظار ردٍّ من ضياء على رسالتها. الأصداء التي صارت تنشر في الصحف، روّجت لمسرح عياديّ، رسالته إعادة الحيوية والثقة إلى من تجرّبوا في تيه الحرب وآفاتها. فبازدياد أعداد المنتسبين إلى خربة خط التماس، شعرت بحاجة إلى مساعدة فوريّة من الذين أرسوا قبل الحرب مداميك المسرح اللبناني وصنعوا منه مدرسة. العاصمة التي تحوّلت إلى ساحة للقتال، أفرغت المسرح من هؤلاء المبدعين الذين جعلوا من الحركة المسرحية اللبنانية مغامرة، كان هدفها البحث والرؤى والعلوّ على الذات. طوال عقود، كان المسرحيون يُبصرون المستقبل من شرفات الحلم. فإذا بالحرب تلغي الحلم، تفتته، تدمّر المسارح، تفرّق الجمهور وتعطّل اللقاء. فهل لهذه الحرب من نهاية؟

المقابلة التلفزيونية التي دُعيت إليها مع كوثر عربيد، للكلام عن مسرح

عيادي على خط التماس، رأت فيها رشا ما تود إيصاله إلى الرأي العام. كانت جريئة في طرح تجربتها مع المسرح:

«لولا المسرح، لولا اليد التي امتدّت إليّ ونشلتني من قعر آفات التوحّد، وفصّلت على مقاسي شخصيّات حرّرتني من انطوائيّتي، ودفعت بي إلى البوح العالي، لَمَا كان سعيي اليوم، مذ عدت إلى الوطن، لإعادة التجربة التي عشتها في أوروبا، في بناء مسرح عياديّ، كان قد يكون حلماً مستحيلاً، لو لم أتعرّف إلى الدكتورة كوثر عربيد، طبيبة الأمراض النفسيّة».

قبل أن تنتقل مقدّمة البرنامج إلى كوثر، سألت رشا عن الهدف من مسرح على خط التماس:

«هذا الخط الذي بتر العاصمة إلى خصمين لدودين، كان شاهداً على مصرع أبرياء، رفضوا شرذمة البلد وتقسيمه واحات طائفيّة، عقائديّة،لا حياة فيها ولا تطوّر. والدي كان ضحيّة إيمانه بالوطن الواحد، وواحداً من بين الضحايا الذين سُفكت دماؤهم عليه. لأجل ذكراه، شئت مسرحاً يعيد اللحمة بين اللبنانيين».

كيف جرى الاتفاق على مسرح علاجي، أكثر من كونه مسرحاً ترفيهيّاً، يكشح الغمَّ عن قلوب المشاهدين؟ السؤال جاء موجّهاً إلى طبيبة الأمرض النفسيّة.

«لطالما حلمت باستبدال الكنبة التي يتمدّد عليها المريض ليحكي، بعلاج ديناميكي، يفجّر الألم القابع فيه. شباب وشابات، وجدوا في إدمانهم على المخدرات والكحول الرخيصة، سلاحاً يقاتلون به شرَّ الحرب، وتحت

مفاعيله السامّة، يدفنون حياة باتت بلا أمل ولا رجاء. كرسولة، وصلت إليّ رشا رستم، وفي نيّتها مشروع مسرح لشفاء النفوس، علاجها الذي انقذها من علّة التوحّد. سرعان ما رحّبت بالعمل معها على تجربة مثيرة، كانت ما زالت مخاضاً، إلى أن بدأت تعطي مفاعيلها».

وعادت المذيعة إلى رشا تسألها:

ما هي المواضيع التي تجعل المسرح عيادة شافية؟

«التجربة لا تخلو من المغامرة. المصاب يُفشي علناً الأسباب التي أوصلته إلى ما هو عليه. الخشبة ليست حافظة أسراره، بل منها يسمع صوته عالياً يروي سيرة، ربما تعود آفاتها إلى ما قبل الحرب؛ ربما إلى الطفولة. الذين ألفوا المسرح العلاجي في هذه الخربة المنسيّة من الراجمات، والتي صار اسمها مسرحاً، صرت أسمع في بوحهم ما يشبه غارقاً يطلب النجدة. ومع الاستمرارية، اكتسبوا مناعة ضد الخجل، بينهم صبيّتان وشاب، اكتشفوا في هذه المعالجة الجماعيّة، موهبة الكتابة، فجاءوا بعد فترة من المداومة، بمسرحيات قصيرة من وحي تجربتهم».

على هذا الخط الذي لم يبرأ من شرّه عابر، برزت خربة خط التماس للعيان، بلون طرشها البرتقالي، كتمثال الحريّة تبشّر بغد مشمس. المقابلة التلفزيونيّة، كانت لها ردّات فعل من أهل المسرح. جاءت الاتصالات الخارجية من البعض مشجّعة، داعمة، بينما وصف البعض رشا رستم، بامرأة «أوتوبيّة» تحلم ببناء إنسان جديد على كومة من رماد، كان اسمه مسرحاً.

بعد يومين من المقابلة التلفزيونية، تفاجأت رشا بزيارة شريف صافي، الممثل الذي كان يتردّد على ضياء العجمي في أوائل مرحلتها التدريبية في محترف الفنون المسرحية. تذكّرته شاباً جذّاباً، وقصة حب جمعته بليتيسيا، راقصة الباليه التي استدعاها ضياء من مدرسة موريس بيجار لتدرّب الممثلين المبتدئين على الحركة. ماذا بقي في ذاكرتها من تلك الفترة؟ لم يتغيّر، فهو ما زال بوهيمياً بهندامه وشعره الطويل الدالّ على انتمائه إلى أهل الفن. رحّبت به ودعته إلى الجلوس. دخل فوراً في صلب الموضوع معرّفاً عن نفسه:

«شريف صافي من محترف ضياء العجمي، هل تتذكرين؟ كنت أول من أمس من جمهورك في هذه الحلقة التلفزيونية، التي شاركت فيها مع طبيبة العلاج النفسي، كوثر عربيد. جوهر الموضوع كان على لسانك، لذا جئتك لأستوضح منك بالمنطق لا بالخيال، ما أنت في صدد تحقيقه من مسرح علاجي في هذا المكان المصبوغ بتاريخ أسود... وسيبقى. فإلى كم من الوقت تراهن الذاكرة الملذوعة بفقدان عزيز على هذا الخط، حتى تنسى؟ أنت فقدت والدك هنا، وعلى اسمه شيّدت مسرحاً، قرأتُ وأنا أعبر عتبته، ما يشبه الشاهدة، كالتي تُحفر على القبور. والدك ليس الوحيد الذي قُتل على هذا الخط، فكم من العابرين عليه سفكت دماؤهم...،

قاطعته وهو ممعن في قتل الحلم الذي، من كيميائه، أصرّت على غرس مداميك مسرح عياديّ لطالبي السلام:

«سيّد شريف، لعلّك جئت متأخراً إلى هذا «القبر» كما قلت، ولم يمض على

حفره سوى أشهر قليلة حتى بدأت النفوس الميّتة، تنهض إلى الحياة. كخليّة نحل بات يعج بالمحتاجين إلى كلمة، لتصدح عالياً، من دون خجل أو خفر، فتنشل العفن وتحرّره من سوداويته. لعلّك اليوم في حاجة إلى عيادتنا أكثر من هؤلاء الذين آمنوا بالمسرح لعبة ممتعة، تغدو شيئاً فشيئاً ضرورة لحياة أفضل».

ضحك كي يتبرّأ من اتهام رشا المجحف لشخص عرّف عن نفسه بأنه من أهل المسرح:

«لولا إلمامي بحاجات المسرح ونشاطي على مدى سنوات في حركة المسرح الحديث، ممثلاً وكاتباً، لما قصدتك إلى هذا الركن المتواضع، وكلّي فضول لأعرف منك أكثر، عن مسرح، لا هو ترفيهي، لا هو تثقيفي، بل كأني تصوّرته مصحاً، نزلاؤه مصابون بالأمراض النفسية».

من ابتسامته الساخرة، العالقة على شفتيه، أدركت انها أمام مصارع لن تقوى على مبارزته. انتظرت أن تنتهي الزيارة عند هذا الحد، لكنّه ظل متكمّشاً بكرسيه، وحدسها يُعْلمها بأن سبب مجيئه إلى هذه الخربة المطروشة باللون البرتقالي، يستحق منها سمعاً. في قرارة نفسها لم تنف إعجابها بهذا المتطفّل على مشروعها، والقادم إليها بعدوانيّته. كانت تحت تأثير، ليس فقط وقاحته العفوية، بل جاذبيّته التي أثرت فيها لحظة وقف على عتبة الدار يعرّف عن ذاته. الأنثى القابعة تحت طيات حدادها على قصّتها مع ضياء، واعية حتى لا ترتكب هفوة تُضعف مناعتها. ظلّت أمام شريف صافي محتفظة برسالتها التي جاء يناقشها فيها.

لسانها كان لا بد له من لِين ودماثة حتى تتفاهم مع هذا الدخيل، الساحر:

«بمجيئك إلى هذه الخربة بعدما شاهدت الحلقة التلفزيونيّة، وبالرغم من انتقادك القاسي لهذا المسرح الرسولي، فإنني بقيت أراهن في سرّي على رسول أتى على حين غفلة بخبرته الطويلة في شؤون المسرح، لعلّنا نحقّق معاً حلماً يراودني، فنجعل هذا المشروع المتواضع محترفاً معترفاً به رسمياً في مدينة لا بد من أن يعمّ فيها السلام بعد هذا الخراب كله».

لم تدرِ أنها على فوّهة بركان. فما كادت تتفوّه بما حسبته ترقيعاً لما سبق، حتى هبّت من داخله حمم غضبٍ، غطّت على سخريته القارصة، واستهزائه في المسرح العلاجي:

«ماذا تعرفين عني حتى تتصوّرينني آتياً إلى هنا لأرمّم في هذه الخربة التعيسة، تاريخ المسرح في لبنان؟ عشرون عاماً من الإبداع الفني والثقافي، شهدت ولادة غير حركة مسرحية، بأبعادها الفكرية والسياسية والتاريخية والفلسفية. أقلام كتبت واقتبست؛ ممثلون تركوا قشرتهم خارج الخشبة ليتقمّصوا سيرَ شخصيات مدهشة؛ مخرجون صنعوا من الخشبة وأهلها أحلاماً، وإذا بمخطّط تدمير لبنان، شمل في أتونه المدارس والبيوت والمسارح وصالات السينما والمقاهي وكل شيء حي».

صمتَ، بينما ظلّت تسمع دوي صمته في أذنها، إلى أن قال:

«بعد ليلة عاصفة بالراجمات الثقيلة على أنحاء الوطن، أمضيتُ مع عائلتي والجيران خمسة أيام في قبو الدير المحاذي لحيّنا. لم أفكّر في الناس الذين

قشّهم الموت في غفلة عبورهم الشوارع، كان فكري كلّه عند «كاليغولا»، الشخصية التي لطالما حلمت بتأديتها، فكان لي ما تمنيت. وكانت الليلة الأولى، وأنا بالثوب الروماني الأرجواني، أقول ببساطة:

«الآن بتّ أعلم. هذا الكون، كما بُني، ليس محتملاً. أنا في حاجة إلى القمر، أو السعادة، أو الخلود، أو أي شيء جنوني، من خارج هذا العالم، فنمضي أبعد من هذه المدينة لعلّنا نعثر على سعادة نقيّة، رائعة»

«فهل في تلك اللحظة، وأنا واقف فيها على المسرح وسيزونيا بين ذراعيّ، كنت أنعى قَدَر وطني بلا وعي؟ ليلة كاليغولا كانت الأشرس والأعنف بين ليالي الحرب الطويلة. عندما همد القصف، وبدأ الناس كالجرذان، يخرجون بحذر من الملاجئ والأقبية ليتفقّدوا البيت والأحبّاء ويلمّوا الجثث عن الطرقات، كنت بينهم هائماً في هذا الكابوس أبحث بين ركام المسرح عن أشلاء كاليغولا».

كمن يحفر بالتراب بحثاً عن ضائع له، هكذا بدت لي حركة يديه المتفاعلتين على نمط سرده الوقائع الدامية:

«المسرح والشارع اتحدا في الموت. دم كاليغولا وسيزونيا وهيليكون وسيبيون، التقى في رباط واحد، دماء العابرين. كيف كان في إمكاني أن أعاني الأضرار التي ارتكبها جنون الليل، فما كان بالأمس مسرحاً أصبح أمام ذهولي كومة حجارة؟ مضيت أحفر بيديّ بين الركام لعلّي أعثر، ولو على نتف من كاليغولا، الشخصية التي رهنت حياتي لإحيائها، بعبثها

وجنونها، كأن كاليغولا هو من دعاني إلى إبدال دمي بدمه، وأكتوي بناره حتى دخلت في كل ذرّة من خلاياه.

«في ذلك الصباح الباكر، وبعدما فرغت القنابل من حشوة الدمار والموت، كان المسرح الملتوي بحديده وحجارته من قدر المدينة وناسها. وحده عنوان المسرحية لم تقوَ القنابل عليه. اليافطة المتأرجحة على خيط ظلّت فترةً طويلة شاهدةً على مسرح كرّس حلمه للطقوس التعبيرية والنصوص التراجيدية، تلك التي تحمل الانفعالات الأقوى والصراعات الأشد بين أناس المسرحية، بين الفرد وذاته. (من رواية المشهد الأخير)

سألته وأمامي إنسان ما زال هناك، مشتعلاً بقَدَر كاليغولا، لم تقوَ النيران على إطفائه:

- هل تمكنت من أن تستعيد تحفة ألبير كامو في أماكن أخرى خارج الحرب، فتُحيي كاليغولا بما راهنت، لإحيائه، كما قلت، بعبثه وجنونه؟

رمقني طويلاً، كأنه كان يبحث عني فوجدني:

«أنا مَدين لضياء العجمي الذي تكلّمتِ عليه في الحلقة التلفزيونية، من دون أن تسمّيه. لقد نشلك من غشاء التوحّد، كما تولّى انتشالي من العدم بمجيئي إلى ستراسبورغ حيث كانت إقامتي الطويلة».

لوهلة صرت في عالم آخر. رأيت، والمشهد كنيزك مسرع أمامي، طيراً أسود يحطّ على كتف شريف صافي. قلت في سرّي: هذا ضياء.

في تلك اللحظة الواقفة على نقطة فاصلة بين الواقع واللاوعي، المتريّثة في تقرير مصيري، شعرت بقوة تفصلني عن أناي الأخرى، وتحطّني في ساحة مدينة قديمة، وأنا بين ذراعَي كاليغولا، أقول له: «عِدْني بأنك لن تتركني، لماذا لا تدعني أشاركك في السعادة التي تبحث عنها؟».

استعدت وعيي، ممدّدة على الأرض والدم ينزف من جرح في رأسي. سمعت من يقول:

«غابت فجأة عن الوعي، بينما كنت أكلّمها. فاصطدم رأسها، بانزلاقها عن الكرسي، بحافة المكتب».

كان هو كاليغولا. سمعته يكسر المرآة ويقول «ها أنا حيّ».

أين أنا؟ لماذا ما زلت هناك حيث الخرافة؟ فليبتعد هذا الصوت اللجوج عني حتى أستعيد حياتي؟ كريشة خفيفة سقطت على الأرض شعرت بهم يحملونني ووجهي محنى بالدم بينما تابع كاليغولا، يقول:

«آه،كم هذه الليلة قاسية، قاسية هذه الليلة، كوجع الإنسانيّة».

الطبيب الذي خاط جرحي ولفّ كامل رأسي بضمادات، أكّد لروزا أن سبب الهذيان مصدره الصدمة التي أدّت إلى ارتجاج في الدماغ.

إلى الغرفة الوردية عادت تلك الطفلة التي لطالما تمنّت روزا رجوعها إلى حضنها. حطّتها فيما يشبه الحجر حتى لا ينافسها أحد. وبالرغم من هذه العزلة، فإن روّاد مسرح خط التماس، ظلوا يأتون كل يوم للاستعلام عن

صحّتها. مرّت أيّام و رشا بين الحاضر والغيب لم تسترجع كامل عافيتها بعد، إلى أن جاء شريف صافي يطمئنّ عليها، وفي يده باقة من الورد. وقبل أن تُعلمه بأن رشا ليست مهيأة لاستقبال أحد، كان أصبح في الغرفة الوردية. في زوغان نظراتها تراءى له أنها ما زالت تحت تأثير الصدمة. مدّت يدها مرحّبة به، ودعته إلى الجلوس على مقربة منها:

«ليست باقات الورد كلّها موجّهة إلى القلب، أكثرها يوضع في إناء، إلى أن تصاب بالذبول، فالموت».

تأمّلها في شحوبها الساتر سرَّ حياتها، وهو يعيد في سرّه كلماتها. هذه اللوعة التي عبّرت بها عن مصير باقة الورد، هي بلا ريب، تعبير خفي عن أحاسيس متلقّيتها. جفل قلبه من تأثير هذه المرأة في عواطفه. المقابلة التلفزيونية، هي التي كشفت الغموض الذي أحاطها به ضياء العجمي. تذكّر مرحلة لجوئه إلى ستراسبورغ هرباً من جنون الحرب، حاملاً سواد مسرح مدمّر في حقيبته. ضياء العجمي هو من رمّم كسوره ونشله من الغرق. عاد يتذكّر ما حكاه له وللرفاق عن هذه الصبيّة الغامضة. كان يراها تعبر الأمكنة ضامةً إلى صدرها هرّاً أبيض كنفناف الثلج. وإذا بالصدفة، آه من الصدفة، تجمعه بها في خربة خط التماس. قصدها في هذا اليوم ليكتشف سرّاً، لا ليسمعها تتكلّم بلغة أطباء النفس، الحاملين أوجاع الإنسانية في وجدانهم. كان جارحاً في كلامه معها، ما دام جرح المسرح ما زال نازفاً من جوارحه.

هام في الشارع حين وصلت سيارة الإسعاف لنقلها إلى المستشفى، يستعيد في ذاكرته ما رواه ضياء العجمي عنها:

«هذه الصبيّة معجزة، لن تتكرّر في تاريخ المسرح. مصابة بداء التوحّد، تخرج من غشائها لتبحث في مجاهل ذاتها عن كائنات تتقمّصها. فمن هي؟ تساءلت، وأنا في معهد المتوحّدين، أتقصى في هذا المختبر العلاجي، مواهب نزلائه، حين لمست أنها مختلفة عن رفاقها. وما زلت إلى الآن أتساءل عمن تكون، يا ترى؟ هذا ما شجّعني على أن أتولّى أمرها وأوقظ قدراتها المحنّطة، في المسرح. ولم يطل بها الزمن حتى تفاجأت بها، تنسخ من نفسها امرأة كونيّة قادرة على أن تتقمّص جميع نساء التراجيديا. صار المسرح مسكنها، تخرق مسام دورا، تنشلها من الغياب، تنصبغ بشياطينها ولونها الليلي، ثم تتوارى في شرنقتها، دودةً تتحضر لأن تحلّق من جديد فراشةً، لليوم التالي».

هذا ما رواه له ضياء العجمي عن هذه المرأة الوحدانية على المسرح؛ الوحدانية حين تلتف بغشاء التوحّد. ماذا بقي في ذاكرتها مما حدث في خربة خط التماس؟

ما سمعه، بينما الدم ينزف من رأسها، لم يكن صوتها. طوّق الذهول تفكيره، صار لعبة متأرجحة خارج مدار الزمن الذي احتواه معها في هذا الصباح.

عاد إلى رشده وسيارة الإسعاف تقوم بواجب نقل الجريحة إلى المستشفى. مضى في طريقه شارداً يسأل نفسه عمن تكون رشا رستم؛ العصفور النادر الذي لطالما بحث عنه ضياء العجمي، بين محترفي التمثيل للقيام بدور «دورا طير يغني في الليل».

«كنت ما زلت تحت وطأة الصدمة التي أصابت المسرح وكاليغولا، عندما فكرت في ستراسبورغ، المدينة التي أمضيت فيها أولى سنوات شبابي، أتعلّم نهاراً العلوم السياسية، وليلاً المسرح. كان ضياء العجمي، الشخصية المهيبة ببشرته المحروقة وسطوة صوته، يعطي دروساً في المسرح الرمزي، الميتولوجي إلى أن أدمنّا على الجلسات معه، بعد ساعات الدرس. على قدح من البيرة نلتقي في المقهى الجامعي و نتوسّع في حقول رؤاه، وصوته في مسامي يقول، «المنطق الذي تبحثون عنه، تجدونه في خيالكم الواسع».

هذا المنطق، دفع بشريف صافي إلى مسرح الخربة، بعدما اكتشف، صدفة، المرأة الميتولوجية، الساكنة عقله، في المقابلة التلفزيونية، ولم يكن مضى على عودته من ستراسبورغ سوى أيام. الخيال الذي تكلّم معلّمه عليه، عاد ولمسه في مشروع «أتوبي» من حلم امرأة، امتحنت المسرح العلاجي في بلجيكا، فحملته إلى أنقاض بيروت. إستدلّ على الخربة وفي خياله ما قاله له ضياء، «امرأة في عدة كائنات»، وخاب حلمه حين وجد كائنة عادية، كما بدت في المقابلة، سيّدة متّزنة، كسيّدات الجمعيات الخيرية، تطلب، لدعم مسرحها العلاجي، مساعدة من الذين أسّسوا المسرح اللبناني.

« باقات الورد ليست دوماً موجّهة إلى القلب» قالتها ومشحة وردية محت شحوب وجنتيها. ردّ، وفي باله هذه المرأة الغامضة التي حكى عنها ضياء العجمي، «امرأة من عدة كائنات»:

«لا يا رشا، هذه الباقة ليست موجّهة إلى القلب، بل إلى أوسع مساحة من حجمه الصغير، هي لكل الكائنات التي تحتويها في لاوعيك، في حاضرك

وماضيك. زيارتي لك اليوم للمصافحة الودية والتعرّف عن كثب إلى التي محا ضياء العجمي اسمها لأسباب غامضة لم تتوضّح بعد. هنا في وطنك انقشع الغموض عنك وبتّ إنسانة حيّة، وليس بنتاً الأسطورة».

نفضت الغطاء عنها كمن يقلب صفحة كتاب، في مضمونه ما ينير زيارة شريف لها مع باقة الورد. نهضت من سريرها ومشت خطوات إلى الكرسي المقابل لكرسيه، فتراءت له دورا، من خلال قميص النوم، دورا، بجسدها الذي كان في كل ليلة، يتلوى على إيقاع بوليرو رافيل، ويعلو في لهب نار المدينة التي حكمت بإحراقها. تمسّك بأصابع يديه حتى لا يخونه المشهد العالق في ذهنه كالرؤيا. جلست أمامه، امرأةً مختلفة عن تلك التي قصدها في خربة خط التماس. كان شيء من سر الكون في بريق عينيها. شعر بقلبه يهفّ إليها ويستولي على مشاعره: «ليتني أضم بين ذراعيي هذا الوهم في جسد امرأة».

قرأت ما في سرّه. مدّت يدها ولمست يده لتثبت له أنها من لحم ودم. هذه الحركة العفويّة لم تكن بريئة. شعر بمسام يدها تخرق جدار فكره، وتعرّيه من خفاياه. تأثيرها المفاجئ فيه، أربكه. أسكت نداء قلبه لها، ليعطي انتباهه لما راحت ترويه له عن حياتها:

«اعلم يا شريف، بأن ضياء العجمي لم يبحث في معهد المتوحّدين عن مواهب للتمثيل. كان مواظباً على عمله الإنساني بنيّة تحرير المتوحّد من قفصه وإعطائه ضمن قدراته، فسحة للتعبير. في ذلك اليوم الذي كان على اللجنة امتحان كل منا. رأيت أمي ثريا في المنام، تُخرج من حقيبتي

فستانها الأسود الطويل وتقول لي «البسيه لأحيا فيك». استيقظتُ وصوتها العذب الذي سحر والدي، في أذني. مع ساعات الصباح الباكر، شعرتُ بيد أمي تقتلعني من خطيئة ولادتي. رحلت عن دنيانا وظلّت تبحث عني في المنام، وتحثّني على الانتصار على موتها. فستانها، أصبح طوطمي، في مسامه رائحتها، عطرها، أحلامها، لبسته كي أغدو هي و أحيا بها. سمعتني أقول «أنا قتلت أمي لأحيا» فإذا برجل حالك كالليل، يلفّني بذراعيه ويقول:

«هذه الصبيّة لمست بكلمتها ميتولوجيّا الموت». كلمته كانت بداية قصّتي معه. مضيت وأنا لا أدري إلى أين، مغمضة البصيرة، كضرير مدّت له الحياة يداً تخرجه من غشاء التوحّد وتمنحه على الخشبة، الحريّة. دورا هي الأسطورة، ولست أنا».

قال وهو يتهجأ كلماته حتى لا يخطئ مع هذه القارئة في الفكر:

«هل تساءلت من عساك تكونين، حين تخلعين عنك الفستان الأسود، وتعودين، كما قال ضياء عنك، إلى شرنقتك، دودةً، تتحضر لولادة فراشة جديدة؟».

«بين الدودة في الشرنقة والفراشة الحائمة حول الضوء وقدرها الموت، فاصلة زمنيّة كانت تمحو من ذاكرتي مَن أنا».

سكتتْ خفراً، حتى لا يقرأ هذه الفاصلة التي كانت بها تنقذ دورا من الموت. كانت هي، بين ذراعي ضياء، تتخيّل ذاتها مصبوغة بسوادها. الحياة والموت، كانا يواصلان طقوسهما كل ليلة، حين تفرغ القاعة من جمهور دورا. حتى إنها

لم تعد تعرف في سَكْرة ولعها بضياء، أياً من دورا ورشا، مسكونة بالأخرى أسئلة وأسئلة صارت تجتاحني ويقيني أن لا جواب لها. إلى أن سمعتني أقول:

«أي جنون دفع بك لتتخلّي عن مسرح عالمي لأجل خربة على خط التماس؟

«أنا لم أتخلَّ عن ضياء العجمي. قال لي اذهبي وادفني موتاك وعودي، فالمسرح في انتظارك. خط التماس لم يكن حلمي، لو لم يُقتل والدي على هذا المعبر. ففي ذلك النهار الذي كنت في انتظار قدومه إلى فرنسا، ليرى ما حقّقه المسرح من معجزة شفاء ابنته المتوحّدة، كان القنّاص يترصّده. على بقعة دمائه نويت مسرحاً علاجياً لطالبي الشفاء. فارس رستم أرسلني إلى معهد المتوحّدين في بلجيكا، وضياء العجمي طوّع عجينتي بين يديه وحرّرني من شرنقتي. ومجيئك إلى الخربة، ظننته اعترافاً بمشروع متواضع لطالما حلمت به، أساساً لمسرح وطني».

وقبل أن يفلت العصفور من يده، سألها:

«هل ستطول إقامتك بالبلد؟»

«على عاتقي مسؤوليات جسيمة عليّ إنجازها عملاً بما تركته لي جدتي سلمى في وصيّتها، «الأرض إن أهملتها، أصبحت كفناً للذاكرة». فبعد أن امتلأ مدفن العائلة بهم، لم يعد من ذريتهم سواي حياً. عدت لأدفن والدي. عدت لأشيّد في المكان الذي قُتل عليه، مسرحاً علاجياً يحمل اسمه. عدت لأعيد إلى الكرم وبستان الزيتون عزّهما».

«والمستقبل يا رشا، هل أنت على قدر رسم خط طريق لك؟»

«لطالما كنت مدركة أن ما بعد الوهم، غير موجود إلى أن يحدث. كيف عساي أفكّر فيما ليس لي فيه موطئ قدم. الحاضر يغنيني عما مضى وعما سيأتي».

قامت عن كرسيها، ومشت بخطوات متمهّلة إلى حيث صور العائلة، مصبّرة في براويزها. هذا الجسد المنحوت بإزميل ضياء العجمي، تذكّره متصاعداً كشهب النار في بوليرو رافيل. في تلك الليلة أدرك إمكانات جسدها العجيبة في وصفه لواعج الروح، ومن كل مفصل، يلقي بيتاً من آيات شعر الحب والثأر والموت. أفيكون ضياء العجمي استملك هذا الجسد المثير كما استملك روحها وفكرها؟ شعر بالغيرة تنهش قلبه.

عادت إليه وفي يدها صورة ثريا بفستان المخمل الأسود الطويل. تفاجأ بالتشابه بين الابنة والأم. قرأت ما في فكره:

«أمي ماتت في عز شبابها. فلا شك، وهذا بتٌّ مدركة إياه، في أن الموت من حيث هو، يملك مفتاح الحياة. ثريا شاءت أن تعود إلى دنياها القصيرة من خلالي، لعلّها تكمّل ما بقي لها من مغامرتها المقصوفة باكراً. ظلّت تبحث عني في المنامات، لتحرّرني من انطوائيّتي. في مذكرات والدي تعرّفت إلى المرأة التي مات حبّاً بها. كان سكران بها على قدر مزاجها المتقلّب، تُبعده عنها وتناديه إليها على هوى اتجاه رياحها. وبالرغم من سلطانها عليه، فإن خوفها الدائم كان أن يتركها».

باقترابها منه و صورة ثريا في يدها، أحسّ بفوح الأنثى عابقاً من مسامها. لملم قشعريرات جسده في سرّه، السرّ، هذه الهدية النفيسة التي منحها الخالق للإنسان، للحفاظ على حميمية فكره ومشاعره من دون مشاركة أي كائن فيها.

أعادت الصورة إلى رفّها، تاركة للعطر الخافت المنبعث من باقة الورد أن يكسر الصمت.

الرجل الذي جاءها منذ أيام ساخراً، مستهزئاً بمشروعها، عاد حاملاً إليها الزهرة الأكثر معنى بين أزهار الطبيعة، مغلّفة بالغموض هي، إلى أن وشى عطرها بنيّاته، وبكتمان كلّي تلقتها قصيدة حب من عاشق، لم يكفّ عن تعريتها بخياله، مذ دخل غرفتها.

تقوقعت في كرسيها تحجب خفقات قلبها بذراعيها المصلوبتين على صدرها. كلمة واحدة قالها، كانت كافية ليتفكّك سحر هذا اللقاء، ويعود كل منهما إلى شرنقته.

من مسرح المدينة المهدّم أخذ شريف عامر حفنة تراب، وركب شختورة صيّاد ورحل من دون أن يلتفت وراءه. ستراسبورغ المدينة التي جاء إليها فتيّاً، طالب علم وهاوي مسرح، عاد إليها ممزّقاً، تاركاً وراءه أنقاض مسرح ووالدين قابعين في ملجأ الدير، الذي يؤوي صراخ الأطفال وخوف الكبار. لم يودّع شقيقه سامي الذي انخرط في ميليشيا القوات الوطنيّة للدفاع عن أرضه، وتحريرها من جحافل المستبيحين الأرض التي آوتهم. الثورة المتفجّرة في هذا الأخ الأصغر سناً، تلقّ

شريف شراراتها اللاسعة، باتهامه مرّات بالجبان والذليل، والمتخفي في شخصيات المسرح للهرب من واجباته الوطنية. صوت سامي أصابه كالسوط في لحمه يوم قال له:

«لولا صوت الدم الجامع لنا لقتلتك».

بمباركة من أمّه، وتخفيفاً للتوتّر القائم بين الشقيقين، عاد شريف إلى ستراسبورغ، يطلب من مدينة صباه، سقفاً يحميه، ونسياناً. تذكّرته ستراسبورغ وتبنّته. المسرح أعاد إليه إنسانيته. ضياء العجمي، في تلك المرحلة التي وصل فيها شريف إلى ستراسبورغ، كان في قلب الضوء، نقّادٌ من أهل الصحافة والمسرح ودُور النشر، تقاسموا هذا الأثيوبي الآتي من بلاد الشمس المحروقة. البعض أثنى على روح الثورة المشعّة من كتاباته ورؤاه الماهرة في جَبْل الواقع والأسطورة في العمل الواحد، والبعض الآخر استيقظت في حبره خمائر عنصرية عتيقة، لطالما كانت تبث في أميركا سموم الكراهية والرفض للآخر.

الشائعات المتداولة عنه في الوسط المسرحي، كان ضياء العجمي يتقبّلها بتفهّم ورحابة صدر:

«اللون الأسود، كان يقول لطلاّبه، سيظل على مرّ الأزمنة آفة لا شفاء منها، ينبغي للرؤيويين الأصحّاء الإضاءة عليها، والتجاهر بها على المسرح، بدلاً من التستّر عليها و محاربتها بلا جدوى. فالمصاب بداء العنصرية هو على قناعة أبدية بأن كل من هو مختلف عنه يهدّده في طمأنينته».

كلمات ضياء العجمي، كان شريف يتلقّاها بروحه المعذّبة، فتنقله بلحظة إلى حيث أراد أن ينسى، الحرب المدمّرة وطنه وصيغة عيشه:

«لم أعد أفترق عنه. أنا و رفاقي كنا نعيش معه حالة عجيبة لا تتكرّر، كاتب ومفكر من زمننا، حيّ فينا، يرافقنا إلى السينما، نجلس معاً حول كوب بيرة في مقهى، نناقشه في شتى المواضيع ونكتسب من فكره الواسع معرفة. يوم أعطاني مسودّة مسرحية «الشقيقان» قال لي:

«اقرأها يا شريف. ستدرك في تمعنّك فيها أنها من وحي ما سمعته منك، تروي لي موت كاليغولا وأنت تشهق بالبكاء. لمست أوجاعك، وأوهامك. رأيت بخيالي خصامك مع سامي. شقيقان مختلفان في رؤاهما للوجود. الصغير يقاتل بجسده حتى الموت دفاعاً عن وطن أبى أن يكون البديل عن فلسطين السليب. الأكبر سنّاً، أنت، جعلت المسرح وطناً، لبست ثوب كاليغولا بينما شقيقك في بدلة القتال. كلاكما كان يصارع الموت، أنت في الخيال، وهو في ساحة القتال. خذها واقرأ، شقيقان من بطنين مختلفين، أسود وأبيض. تمعّن في المضمون، ثم نباشر التمارين».

«حتى ذلك الوقت وكاليغولا في دمي. لم أكن أتصوّر أن المسرح يمكنه أن يروي أحداثاً من وجودنا، حيّة فينا. كنت على خطأ. كان في إمكاني أن أفوّت عليّ هذا اللقاء مع ضياء، فيما لو بقيت في بيروت. مضيت بالمسودّة مسرعاً إلى غرفتي، وقلبي يطلق من فوهّته الرصاصة التي هدّدني بها سامي، وأنا واقف أمامه لا أُقْدم على حركة، وهو يرشقني بما هو أقوى حفراً في النفس من الرصاص «جبان أنت يا شريف، تتخفى في شخصيات الأساطير هرباً

من مسؤولياتك».

«في سعيي الدؤوب لأستنير بنص من صميم الوجود، كتبه ضياء العجمي لشخصيّتين، كنت أشعر وأنا أتقدّم في قراءة تحفة أدبيّة، مكتوبة بقلم شاعر، آت من إرث تقاليد كبرى، بعجزي فهم استعاراته المعقّدة. عبارات مبتكرة، جديدة على سمعي، صرت أردّدها بغرابتها، وأنا تائه بين الأسود والأبيض، لا أدري أيّهما أنا».

ما إن بدأت المسرحية، والحوار في حافظة ذاكرته، حتى تفكّكت عقدة الاستعارات حين تعرّف شريف إلى آدم، الشاب المديد القامة، الملفوح بشموس أفريقيا السوداء. من الظل خرجا، وببطء سارا حتى تلقّفهما الضوء الساطع، وكشف، كمن يقشر الجلد عن اللحم، لونيهما. المواجهة شرسة. بينهما لا شيء سوى العداء، العداء الفعلي أكثر من العداء الشعوري. شقيقان من بطنين مختلفين، هذا ما أراده ضياء العجمي في مسرحية «الشقيقان». اللون الأسود حاضر دوماً في كتاباته، وهذا ما لفت انتباه شريف في قراءة المسودّة. الدور النافذ لآدم. شقيقان مرتبطان بالتاريخ والدم، لكن في هذه المواجهة المكتوبة بشاعرية مدهشة، كان لآدم أن يثور كحيوان مفترس، على عهود من الظلم والعنصرية والاستعمار، بينما شريف، من قعر أشجانه، يطلق عليه الرصاصة القاتلة: الوحدة:

«في عزلته يتدرّب الإنسان على الموت».

ويردّ آدم عليه:

«أنا ثائر لأحمي نفسي من العدم؛ ثائر لأصرخ علناً «أنا موجود». أما أنت، فأراك منذ صغرنا تعيش في خيال كاذب، تهرب من سوادي لتحمي غرور بياضك الباهت. ماتت أمّك فتزوّج والدك خادمته الحالكة بسوادها، ترعاك وتحضنك بين ذراعيها. إلى أن جئت إلى الوجود. سم العنصرية تفشّى فيك منذ ذلك اليوم الذي أخذت فيه مكانك في حضنها. المستعمر حاول طردي من أرضي، سحقي، إذلالي. لن تراني بعد اليوم، فلقد سئمت لعبة الأخ المطارد أخاه لينفيه من حياته».

« بل ابقَ هنا، ما دمت لم أستطع بعدُ محوك نهائياً من حياتي».

يقع آدم مصعوقاً. كلام شقيقه خرق صدره كالسيف. من كيميائية المسرح يبدو كاليغولا يغسل يديه من دم آدم قائلاً:

«أنا حيّ الآن».

الكلمات، كما سنّها ضياء، كانت أقوى شراسة من السلاح. كلمات قاسية، جارحة، سلبت الإنسان إنسانيته، وأحلّت في كل منهما، وحشاً يتكلّم لغة البشر.

في الطائرة، العائد إلى الوطن راح يتذكّر» الشقيقان»، تجربته الأولى مع ضياء العجمي. المسرحية ما زالت تعصف في دماغه منذ ذلك الحين، لقد قرّبته من ضياء العجمي، بقوّتها ومفعولها المدهش على كل من الممثلين، وتركت في نفسه، في آن، اقتناعاً بأن ضياء إنسان حقود، يستغل مواهبه في الكتابة والإخراج ليفشّ غليله ضد الغرب الأبرص السمات،

كما يسمّيه، المحفورة على جبهته ثلاثة قرون من استعباد اللون الأسود واستعماره ومحو ثقافاته وتقاليده. أحب ضياء وكرهه. هذا الشعور المتناقض، توّجه اعتقاد بأن ضياء من أهل الجان، يحرّك مصائر ممثّليه بتسلّطه على ضعفهم. ارتعش في استعادته المشهد النهائي للمسرحية. في تلك الأثناء، التي وقع فيها آدم ميتاً على الأرض، أتاه خبر مقتل سامي في أسواق بيروت.

المسرح ليس الحياة، هذا ما تعلّمه من ضياء. وفعلاً، بينما التصفيق على أشدّه في الصالة، كان آدم يعانق شريف، وشريف يهنّئه على تفوّقه في إيصال الرسالة السوداء إلى الحضور. لم يذهب إلى مأتم شقيقه، لم يغفر. تهجُّم سامي عليه كان جارحاً، كيف ينساه:

«لولا صوت الدم الجامع لنا لقتلتك».

هل فعلاً تبنّته ستراسبورغ، أم هو اعتقد ذلك وقد جاء إليها متسوّلاً ولادةً جديدة؟ في ابتعاده عن حرب لبنان وحربه مع شقيقه، بنى شبه حياة. ضياء العجمي وجد فيه سمات الشرق ودفء شمس غائبة عن نفوس أهل الغرب. دعاه إلى المشاركة في محترفه. صار صديقاً، يبتزّ منه إرثه وثقافته وفكره، ويبقى هو محاطاً بالغموض، نوافذ حياته في إثيوبيا مقفلة على كل متطفّل يحاول استباحتها.

كانت ليتيسيا مدرّبة الرقص المعاصر في معهد موريس بيجار، تتردد في تلك الآونة على محترف ضياء العجمي، وتشارك في اللقاءات الجامعة معاً المسرح والرقص والفنون التشكيلية:

«قبل أن تتحرّك مشاعري نحوها، كنت ألمحها تبحث عن كرسي يقرّبها مني، إلى أن همست في أذني ذات يوم:

«هذا الرجل الآتي من أرض إتيوبيا، في حياته سرّ عجيب. العنف الذي ينسج به مسرحياته يوحي بإنسان أشعل حياته حرائق قبل أن يهتدي إلى المسرح».

هالني ما سمعته من أنثى رقيقة، شفافة، تكاد لا تدوس الأرض حين تمشي:

«وهل أنت ملمّة في قراءة الغيب؟»

«بل هي كلمة صغيرة قالها لي:

«اقبليني في فراشك يا ليتيسيا ولا تتمرّدي عليّ، الاغتباط الذي أمنحك إيّاه، ما في استطاعة شلاّل ماء إطفاء ناره».

«وهل امتحنت إله الحب هذا؟»

«كنت على وشك، لكني خشيت أن أحترق في جحيمه. الرقص رسالتي ولغتي».

في تلك الليلة سمعت صوت ليتيسيا، كالهمسات تناديني. ما كدت أفتح باب غرفتي حتى رأيتها تحتمي بيّ:

«شريف، احذر منه فلو عرف أني اختبأت عندك، سيصب جام غضبه عليك. منذ الأمس وهو يطاردني ويقول لي لن تفلتي مني. توخَّ الحذر منه، ضياء رجل مخيف».

مَن مِن الأثنين كان يمارس فعل المطاردة؟ ضياء مطارِداً ليتيسيا أم ليتيسيا الرقيقة تحجّجت بضياء لأكون أنا طريدتها؟

ليتيسيا كانت مرشدتي إلى المرأة. بلمحة، تعرّت من فستانها بلا مماطلة، و استلقت على الفراش، تنتظرني. بصوتها العذب دعتني إليها:

«هذه ليلتنا يا شريف».

«في الحقيقة، لم أكن محترفاً أصيلاً في رغبات المرأة وأعاصير أحاسيسها، كما ينبغي لشاب قارب الثلاثين. ولا حتى المفردات الكفوءة للفوز بما تنتظره مني ليتيسيا من مهارات، تجعل هذه الليلة ليلتنا. الحرب، كما عشت بداياتها، استولت على كياني وجرّدت جسدي من أحاسيسه الإنسانية. تعرّيت من خفري أمام نظراتها المعاينة ذكوريّتي المتهدّلة، كطبيب استدل على الداء، وبخبراته سيكون العلاج فورياً. فراشي الضيّق صار، بسحر ساحر، الفردوس الذي جمع تحت شجرة تين آدم وحواء. آدم الذي ذاق طعم الخطيئة في جسد حواء، آثر استبدال الفردوس بحياة القهر لأجل قضمة من تفاحتها. أرشدتني ليتيسيا إلى المواقع الحسّاسة التي يحلو التنقيب فيها، وصوتها في أذني، موشوشاً، مثيراً، يستفزّ حيائي. كم من آدم جاء قبلي إلى فردوسها وأكل من تفاحتها القارصة. لم أكن معنيّاً بماضيها، أطلقت للنار المنبثقة مني العنان، تقودني على هذا السلّم العجيب، الذي كلما وطأنا درجة من الانسجام والتآلف، كنّا معاً نتأهّب ونرتقي إلى أعلى وأعلى، ما دام عطش جسدينا لم يرتو بعد. راقصة الباليه التي رأيتها تسير على رؤوس أصابعها، دخلت فراشي بلا موعد، لبؤةً، متوحّشة بعناقها، قاضمة في

قبلاتها، مخرمشة بمداعباتها. معها دخلت في عالم مجوني، لا يؤلّه الحب كما في المسرح، ولا يرتقي به إلى الجمال، بل يعيد الإنسان إلى طبيعته الحيوانية، المفترسة. ليتيسيا كانت في الرقص، الرقة والخفّة والسراب البعيد المنال، وكانت في فراشي ناراً أكولة، تلتهم الحب وتؤجّج لهبه من دون استراحة. معها تعلّمت أبجدية الجسد. أمَا لهذا الهدف، سلّمها ضياء إدارة فرع الحركة والإيماءة؟ بمروءتها وفروسيتها، أوصلت الضرير إلى اكتشاف منابع الحياة في جسد امرأة. من أعلى قمة الزهو كنت أرجع إلى واقعي، وأنا اسأل حالي: وماذا بعد هذا الليل؟

حين هدأت العاصفة وأصبح كل منا على قدر أن يتعرّف إلى الآخر، جلست ليتيسيا على حافة السرير تفكّر فيما تريد أن تقوله:

«أتعلَم يا شريف بأن الإناث في معاهد الرقص، يعشن منعزلات عن علاقة عاطفية مع زملائهن الذكور؟ حين بدأت أرقص، وكنت في فوعة السن التي يتفتح فيها الجسد على الحب، كنت أفكّر بسذاجة في أن رقصة عاطفيّة بين راقص وراقصة، قد تؤدّي لا محالة إلى قصّة حب حقيقية. إذ كيف لهذين الجسدين أن يفترقا بعد أن يبثّ الواحد في الآخر وهم الحب، كأننا نعيشه فعلاً. مشاهد الحب بين روميو وجولييت، وموسيقى بركوفييف تقودنا من العشق الجنوني إلى الموت، أدّيتها على مدى سنة كاملة مع بنجامان الراقص الأوّل في الفرقة. معاً طفنا الغرب والشرق الأقصى، عشيقين خياليّين كنا، نحيا على المسرح طقوس الحب بلهيب جسدينا، فيما لم تكن الحقيقة سوى كوريغرافيا رائعة، مثيرة بتفوقها الفني الرفيع. في هذه الأجواء المشحونة

بالانفعالات الكبرى، لم أمنع نفسي من أن أحلم بالمستحيل. ليلة واحدة لا أكثر مع بنجامان».

ماذا بعد هذا الليل؟ على حافة السرير، الجسد الذي كان منذ هنيهات يمتطي فحلاً يريد ترويضه، بان لي سريع العطب، جبله الله من خيال ونور. تسربلت مشاعري. تهت بين النار الأكولة وهذه الآية البديعة المعروضة بعريها للتأمّل. ليتيسيا، أي امرأة هي؟ هل أتت إليّ لأسدّ الجوع العاطفي الذي تشكو منه الإناث في معهد الرقص المعاصر؟ أدرك شريف أنه لن يطيق بعد اليوم الأفتراق عنها. لقد ترك في أحشائها النواة التي وُلد منها.

غيباتها الطويلة عنه في جنيف، زرعت في نفس شريف خمائر من الشك والغيرة. من دونها كان يشعر بالوحدة، صحراء فارغة من عناصر الحياة. ستراسبورغ أصبحت بالنسبة إليها، العودة ليلاً إلى حضن شريف، بينما النهار مخصص لتدريب طلاّب محترف المسرح على التوازن والتناغم الدقيق بين الكلمة والحركة. كان ضياء بحواسه، الملتهبة رغبة في هذه الفنّانة، يراقب سحرها على الفتيان والفتيات، بينما كان شريف يموت غيرة من نظراته المحدّقة فيها. لم يعد يغمض له جفن، ما دامت هي باقية لأيام في ستراسبورغ، يتخيّلها تخرج من فراشه الضيّق إلى أدغال هذا الأثيوبي الحالك.

«بدخول رشا عالمنا، اكتشفت الجانب الظليل من ضياء. إنسان جريح تنزّ جروحه في من يجدهم أكثر منه صدوعاً».

مرّ زمنٌ ورشا تؤدي أدواراً صغيرة مفصّلة لشخصيّة منفردة. كان ضياء،

و النص مكتوب لأكثر من ممثل، يراها تنعزل في شرنقتها، مكتومة اللسان، عاجزة عن الحوار مع أحد سواها. هذه الحالة النابعة من عمق علّتها، راهن عليها ليخلق من هذه المتوحّدة، حلمه الكبير: «دورا طير يغني في الليل».

«تذكّرت وأنا في الطائرة، عائداً إلى الوطن بعد سنوات من الغياب، ما قاله لنا:

«أظن أني وجدت ضالتي. الفتاة المتوحّدة، باتت تُدهشني يوماً بعد يوم. ما إن أكتب لها دوراً، مهما يكن صغيراً، حتى تنكبّ عليه، تدرسه وتحفظه، حتى تبيّن لي، ما تاه عنه أطباء هذا الداء، أن المسرح علاج المتوحّد. النص في ذاكرتها، حرّك حيويّتها. صرت أتابع معجزة التحوّل وأنا أتحوّل معها، فأتعلّم منها أسرار هذا الكون العجيبة. رشا، كانت السر الذي دعاني إلى التنقيب أعمق في طبيعتها المقفلة».

«هل كان ضياء العجمي يعلم، وهو يحكي لنا عن حلمه الكبير، بعلاقتي بليتيسيا؟ لمحته يتفقّد ردة فعلي حين زف لنا خبر عودتها إلى محترف المسرح بعد غياب طويل، مدرّبة رقص للبنت التي أتى بها من معهد التوحّد. تصنّعتُ اللامبالاة حتى لا أُفشي سرّنا أمامه. رحت أتصوّر ما سيكون لقاؤنا بعد كل هذا الغياب، خلال المناسبة التي دعانا إليها ضياء لرفع الأنخاب إحتفاء بمدربة الرقص وتلميذتها رشا.

رآها تتجوّل بين الحضور، تعانق هذا، تقبّل تلك، والكأس ما إن تفرغها في حلقها حتى تتناول أخرى، إلى حين قصرت المسافة بينهما. التقت نظراتهما كالذكرى العابرة. آلمه أن يكون أصبح من عتيقها. ابتعدت والكأس في

يدها تبحث عن رشا الضائعة بين الناس. طوقتها من خصرها النحيل ومشت معها تكلّمها، بينما رشا منصتة، لا تتفوّه بكلمة، إلى أن انضم ضياء إليهما، منقذاً سكوت رشا، بمعلومات تحتاج إليها ليتيسيا في عملها معها. من مرصده، كان شريف يرى ما يجري، بشعور العشيق المنبوذ من حياة المرأة التي أوقدت أغصانه الطريّة ثم تركتها باستخفافها تذوي رماداً. جرع كأسه الطافحة بالشكوك وخرج من الاحتفال.

عقارب الوقت فشخت عن منتصف الليل حين سمع طرقاً على الباب. قام من غفوة سكره ليراها في صحوة مغبّشة، تكمّل المنام الذي قطعته بمجيئها. ليتيسيا، التي لم تتلف الكؤوس التي جرعتها، صحوتها، دخلت مع حقيبتها وفرح اللقاء في أساريرها، بينما كان متجهّماً، كسيراً، يود أن تقنعه بأنها عائدة فعلاً إليه، لا إلى غرفة، أيِّ غرفة، تبيت فيها.

ليتيسيا لا تساوم حين تعثر على الشخص الذي تنجح في تطويع جسده على متطلّبات جسدها. كان شريف لؤلؤة في صدفة، لم تمسَّها يدُ بعد. معها استفاق على الدنيا، وبعطائه الكلّي لها، ارتوت، نحلةً، تعرف من أي تويجة تمتص رحيقها لتجني عسلها. لم يخيّب شريف شهواتها. لا تكاد تعود إليه حتى يكون في انتظارها، برعماً يتفتح بكل حواسه بين ذراعيها. فلعلّه، حين بدأت تتعرّى من ثيابها، نسي ما تكبّده من استهتار ولامبالاة خلال الحفلة. فوح الأنثى في أنفاسه، صحّى شريف من سَكْرة الكأس، وأدخله في سَكْرة من الصعب الصحو منها.

من معهد الرقص، حصلت ليتيسيا على إجازة طويلة، لحاجة ضياء العجمي

الماسّة إلى اختصاصية، تتولّى إدارة الفرع التابع لمحترف المسرح، ولاسيما تدريب رشا على دوزنة حركة جسدها.

«جسد رشا صامتٌ صمتها، أريده أن يتكلّم، يصرخ، فلديه ما يقوله».

سلّم ضياء العجمي الأمانة إلى ليتيسيا، ومضينا أنا وآدم معه، إلى مهرجان المسرح في قرطاج وزادنا مسرحية «الشقيقان» الحائزة جائزة النقّاد الأوروبيين في باريس. لم تسألني ليتيسيا كم يطول غيابي عنها، بينما كنت، وحرقة غيابها عني توجعني، أصرّ عليها، كلّما حان وقت رجوعها إلى بروكسيل، أن تفيني بموعد، بيوم، بساعة، أتدرّب خلالها على الفراق. دخلت ليتيسيا في عروقي كالكوكايين الذي يغدو الاقلاع منه مستحيلاً. الابتعاد عنها حين تدعونا المسارح الأوروبية إلى تقديم جديد ضياء، لم يكن ليقلق طمأنينتها، بل كنت أشعر، في احتلالها الجزء الأكبر من غرفتي، بأن اللبؤة حطّت فيها عرينها، إلى أن ضاق بي المكان، وصرت أشعر بالاختناق. فبالرغم من حاجتي الماسة إليها، فإن ليتيسيا كانت تسرق من رئتيّ الأوكسيجين الذي أتنفّسه، وقبل أن أصبح الضحيّة بين براثن جلاّد، فكّرت جديّاً في التخلي عن ملكيّتي لها، واستئجار ما يكفيني من مساحة في حرم الجامعة التي درست فيها قبل سنوات.

الليلة التي عدنا فيها من قرطاج، وكنت كلّي شوق إليها، فاجأتني ليتيسيا بما لم أكن جاهزاً لسماعه:

«شريف، انا حامل».

شعرت بالكلمات الثلاث «شريف، أنا حامل» كمن يرجمني بالحجارة. وقف الدم في عروقي وأنا كالأبله أمامها أنتظر أن يأتي أحد ليأخذ بيدي ويحرّرني من مسألة لا حلّ لها عندي في هذه اللحظة، سوى التمهّل والتشاور معاً على ما يجب أن يكون.

كانت أسرع مني في اتخاذ القرار:

«أنت أهديتني أجمل ما كنت أتمنّاه، أن أكون أمّا. استحوذ الرقص على كل طاقاتي ولم أتنبّه لعمري المسرع أمامي».

برقّتها ومشيتها التي تكاد لا تطأ الأرض، لم تكن نضارة ليتيسيا تُحصى بالسنين... على أي عمر تكلّمت، والزمن كان واقفاً لا يتحرّك، بينما الفتى بين ذراعيها يغدو رجلاً. أيحق لي الآن أن أسألها عن عمرها، ما دامت تعتبر حملها هديّة مني؟

«غلّت فيّ، وأنا لا أدري مَن أنا». العائد من قرطاج، مشتاقا إلى ليلة معها، يفرش النجوم على جسدها، تفاجأ بانقلاب جذري في حياته. حتى تلك اللحظة التي تلقّى فيها الخبر، لم يكن شريف يعلم بأن الدروس الأناتوميّة القيّمة التي لقّنته إيّاها ليتيسيا بأصابعها الساحرة، كانت ضريبة باهظة، لا يعرف الآن كيف يسدّد دينها.

حدّثها عقلها عما في فكره. لم تترك له مجال المراوغة:

«الهرب من الواقع يا شريف ليس حلاً. الجنين في بطني هو ثمرة علاقة أحطناها بسريّة تامة، تجنّباً للأقاويل المضرّة في حق كل منّا. الآن، لم يعد بدٌّ

من إفشاء سرّنا علناً. معاً، سنعلن للرفاق عن رغبتنا في الزواج. ضياء لن يرفض أن يكون شاهداً على زواجنا، وإن فاجأه الخبر».

«ركنتُ تحت الأمر الواقع، لا أبدي رأياً. فهل كان لي دور في هذا الحدث «السعيد»، سوى تمثيله. الراجع من قرطاجٍ مع آدم، بميدالية أفضل ممثلين، لم يكن في حفلة الزفاف المزيّفة هذه، أقلّ براعة، حين أجاب بالصوت العالي «أجل! أريد ليتيسيا زوجة لي»، بينما كنت أرتعش خوفاً من المجهول المتربّص في بدلة العرس».

«في هذا الفخ الذي علقت فيه، كان الانتشاء بالشامبانيا الفوّارة علاجاً ولو موقّتاً لما سوف سأعيشه بعد حفلة الكوكتيل التي تلت مراسم الزواج. هذه المسرحية التي لم يخطر في بال ضياء العجمي كتابتها، جاءت مرتجلة. الممثل الماهر فيها، المتنقّل من مدعو إلى آخر، طامشاً ما في النفوس من كرب و زغل، هو الكأس؛ هذا الشيطان القادر على أن يوحّد الأمزجة، في «ألليغرو» السكر، كأوركسترا، يقودها مايسترو من عصارة الكرمة ومفاعيلها.

في تلك الليلة التي صرت فيها زوجاً، أدفع ثمن تعلّقي الطائش بجسد ليتيسيا، همت في الشرب ونفسي الحزينة مصرّة على أن تجعل من عدو الإفراط حليفها، من غير أن تغيب ليتيسيا عروسي، عن نظراتي. كأني كنت أراها للمرّة الأولى، كائنة من الخيال في فستانها الأبيض الشفاف، الكاشف محاسن جسد راقصة الباليه. فبينما كنت أتجرع الخمرة لأنسى، كانت هي في أرقى طبقات الاكتمال. الأمومة النابضة فيها، روت

عطشها، وأنارت أساريرها بمسحة من السكينة. لم أكن شريكها في ارتقائها فوق جاذبية الأرض، حاملة الجنين الذي زرعتُه سهواً في بطنها».

بين ليلة ونهار صرت زوجاً لامرأة ما عادت في حاجة إليّ في فراشنا. تركتُ الغرفة «لهما»، ومضيت إلى حرم الجامعة، حيث أصبح لي في الليل مرقد مع طلاّب أصغر مني سنّاً. وفي النهار، أجتمع مع زملائي لندرس معاً جديد ضياء. أما في أثناء غياباته المتكرّرة في بلجيكا، مستشاراً فنيّاً لمعهد التوحّد، فكنت أتولّى، بطلب منه، تدريب الطلاّب على فن الإلقاء، فتأتي رشا، ضامة إلى صدرها شهريار، هرّها الأبيض. تقف هنيهة كالرؤيا التي لا يصحّ فيها أي نعت بشري، ثم تتوارى كالنيزك من دون أن تنبس بكلمة. عبور رشا النادر أمامنا مع شهريار، كان له تأثيره في إسماعيل، زميلي الإيراني، فما إن تظهر في الضوء حتى يتلعثم الكلام على لسانه، وبصعوبة يقول:

«هذه الكائنة كالحلم الذي نستيقظ منه دون أن يترك من معالمه أثر فينا».

أقام ضياء العجمي بين الصبيّة المتوحّدة وبيننا حاجباً، لم نتورّع مرّة عن تجاوزه. رشا، كانت تعبر الجدران كالروح، وتقف مع شهريار تتأمّلنا لحظة إستكشافية، ثم كالشهب تختفي. كانت ليتيسيا شبه مقيمة معها، تقوم بما أوحاه ضياء إليها حين حدّثها عن رشا: «جسد رشا صامت صمتها، أريده أن يتكلّم، يصرخ، أنا متيقن من أن لديه ما يقوله». وإن سألها أحد منّا عنها، كانت تراوغ باجوبة مبهمة لا تشفي غليلنا.

«ثلاثة أشهر مضت على زواجي من ليتيسيا، كنّا خلالها شبه منفصلين، لا نتلاقى سوى عن طريق الصدفة. أمام بطنها النافر والكيلوغرامات الفائضة التي محت من ذهني راقصة الباليه الخفيفة كالريشة، كنت أتحاشى أي اصطدام بيننا قد يغيظ ضياء ويجبره على كلام قد لا يسرّني. فعلاقتي السريّة بليتيسيا اعتبرها خيانة بحق عائلة المسرح. وبالرغم من ذلك، لم يرفض لليتيسيا طلبها، وجاء شاهداً على زفافنا. فهل كان عليّ أن أعترف له بحقيقة ما حدث، هو المعلّم والأب الروحي لطلاّبه؟»

بين الفينة والأخرى كانت ليتيسيا تبحث عن شريف لتذكّره بأنه هو من سبّب كل هذه الأورام التي حلّت بجسدها. راحت سَكْرة الأمومة وحلّت محلّها فكرة نجوميّتها: راقصة أولى في فرقة موريس بيجار. كيف عساها ستعود إلى معهد الرقص بجسد كهذا، شوّهه الحمل، حين ينتهي العقد الذي أبرمته مع ضياء؟ فرشا باتت أهلاً لتكون دورا؛ الشخصية الميتولوجية، التي يعوّل ضياء عليها. أمّا هي؟ فلماذا أبعدت شريف عنها بدلاً من أن تروّضه ليكون أباً مثلما روّضته ليكون عشيقاً؟ لم تنسَ كيف تلقّى خبر حملها. سقف الغرفة كاد يسقط على رأسه بينما كانت هي، تزقزق فرحاً. قبل على مضض بالأمر الواقع، وتزوّجها. أبعدته عنها بعد أن تلقّت منه الهدية، كما أسمتها، وانفردت بها. هذه الأمومة خاصّتها، لن يزاحمها عليها أحد. هذا ما فكّرت فيه حين تأكّدت من أنها حامل. فالأمومة، حلمت بها ليتيسيا اكتمالاً لسيّدة الرقص، وتتويجاً لشهرتها. أما الآن و الجنين في بطنها يذكّرها كلّما تقيأت، بخطيئة اقترفتها بعطشها إلى العناق ولا ترتوي، ولا يرتوي. جسده الذي لم يعرف جسد أنثى حتى تلك الليلة، تنبّه لجوع غافٍ في أغواره، جاءت هذه اللبؤة لتوقظه.

إلى تلك الليلة التي اقتحمت فيها ليتيسيا حياته، لم تكن خبرة شريف بالنساء تعدّت شفتي صوفي، رفيقته في معهد المسرح الذي كان يتردّد عليه بعد دروسه في الجامعة. في عتمة السينما اكتشف طعم القبلة. شفتا جينا لولو بريجيدا في فيلم «أحدب نوتردام»، أوقعته في خطيئة الرغبة التي لم تكن عبرت كيانه حتى ذلك الوقت. انحنى على صوفي وقبّل فمها. لم تمانع. لعلّها كانت تنتظر منه أكثر. قامت من مقعدها وجلست على ركبتيه، تمرّغ وجهها كقطة في وجهه. إلى أن استدل على فتحة قميصها. أصابعه المرتجفة حياءً، عبثت بثديها، تدغدغه، وصوفي تئن لذةً. خرجا مسرعين من «أحدب نوتردام» وإغراءات لولو بريجيدا تطاردهما، إلى أن وصلا إلى غرفته. ظلّت واقفة عند الباب، متردّدة. بردت أحاسيسها الملتهبة، واعتراها قلق مما سوف يحدث في ما لو دخلت. فرّت هاربة. لم يَرَها بعد ذلك اليوم في معهد المسرح، إلى أن قرعت ليتيسيا بابه بعد سنوات، ودخلت إليه كزوبعة، من دون استئذان، تكمّل ما أفسدته صوفي في ذلك اليوم. فوحها فيه، كان أقوى سكرةً من شفتي صوفي وثديّها الضامر. بأظافر اللبؤة انقضّت عليه ترشده إلى جغرافيا جسدها.أصبح ملمّاً أسرار المرأة، إلمامه بأسرار جسده. دخلت ليتيسيا كحشيشة الكيف في عروقه، فتعلّق بها.

في ستراسبورغ، أكملت ليتيسيا حملها، مواظبةً، بالرغم من ثقل همّتها، على إدارة فرع الرقص والإيماء ومتابعة رشا في المراحل التحضيرية الأخيرة، لبدء المسرحية. بانتقالها إلى شقة محاذية للمحترف، وعودة شريف إلى غرفته، ساد بينهما شيء من الاستقرار والتفاهم. كان يأتي لزيارتها بين الفينة والأخرى، حاملاً إليها باقات الورد والحلوى. فلا تأتي على ذكر الجنين

الذي بدأ يتحرّك في بطنها، ولا هو يسألها عمّا كان هدية، شكرته عليها، فانقلب ذنباً اقترفه طيش شبابه. هذا ما حكته لضياء، ونقله ضياء إليه وهو يوصيه بأن يتفهّم وضعها:

«ليتيسيا تمرّ في مرحلة صعبة مذ أثقل الحمل جسدها. لا تتخلّ عنها. هي زوجتك و الطفل طفلك، لا تنسَ».

«عن أي طيش كلّمتك ليتيسيا، وهي التي قرعت بابي ودخلت إليّ كفاتح جاء يغزو أرضاً...». لم يدعني أكمّل قصة الفتوحات هذه، إذ رأيته يخفي رأسه بين يديه و يشهق بالبكاء. كانت المرّة الأولى التي أرى فيها معلّمي يبكي. قام وخرج من الباب وأنا في حيرة من أمري. فلعلّي ذكّرته بشيء خاص به.

قبل بزوغ الفجر، نادته ليتيسيا ليأخذها إلى دار التوليد، فأوجاع المخاض تتسارع.

تاه في أفكاره. كيف عساه يتصرّف؟ كزوج، كصديق؟ المنطق دلّه على الجواب: ألست أنت والد المولود الجديد؟ صفة جديدة ألصقت به، تلقّاها كدور لمسرحية سوف يطّلع على مضمونها بعد الولادة.

وقف عند باب غرفة العمليات ينتظر. طال الوقت إلى أن أتت الممرضة المساعدة تعلمه بأن الولادة متعسّرة في مضيق حوض الأم، ولا حلّ سوى في عمليّة قيصرية إنقاذاً لحياتها وحياة الطفل. لم يكن له رأي فيما يجدر بالطب إجراؤه. عاد ينتظر خبراً يطمئنه، إلى أن سمع بكاء المولود

الجديد. خرج الطبيب مهنئاً إياه بسلامة الأم و الطفلة. كانت الساعة قاربت الخامسة صباحاً. عاد إلى غرفته. استحم، وحلق ذقنه، وتأنّق في ملبسه، وانتظر أن تبدأ حركة السوق ليختار ما يليق بليتيسيا وطفلته. الحياة لم يكن قد شعر بها بعد، هديّة من الله، بل دوراً من مسرحية مكتوبة بيد القدر.

لما حان موعد الزيارات في المستشفى، استدلّ على غرفة ليتيسيا، وبيده باقة ورد بيضاء وعلبتان صغيرتان. قبّل جبينها مهنّئا إيّاها بالسلامة، وضع باقة الورد على المنضدة، ثم تابع تمثيليته بما يجدر برجل لائق فعله. فتح إحدى العلبتين و أخرج سواراً من الذهب مطعّماً بحبيبات صغيرة من الياقوت وقدمّه إليها. إلتقت عيناها المكحلتان بظلال قاتمة، دموعه. أمسك يدها برفق وأدخل الحلية في معصمها. شكرت شريف على هديته الثمينة، بينما كان يتابع مجريات الأحداث بتروّ وإدراك. أين ولّت لياليه مع ليتيسيا، ومعها عطشه المزمن إليها، ليحلّ مكانها دور الزوج والأب المتوجّب عليه بعد اليوم تأديته؟

بعد رهجة السوار وبريقه، عادت ليتيسيا تشكو من ذيول الولادة، والجرح البليغ في بطنها. قرأ، وكانت تستقيم في جلستها، بياناً محضّراً. أمسكت بأسفل بطنها وهي تئن وجعاً. طلبت منه أن يرن للممرّضة كي تأتيه بالمولودة الجديدة. تنبّه لجديّة الأمر. كبر وشاب. صوت ليتيسيا أتاه لاهثاً، من شفتين مشققتين:

«خذها يا شريف وضمّها، هذه ابنتك».

الديفا التي أطلقت الحياة من خفّيها، روحاً على شكل جسد، لم تكن هي ذاتها عند الوضع. بدت في فراشها، ككومة قش بعد الحصاد. الأمومة تمنّتها، لكنّ في صراعها الباسل للانتصار على الموت الحائم حولها، أيقنت أنها سلبت منها أسطورتها، لتجعلها امرأة ككلّ النساء. كيف سيكون جسدها المشطّب بعد اليوم؟ كيف سيستعيد مرونته، بعدما خاض معركة الولادة. نقّاد الرقص قالوا إن جسدها لغة، يحكي بها معاني الحب والموت والقيامة.

حمل شريف الطفلة. صوت ليتيسيا الخافت، تلقّاه قشعريراتٍ لاسعةً في عروقه «ضُمَّها، هذه ابنتك». لم يكن في تلك اللحظة المصيرية على خشبة مسرح يؤدي دوراً، فالتي بين ذراعيه مولودة حقيقية، من لحمه ودمه. نواة طائشة زرعها في أحشاء المرأة التي أنارت عتمته، من دون أن يفكّر، وهو في ذروة الأحاسيس العجيبة، أن للطبيعة مهمّة دقيقة، التلقيح بين نطفة وبويضة.

حين انفرجت الكلمات المطوّقة من شدّة الانفعالات، قال:

«ابنتي أنت. اطمئنّي، سوف أكون إلى جانبك دوماً. سارة، هو اسمك». شعر بها تغلّ فيه، لتؤكّد له أنها سمعته يناديها. غمرها ودموعه تكرج من الفرح.

ليتيسيا الملتمة على جرحها، ظلّت غريبة عن مشهد التلاقي بين الأب وابنته. لم تتأثر حين ضم الطفلة إلى قلبه وناداها باسمها. قلبان خفقا في آن معاً، ومعاً تواعدا على الحياة. تريد أن تنسى أنها المسؤولة الوحيدة عما جرى. شريف،

ألم تقتحم حميمية حياته؟ ألم تُغرِه بعطشها إلى جسده؟ ألم تجرّه إلى الزواج لتحمي حملها من الألسن المغرضة؟ بقيت المسألة الأهم في محاسبة الضمير، الأمومة، التي لطالما تمنّتها كحق شرعي لأنوثتها الضائعة في عالم الرقص، فإذا بها تراها ترتد عقاباً عليها. تحسّست الجرح النافر تحت صرّتها، لولاه لما خرجت هي والطفلة سليمتين من الولادة. رفعت يدها المزينة بالسوار المطعّم بالياقوت وصرخت بصوتها المتهدّج:

«خذها يا شريف، وارحل عني».

فتح العلبة الثانية وأخرج منها حبّة فيروز معلّقة بدبوس فضي، وشكّها في قماطها:

«سارة، ابنتي، حجر الفيروز سوف يُبعد عنك العين الحسودة».

خرج من غرفة ليتيسيا، يبحث عن الممرّضة، لعلّها تهديه مع ابنته إلى طريق الصواب. «سارة، لست لقيطة، لك أب وأم». هذا ما صار يردده في أذن الطفلة، ويقينه أن القدر لن يتخلّى عنهما. ما قالته الممرضة كان في غاية الوضوح:

«ليتيسيا كانت عازمة على أن تترك المولودة في دار للحضانة وترحل إلى جنيف لمواصلة عملها في معهد الرقص».

كان لشريف قراره المعاكس:

«ابنتي، سوف أتولّى أنا تربيتها. أمّاً وأباً سأكون لها. لعلّ في استطاعتك أن

تسدي إليّ خدمة كبيرة، بعثورك لسارة على حاضنة أمينة، تحبّها و تتولّى تأمين حاجاتها الغذائية والصحيّة، في أثناء عملي».

لم تفكّر طويلاً:

«برناديت قد تكون أفضل ما يكون لسارة. هي الآن عاطلة عن العمل، بعدما خدمت على مدى سنوات يتامى المجزرة التي أودت بحيوات أهلهم في بلدتهم اللبنانية».

كان بودّه أن يعرف أكثر عنها:

«المجزرة الشنيعة وصلت أصداؤها إلى راهبات دير الخلاص في النورماندي. كان ذلك بعد اشتعال الحرب اللبنانية بسنة. أكثر من ثلاثين يتيماً جاؤوا إلى دوفر، برفقة الكاهن الذي تولّى رعايتهم. وبرناديت، التي وهبت حياتها للفقراء، منذ إطلالتها على الحياة، كانت لهم الأم والمربيّة والحنوّ الذي افتقدوه. بعدما كبر الأولاد وقرّر الكاهن إعادتهم إلى وطنهم، لم تعد برناديت معهم، مضت إلى ستراسبورغ بدعوة من شقيقها الراهب، لتكون مدبّرة في الدير، بيد انها لم تجد في هذا العالم الجاف دعوتها، فتأتي إلى مستشفى التوليد هذا، بين الفينة والأخرى، وتسأل عن عمل يلبي رسالتها، حاضنة للطفولة التي تكاغي، لا لرهبان دعوتهم الصمت والصلاة والصوم».

مضت ليتيسيا إلى جنيف وفي معصمها السوار الذهبي المرصّع بالياقوت، تاركة لشريف ما هو أثمن من الذهب والياقوت. لم تودّع سارة، لم تُلقِ عليها نظرة أخيرة.

«توجّعت عن إبنتي، وبكيت عنها. حبّي لها، دلّني على رسالتي الأبوية الفطريّة. وتعويضاً لها عن الخسارة الجسيمة، تلقّنت فن الأمومة، أكثر الفنون عظمة وشجاعة. توحدتُ مع سارة، كمن يتنسك بالصحراء للعثور على الله. صممت أذناي حتى لا أسمع شفقة الرفاق عليّ. رفضت الأيدي الممدودة من الإناث، لمساعدتي. إجازة طويلة منحتها لنفسي، كانت حقي، كأي أم بعد الولادة. بابتعادي عن محترف المسرح وديناميته، وجدت السكينة التي لطالما كانت الثوب الذي يحمي عُريي.

ابتسامة سارة الأولى، أهدتني إيّاها، غمّازة كلّها إغراء، تلقّيتها تعبيراً عن حبّها لي. بقيتُ أتدرّب على هذه المكافأة، التي كانت تنعم حياتي، بمعجزة جديدة، يوماً بعد يوم، إلى أن جاءت برناديت. كان مضى شهران على ولادة سارة. فما شعرت به من تخلٍّ وارتباك، في اليوم الأول لولادتها، وليتيسيا تلفظ حكمها الصارم «خذ ابنتك، وارحل»، تحوّل بعد فوزي في مختبر الحياة، إلى غيرة لم أحسب لها حساباً. كان ذلك لحظة رفعت برناديت سارة من سريرها وحملتها، فرأيت ابنتي، أم تخيّلتها تغلّ فيها، كأنها كانت تفتقر إلى رائحة الأنثى التي حُرمت إياها.

بالرغم من حاجتي الماسة إلى معين، أتوزّع أنا وإياه أعباء سارة، فإن ثمة قلقاً بات يساورني، أن يأتي من يقاسمني حبي لها وخوفي عليها. برناديت، بحنانها واختبارها الطويل لمآسي الطفولة، عرفت كيف تتعامل مع سارة، التي ما كادت تتفتّح على الحياة حتى سألتها عن أمّها. فجاءت تقترح عليّ أن نتفق معاً على جواب واحد: الحقيقة.

«سيد شريف، سارة حادة الذكاء، الحقيقة مهما آلمت في نفسها، فلا بد من أن ترسم الطريق التي عليها ستسير.

هذا الموضوع الذي لم تفاتح به والدها يوماً، فرض نفسه في عيد ميلادها الخامس. رفاقها في المدرسة أتوا مع أمهاتهم، حاملين لها الهدايا. عمّ الفرح في البيت الصغير. كانت ساره قائدة العيد، زائغة في فستانها الأزرق. قطعت قالب الكاتو، والجميع يغنون لها «ميلاد سعيد يا سارة»، إلى أن انتهى العيد، وذهب الجميع، وعمّ الهدوء. جلست سارة بجانب شريف تفتح هداياها، إلى أن سألته:

«هل لي أمّ كالأمهات اللواتي أتين إلى العيد؟»

ماذا كان في وسع شريف أن يجيب، والباب المقفل على هذا الموضوع أكله الصدأ؟ الحقيقة التي كان يؤخرّها دوماً إلى أن يحين لسارة أن تتقبّلها، فرضتها هي بسؤالها:

«أمّك يا سارة، هي أجمل أم في العالم. اضطرت إلى أن تتركك معي، حتى لا تتخلّى عن الرقص مهنتها. ليتيسيا راقصة باليه عالمية، تقدم مع فرقتها أجمل العروض في العالم».

ابتسمت لتخفي عني ما يجول في فكر ابنة الأعوام الخمسة، لكن غمّازتها خانتها:

«هل الرقص يمنع الأم من أن تحب ابنتها؟»

«أتودين رؤيتها يا سارة؟».

«أتراني مختلفة عن رفاقي الذين جاؤوا إلى عيد ميلادي؟»

فعلاً، الأولاد جاؤوا برفقة أمهاتهم. كان الرجل الوحيد بينهن. أدهشته صغيرته بنباهتها وسرعة خاطرها، فالسؤال ما إن يطرحه عليها، حتى تبادره فوراً بسؤال مسنون على القلق والرفض للواقع. تألّم لألمها. أمن الحق أن يجول في فكر صغيرته، مثل هذه الأسئلة الوجودية التي تعكّر هناء الطفولة، وتترك مع العمر آفات في مسار حياتها؟

أخذها بين ذراعيه، وفي فكره تصميم قد يريح طفلته.

«سارة سأنسّق موعداً مع ليتيسيا أمك».

هل أخطأت؟ التفتت إليّ، تستنبشني. رأيت دموع النكران والتخلّي، تغرق المروج والمراعي المختصرة في أخضر عينيها. إلى أن تماسكت وقالت:

«كما تنسّق مواعيدك مع رفاق المسرح؟»

«هالَني ما سمعت. عقلها الراجح كان سابقاً لعمرها. حرّكت بكلمتها جمود حياتي معها. صارت الأفكار تمرجحني لأجد السبيل الأفضل لجعل سارة تتعرّف إلى ليتيسيا بعد خمس سنوات من البعد القاحل، ما دام هذا ما تتمنّاه. في تلك الليلة، تركت سريرها وجاءت إلى فراشي تغلّ فيّ. حضنتها وضممتها إلى قلبي لعلّي أملأ حصّة ولو شحيحة، من دور الغائبة».

بعد أيام تلقى شريف ما كان يبحث عنه. أعلنت القنوات التلفزيونية عن عرض فنّي كبير لفرقة باليه القرن العشرين، على مسرح لوزان. ثلاثية إيغور سترافنسكي، موزّعة على ثلاث ليال، برؤى حديثة، مبتكرة لموريس بيجار، في كل من «عصفور النار» و«بيتروشكا» و«تتويج الربيع». إسم ليتيسيا، كان لافتاً في أعلى قائمة «عصفور النار».

حجز عبر الهاتف ثلاثة مقاعد لهذا العرض. حضور برناديت في هذه المغامرة شعر به ضرورياً، ودعامة له ولابنته. هي من أوعزت له أن يحضّر سارة لهذا اللقاء:

«قلبها الصغير قد لا يتحمّل المفاجأة».

وبينما كان عائداً معها من المدرسة، اختبر ردة فعلها بسؤال:

«ما رأيك يا سارة في أن نسافر بالقطار إلى لوزان، لنشاهد أمك ترقص في باليه «عصفور النار»؟»

جوابها كان سؤالاً أسرع من البرق:

«وهل أنا في حاجة إلى راقصة باليه أم إلى أمّ؟»

سؤالها ذبح قلبه، لكنه أصرّ على طلبه:

«بل نقصدها في مقصورتها بعد أن تنتهي من أداء دورها كي تتعرّف إليك».

«أمـا كان كافيـاً أن تتعـرّف إليّ حين خرجت مـن بطنها؟ لا تُتعب نفسـك يـا أبي. هـي لا تريـدني». قالتهـا وأسرعـت أمامـه حتـى لا يـرى دموعها.

«إبنة الخامسة كبرت قبل أوانها». ظلّ متمهّلاً في مشيته، لم ينادها، بل تركها على مسافة منه تعزّم بنبلِ ألم التخلّي. قراره الحاسم، يوم خرج من غرفة ليتيسيا بأن يكون أمّها قبل والدها، لم يكن وافياً لشروط الوجود التي فرضها الدم منذ سِفْر التكوين. الآن، وهو على الرصيف، وعلى مسافة أمتار بينه وبين ابنته، أدرك أنه فشل في تمثيل دور لم يكن له.

الكرم وبستان الزيتون في انتظار همّتها قبل أن يباغتهما الشتاء. حفظت وصية يونس، التي لطالما ردّدتها سلمى على مسمعها، «الأرض إن أهملتها...». لم يبقَ الآن سواها؟ سفرها الطويل إلى بلجيكا، وإن أبعدها عن الأرض، فهو لم يُنسها صراع سلمى مع الزوابع والواوية. كانت تسمعها، حين تأتي المواسم قاحلة، لا تعد بمحاصيل جيّدة، تعاتب بشدة مار إفرام الذي عيّنته ناطوراً على الرزق، ولم يفِ بنذوراتها له. فأيٌّ قديس ستستسلّم رشا إليه عبء الأرض حين ستبدأ المواجهة الضارية معها؟

المسرحية التي أوشكت على نهايتها، سوف تكون استراحتها بعد أن تكون أسدت إلى النهار، الواجبات المفروضة على وريثة عائلة رستم. في تخطيطها لما سيكون، وفي انتظارها جواباً من ضياء العجمي على رسالتها، لم تكن تتكهّن بأن عين الشمس، فقدت هي أيضاً ذاكرتها، وبدأت تكتسي بحلّة التغيير والتجدّد على غرار كل شبر من أرض الوطن.

«فليكن التغير في عين الشمس على شكل التغيير الذي نشلني من علّتي من دون أن يصيب ذاكرتي بعلّة النسيان. بيت العقد مينائي، فيه أرسو لأجد لوحدتي معنىً. هنا أكتب. تؤنسني الواوية بعوائها الليلي. هنا أُمكّن الرباط بروحي الهاربة مني في المنامات، أبحث عن فستان أمي الأسود ويقيني أني لولاه لما كنت دورا».

عند الصباح، ومعه يتفكّك المنام،تعود الروح التائهة إلى موضعها، صاحية، جاهزة لاستقبال يوم جديد. هذا ما تعلّمته من سلمى جدتها. منها ورثت ثباتها في هذه الأرض وولاءها لها. كانت جدّتها ترفع شكرها إلى الله بالصلاة، رشا لم تحذُ حذوها في الابتهال والتضرّع ولم تهدر الثواني في تكرار الصلاة ذاتها على عدد حبات المسبحة. هنا في هذا البيت الذي أمّن لها أن تنفرد مع ذاتها، فيه، أطلقت لقلمها شغف الكتابة، وفيه استنارت بالتزهّد الذي تنشده. أَوَليس التوحّد توأم الزهد؟

«لماذا تركت مسرحاً أوصلك إلى النجومية من أجل حلم أوتوبي تتوقعين تحقيقه في هذه الخربة؟» عادت كلمات شريف صافي تنخر دماغها.

«عدت لأدفن والدي» قالتها، من دون أن تبوح له بالحقيقة المطمورة في نفسها.

«وأنت، لماذا عدت إلى الوطن، وستراسبورغ، كما علمتُ، أصبحت وطنك الثاني؟

«للسبب ذاته الذي أتيت انت من أجله. ماتوا أهلي ودفنوا وأنا بعيد عنهم. جئت متأخّراً، لكن الموت لا يعيِّر على عقارب الساعة. إقامتي هنا سوف

لن تطول. ذاكرة الموت والقتل على الهويّة في مسامي، وَ كاليغولا، كيف أنسى صوته المغمور بالتراب يقول لي «اتركني أمُت هنا وارحل بعيداً عن هذا الجحيم»، وأنا أبكي عليه و أصرخ «لا تنسَ كم أحببت أن أكون أنت».

مثلها كان ملسوعاً، لكنه يأبى أن ينسى، بينما هي عازمة أن تذهب بتجربتها إلى آخر الليل. مُدينة هي لكل من ساعدها لتصبح لائقة بالحياة، سلمى فرشت تحت خطاها المتعثّرة درباً إلى الحريّة. فارس أخذها بيدها وأوصلها إلى حيث كانت تنتظرها ولادتها الثانية. هذا المسرح الحامل اسمه، دَينها، وهي مستعدّة لأن تقهر المصاعب التي قد تعترض رسالتها.

وصلت إلى المخيّم باكراً تسأل عن جهاد. قالوا لها «تجدينه في مدرسة اليونيسيف، حيث وجد في تعليم الأولاد، هدفاً لحياته». تركت له رسالة على باب التخشيبة، تذكّره بوعده لها بالحرف والكلمة:

«الرجل المبتور الساق سيكون صانع الأحلام، كاتباً دوره ومؤدّيه».

الذاكرة في حاجة دائمة إلى ترميم. الواقفة على باب التخشيبة، تذكّرت لقاءها الأول بجهاد، يوم جاءت، بناء لوصيّة والدها، تفتش عن سناء. كل شيء قد يهرب من الذاكرة سوى تلك اللحظة، ألتي تقرّرت فيها صداقتها مع جهاد. العذاب النفسي والجسدي الذي لمسته لدى هذا الشاب، تآخى مع حميم مشاعرها. عادت إليه لمّا لم تعد قادرة على تحمل غياب هذا التوأم عنها. جلست في ذلك اليوم بالقرب منه تصغي إلى أوجاعه:

«أكتب لأخرج شياطيني المنكّلة في عروقي اليابسة».

مسرح خط التماس كان لقاءهما اليومي. طال غيابه. اشتاقت إلى كلمات من واقع الحياة، يقولها فتسمعها شعراً. ردّدت ما ألقاه، ولم تتعثّر حتى يبقى متوحّداً في ذاكرتها، فكان هو المستمع:

«ثمة أحد تقدّم من بين الجموع وهتف قائلاً/ أجل! رجموها بالحجارة لأنها أحبّت/ دمها هو النسغ الذي يحيي شراييني/ ماتت، فجفّ دمي».

أمسك يدها، كأنه ما زال مستمعاً إليها. إلى أن قالت:

«ما تقوله يا جهاد، إنما هو مكتوب في دم كل منّا».

ذكريات من الأمس القريب، هبّت في صدرها كهواء آب الساخن. ظلّت واقفة لا تتحرّك أمام باب التخشيبة المغلق، إلى أن عاد الرجل الذي حكى معها منذ دقائق ليؤكّد لها أن من تنتظره غائب، وقد لا يعود.

خربة خط التماس شعرت بها فارغة بغياب جهاد عنها. «غائب وقد لا يعود»، تلقتها من الرجل كالنعي. انكمش قلبها. لعلّ هذا المتسكّع ضجراً في الحياة أدرك أنه لن يفي بوعده لها ولن يكون صانع أحلام.

ليالي بيت العقد، لم تُنعم عليها بالراحة. أيكون هذا الأرق ناجماً عن طول غيابها عنه؟ بدأ ضوء النهار يُنسل خيوطه في الغرفة، من دون أن تسمع صياح الديك. لعل غيابه جزء من التغييرات التي بدأت تجتاح البلدة. تذكرت الديك الذي عيّرت عليه سلمى حياتها، وكانت تصرّ على قناعاتها بأنه أكثر دقة من ساعة الجدران. قامت إلى المطبخ تتلوّى نعساً.

رائحة البن أيقظت خلايا دماغها. عيّرت مقدار ركوة طافحة بالرغوة، وخرجت بها مع الفنجان الذي كان فارس يدشّن به صباحه. أخذت جرعة ساخنة منه بشعور من الغبطة. تمهّلت في استقبالها هذا النهار. قامت إلى خزانة المونة، وعادت بمرطبان من لبنة الماعز المنقوعة بالزيت، وصحناً ملأته بالزيتون الأسود. فطور الصباح كفيل بأن يعوّض عن النوم الذي حُرمت إياه. أخذت تمرح لبنة الماعز على قطعة من خبز الصاج وتأكل بشهية. الترويقة في بيت سلمى مختلفة عن بيت المدينة. تمنّت لو تبقى عين الشمس على تقاليدها الرعوية، فلا تتأثّر بمناخ المدينة التي باتت هجينة لا هوية لها.

زيارتها الصباحية أرادتها أن تكون للمدفن، مع باقة تقليدية من الزهور البريّة. شعرت بقوة الروح الهائمة في هذا المكان الساكن، تُرشد خطواتها. لم تذهب إلى جوقة الطيور التي لطالما حرّكت أحاسيسها بتغريدها. مختار عين الشمس رحّب بها واستمع إلى حاجتها إليه:

«أنا شبه غريبة هنا، لا أعرف بمن أستعين. بعد وفاة جدتي سلمى ووالدي فارس بت الوريثة الوحيدة لكرم العنب وبستان الزيتون. لهذه الوصيّة مسؤولية كبيرة لست قادرة عليها بمفردي، جئتك بوحي من جدتي وأنا، عند قبرها، تمنيت عليها أن ترشدني، فها أنا هنا، لعلّك تساعدني على إيجاد اليد العاملة الكفوؤة في إعادة المحاصيل إلى ما كانت عليه».

تأمّل طويلاً فيها، قبل أن يجد ما يجدر به أن يقوله لابنة فارس رستم، الصبيّة المصابة بالتوحّد. تذكّر جيّداً تلك الفتاة التي عاشت في كنف سلمى، جدة

والدها، تسرح في البراري، إلى أن أرسلها والدها إلى بلجيكا حيث، تقول الشائعات، إنها أمضت صباها في مؤسسة للمتوحّدين. ها هي في مكتبه، بكامل حسنها، متزنة في كلامها، مسؤولة عن إرث العائلة. عجيب هذا التغيّر الذي طرأ عليها.

قرأت فوراً ما في فكره:

«يا مختار، إرضاء لذكرى سلمى، لا بد من عرائش تزهو بالعناقيد، وبستاناً ينحني تحت ثقل أغصان الزيتون. فإن اهملتها صارت كفناً للذاكرة. هذا ما أوصاها به، يونس. الوصية تنقلت من سلمى إلى رفيق وفارس، وها هي الآن في يد ابنة فارس المتوحّدة.

خجل من نفسه. تفاجأ بها تكشف نياته باختصارها حياتها بكلمات موزونة، كلّها اعتدال. حاول فوراً أن يتعاطى معها على قدر فهمها ومسؤولياتها:

«آنسة رشا، البلدة تشهد اليوم تحولات جذرية بعد نهاية الحرب وهجرة قسم كبير من شبابها إلى كندا. العمّال الذين كانوا يأتون من القامشلي، ويعملون بضعة أسابيع في لمّ الزيتون وقطاف العنب والفلاحة والزرع، وجدوا في مشاريع البناء، على كامل الأراضي اللبنانية، مكسب عيش دائم. انصحك ببيع الرزق لطالبي البناء، الأمر الذي سيدرّ عليك ربحاً ويرفع عنك مزاج المواسم والطبيعة».

«ألا تظن أن بيع الكرم والبستان استخفافٌ بوصية العائلة وكفنٌ لذاكرتها؟»

«هذه نصيحتي لك. وصيّة يونس كالدواء الذي انتهى مفعوله. تجوّلي في البلدة لتتحقّقي من كلامي».

لم يكن المختارعلى خطأ. أصوات المهدّات في كل مكان، تزيل البيوت القديمة من مكانها لمشاريع بنائية عالية. قادتها خطواتها إلى بيت ماجد مزرعاني، ووقفت أمام كارثة أكبر بشاعة من هدم بيت قديم. الجرّافات لم تميّز بين بيت مهجور ومكتبة حملت اسم المعلّم ماجد مزرعاني. لم تأبه للجرّافة الكاسرة التي كانت في كل هجوم لها، تتقدّم أكثر في هدم ما كان مكاناً للتأمل والحوار. بين الغبار توغلت، وعلى الحجارة عبرت، وفي ذاكرتها ما جاء في مذكرات والدها عن هذا المكان. المكتبة كما وصفها، رأتها بكاملها، ملتصقة بالجدار الذي لم يتسنَ بعد للمهدات أن تلحق به الخراب المطلوب. ركعت على الركام وقالت:

«أبي، ساعدني لأنقذ ما وصفته في دفترك بكنز للأجيال».

الهوّة سحيقة تحت جسدها، لم تعِ إلاّ وقوة هائلة تجرفها إلى القعر. استفاقت محاطة بغمامة كثيفة، بين ذراعي رجل، يحاول عبور الركام بحمله. العياء أفقدها القدرة على الكلام. سمعته يطمئنها:

«لا تخافي، أنت الآن في مأمن. الغبار الذي تنشّقته، شلّ حركتك وأفقدك وعيك».

وضع، في رفق، حمله الخفيف على المقعد الخلفي لسيارته، وجلس إلى مقوده ينتظر منها أن تدلّه على المكان حيث تريده أن يوصلها إليه. جفل حين سمعها تقول:

«بيت سلمى رستم»

هل لاسمه مدلول في فكرها فيما لو عرّفها إلى نفسه؟ أمين شيبوب. ماذا يعني لها؟ أما زال منذ عقود، رديفاً للمأساة التي حلّت بالعائلة؟ من غربته الطويلة كان يصل إليه صوت سلمى كالباكيات الإغريقيات. ما من مأتم من مآتم البلدة، إلاّ و تجد مناسبة تجدّد فيها رثاءها على رفيق، مصحوباً باللعنة التي صبّتها على من أفسدوا براءة عين الشمس بزراعة الحشيشة، واقترفوا فيها الويلات.

توقّفت السيارة على بعد أمتار من القناطر المثلّثة. تمهّلت في النزول، وآثار الوعكة بادية في مشيتها. بعفوية قالت:

«عذراً، كدت أنسى أن أعرّف نفسي. أنا رشا رستم، آخر عنقود العائلة. قدرة إلهية أتت بك إلى هذه الخلوة، لتساعدني». لم تلاحظ الارتباك على أسارير هذا الرجل السبعيني، حين دعته بما يتوجّب عليها من حسن الضيافة، إلى كوب من شراب التوت، يريحه مما تكبّده لإسعافها.

حدّق في هذا الوجه، الذي بابتسامة عذبة له، استعاد لونه بعد الشحوب:

«رشا، كيف يحق لي أن أدوس هذا البيت وأنا القاتل الذي حرم فارس والده وأمّه معاً؟»

«قل لي، من أنت؟»

«أمين شيبوب»

لم يدخل أمين إلى بيتاً تصوّره مجلّلاً بالسواد.

كان في بالها أمرٌ عاجل، إنقاذ المكتبة من الهلاك. دخلت القبو وجمعت ما استطاعت من صناديق الكرتون الفارغة، وأمنيتها أن تعود بها ملآنة بما حوته مكتبة ماجد مزرعاني من مؤلّفات للفكر والروح، قبل أن تبلغها الجرّافة.اتصلت بشحادة، السائق الذي لازم والدها سنين طويلة، وكان ممن حملوا نعشه ورافقوه إلى مثواه الأخير. «لأمرعاجل»، قالت له.

بعد مقتل والدها، أعطته السيارة ذكرى منه، ليشتغل عليها ويسترزق منها. أوصلها إلى ما كان بيتاً ومكتبة وأحواضاً للحبق والمنتور. كان المشهد أكثر مأساة من القبور. لم يكن من رقيب على هذه الورشة الممعنة في إلغاء ما كان، أو من يسأل عن مصير خلوة إشتراها فارس رستم أمام استهجان جدته، ليجعلها مكتبة تحمل اسم المربي ماجد مزرعاني، ومجلساً للفكر والثقافة والعلم.

فشخت فوق أكوام الحجارة ونادت شحادة ليحذو حذوها. وبدقائق قليلة، كان إرث ماجد مزرعاني يجد مكانه في خمسة صناديقّ. وبينما الحمولة كانت تنقل إلى السيارة تمنّت لو كان والدها معها، لكان أدرى منها في تدبير مصيرها. التفتت إلى صوت يناديها. رأت أمين شيبوب معتمراً قبعة قش، يدنو منها. صافحها، وهنّأها على تطوّعها لإنقاذ هذا الكمّ من الكتب:

«كنت فعلاً محتاراً في أمري تجاه هذه المكتبة الوافرة بالكتب. عندما اشتريت الأرض والعقار من أبناء جريس أبو حمد، قالوا لي هذه الكتب القديمة لا تصلح سوى للموقد».

قرأ في صمتها ما تود أن تعرف عنه:

«سوف تعرفين كل شيء عني بعد قداس الأحد. معي تكتشفين الطبيعة العالية، الطبيعة البكر، حيث أصبح لي فيها كومة حصى للتأمل في عبثية الوجود».

مسح العرق المتصبّب على جبينه، وأخذها بين ذراعيه قائلاً:

«أتقبلين بي الجد الذي حرمتك إياه عن غير قصد؟»

لم ينتظر جواباً، أي جواب. عاد منحني الكتفين، يراقب سقوط آخر حجر لِما كان نسكاً لماجد مزرعاني ومطلاً على شروق القمر حين تلفحه الوحدة.

لمّا انتهى شحادة من نقل حمل الكتب إلى القبو، تريّث قبل أن يقول ما في فكره:

«إسمعي صوت سلمى ولا تفشخي فوق إرادتها».

قرع كلامه في أذنها، نسخةً طبق الأصل عما اعتادت على سماعه من سلمى، تحاكي الروح القدس كلّما شعرت بالهزيمة تستقوي على كفاحها. أحسّت بغبار التعب في جسمها وفكرها. دخلت البيت وأقفلت على نفسها. الليل، على إيقاع تكتكات ساعة الجدران الساخرة من محاولات رشا اليائسة لقليل من النوم، حرّك الهواجس التي اقتحمت وسادتها. هواجس لجوجة، لا تتعب، لا تستكين، صارت تمرجحها بين ماضٍ بعيد، لا تعرف عنه سوى ما جاء في مذكرات والدها، وحاضر، جاءها على حين غرّة يبلبل حياتها.

أمين شيبوب، لعلّ لقاءها إياه، نزوة من حنكة الصدفة وبراعتها في التفتيش عمن هم أهل للوقوع في مصيدتها.

قال لها «سوف تعرفين كل شيء عني».

كفاها ما قاله لها، والارتباك بادٍ في صوته حين دعته إلى البيت. فما الفائدة من اجترار حكاية قديمة من ماضٍ لم يكن لذاكرتها فيه دور مع إنسان عائد إلى الديار بهدف فتح قبور اعشوشب عليها النسيان. فلا شك في أن عودة أمين شيبوب إلى موقع الجريمة، مواجهة جريئة تحرّره من كابوس، رافقه طوال سنيّ العمر من دون أن يتمكن من اقتلاعه. أما هي، فماذا عساها تروي له عن هذا الماضي، إذ لم تكن ولدت بعد، سوى ما كان يخبرها به فستان سلمى الأسود، باخ سواده وجرد، وما ملّ على جسدها اليابس يروي الفاجعة.

«فهل كانت سترضى سلمى، من حيث هي، بأن ألتقي بقاتل ابنها وأدعوه إلى بيتها وأسقيه من شجرة التوت عصيرها؟ هل يليق بي أن أنسى سؤالاً محفوراً في مذكرات فارس «والأم يا ستي؟»، إلى حين أصبح على قدر أن يقشع بوضوح ما حدث في ذلك اليوم، فكتب بضع كلمات لا غير، على صفحة من دفتره؛ كلمات شافية، نزعت من قلبه شوك الحرمان من الأم:

«أمام هول الجريمة، تركت هدى رضيعها يفحّش بالبكاء وفرّت هاربة من محكمة سلمى».

الشفاء من الأم الهاربة، بدا واضحاً في التاريخ المرفق مع هذه الكلمة. ففي ذلك اليوم، طلب الزواج من ثريا.

الكنيسة شبه خالية في هذا القداس الذي كان بالأمس يعج صباح الأحد بالمؤمنين. تذكّرت ما رواه لها المختار عن هجرة الشباب إلى عالم الاغتراب مذ لم يعد لديهم أمل في بلد دمّرت الحرب أحلامهم وطموحاتهم فيه.

لم يخلف أمين شيبوب وعده. وقف وقرأ رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس. سمعت سلمى تهمس في أذنها «القاتل لبس ثوب التقوى ليكفّر عن خطاياه». آثرت أن تصم سمعها عن نيات جدتها التي ما زالت حتى في الموت تفرز أحقاداً وسموماً.

صغيرة كانت ترسم بيوتاً بلا نوافذ، ووجوهاً بلا عيون لتحمي وحدتها، الآن صمّتَ سمعها عن محكمة جدتها، لتحمي حرّيتها.

«لم أفقه كلمة من رسالة بولس إلى أهل أفسس، لكني كنت مصممّة على نزهة في الجبال العالية مع أمين شيبوب».

بينما كانت السيارة تجوب طريق الجبل، سألني أمين:

«في رأيك يا رشا، ما هي السعادة؟»

أجبته ونظري تائه في التلال الخضراء و الجبال العارية:

«مكافأة لمن لم يكن في انتظارها».

«كم تدوم هذه المكافأة؟».

«ما لم نفرفطها بانشغالنا عنها. لكن في تأمّلي في الوجود، بت على يقين بأن السعادة ليست الحلم الذي نصبو إليه في الحياة. ثمة ما هو أعلى منها، بعيد المنال، يحول على الإنسان بلوغه».

تخيّلت نفسي في امتحان بين المعلّم وتلميذته. فلعلّه في هذه المقدمة عن السعادة كان يتحضّر لجوهر هذا اللقاء.

«اسمعي جيداً يا رشا، ثمة كلمة قرأتها في كتاب، ظلّت محفورة لسذاجتها في دماغي «السعادة علينا أن نبحث عنها». في ذلك الوقت، كنت ذلك الهارب من ذاته، من جريمة اقترفتها، كافراً بالدنيا ومنغمساً في آن معاً في حثالتها، أبدّد المال القذر الذي تركه لي والدي من تجارة الحشيشة، وحين يأتي الليل، كنت أركع وأصلّي، لعلّ شمس الله تشرق علي وتُطلقني من بؤرتي».

عادت وشاية سلمى تقرع في أذنها:

«هل للشيخوخة فضلٌ في هذه النقلة من قاتل وكافر إلى مؤمن يقرأ بحرارة رسالة بولس؟»

بروح طيّبة، تجاوز النبرة الساخرة التي بدرت من سؤالها:

«هذا اللقاء مع حفيدة رفيق كان مقدّراً. الصدفة ليست وهماً، بل إرادة نزلت في هذا الصباح من العلا، بين الغبار وشقعات الكتب. الصفح الذي جئت من أجله، من دون أن أعلم من بقي حيّاً من عائلة رستم، خلته في

أثناء تيهي في العالم، قطرة السعادة التي لا بد من أن تزيل المرارة الأليمة من نفسي و تروي جفافي. كنتِ هنا».

«عودتك إلى الديار تقلقني وتسعدني معاً. أراك عنصراً رابعاً، أتى على حين غرّة، لينضم إلى مسرحية ما زلت في صدد كتابتها. هي من وحي سيرة واقعية لثلاثة رجال، لكل منهم، تجربتُه الوجودية، ومأساتُه الأليمة وبحثُه المستحيل عن السعادة، هذا الطائر الخرافي. أتقبل أن تكون، ما دمت تحدثني عن الصدفة، واحداً منهم؟».

«الموضوع في غاية الأهميّة، لكن في أيّ شخصية يا تُرى، سأكون؟ أمين شيبوب، الفاسد، القاتل،أم شخصية مبهمة تلبسينها دور كائن غامض في قلبه سرٌّ كبير، سر الموت والقيامة؟

كنت في اتحاد تام بهذا الإنسان. القدر هداني إليه، دعامة لهيكلي الرخص. قال: اعتبريني الجد الذي حرمتك إياه. هذا ما صرت أشعر به و كفّاه مملوءتان ببذور للزرع.

توقّف أمام مطعم على خاصرة جبل صنين، كُتب على لافتته: «من أرضنا صحننا»

«العنوان يبشّر بأشهى المأكولات اللبنانية. المختار كان على حق، هو من دلّني عليه».

امتدت على المائدة وليمةٌ لبنانية لم تحظَ رشا يوماً بتنويعتها في مطبخ سلمى.

فوح اليانسون في كأس العَرَق كان الفاتح الأول للشهية. قلت وكلّي عرفان لعطايا الأرض:

«ها هي السعادة التي سألتني عنها منذ هنيهات، ألوان ومذاقات وروائح من جنّة الله. أجل! سعادة من هناء الطبيعة محاصيلها، شعرت بها تسري في حنجرتي بعد أول جرعة من هذا الإكسير المقطّر من روح العنب. خلتها ستدوم ما دامت المائدة عامرة بالتبولة والبابا غنّوج والحمص بالطحينة، والفتّوش والكبّة النيّة، والزعتر الأخضر. الهواء النقي الآتي من عمق الشّير، كان شريكاً في هذه اللحظات النادرة من السعادة. هل كنت أستمع فعلاً إلى أمين يروي لي قصة حياته، بينما سَكْرة العرق اللطيفة التي بدأت تسري في عروقي، أعطتني الجرأة لأقاطعه وأسأله عما أوحاه إلي فارس:

«والأم يا خالي، لماذا هجرتني بعدما قتلتَ والدي؟»

بصوتي تكلّم فارس. جفل من سؤالي، كأن أرواحاً من الماضي تحلّقت فجأة حول المائدة. بحركة لاواعية أبعد من أمامه الصحون التي كان يغمس فيها لقمته بشهيّة، وأفرغ آخر جرعة من الكأس في حلقه، وقال بنبرة الملسوع في كيانه:

«أبسؤالك هذا كنتِ تنعين قطرة السعادة التي جئتُ بك إلى هنا لنحتفل بها؟ أين كنت يا رشا وأنا أروي لك، من وحي هذا المكان المغسول من الخطيئة، الأمتحان الكبير الذي مرّ به الولد الطائش، الخاطئ، الذي كنت. شعرت بك شاردة، بينما كان عليّ أن أتابع قصتي وكأني

أرويها لنفسي حتى لا أضلَّ عن آثار خطواتي التي تركتها تخبر عني في الصحراء حيث كانت عزلتي الطويلة. قبلها كنت ذلك التائه في الدنيا، أبحث عن هذا الشيء النادر الذي لا يُشترى بالمال، شفاءً لنفسي المعذبة، إلى أن وجدته في تنسّكي بعيداً عن صخب العالم وشهواته. قصّتي لم تحرّك فضولك، كأني كنت ما زلت ذلك النبأ الخاطئ الذي عرفته عين الشمس. جلوسنا معاً حول خيرات مائدة مطعم الشير ومذاقاته، لم يُعفِك من ماض لم يكن لك فيه دور سوى مذكرات والدك ومأساة جدتك. فبينما رحت أتعرّى أمامك من ماضيَّ الأسود، القاحل، وأقف في كل محطّة من المحطّات الصعبة التي تجاوزتها، إلى أن امتدت يد الله ونشلتني من بؤرتي، لم أشعر بك ترافقينني في تجربتي، كأنك في كأس العرق كنتِ تتلقين برقيات من الماضي».

قالت وعيناها هائمتان في المدى البعيد:

«ما تسمّيه برقية من الماضي، ما هو سوى فصل مهم من الفاجعة التي حدثت على فوح الحشيشة في عين الشمس. كيف كان لمشاعري أن تكتفي بالسمع، وهي تتلقى منك قصةً مبتورة من الفصل الأوّل؛ اختفاء هدى عند وقوع الجريمة؟

«فلعلّك يا أمين لم تنسَ ما قلتُه منذ هنيهة، أنك تعرّيتَ أمامي من ماضيك الأسود. فهل كان هذا التعرّي، في رأيك، شاملاً، أم أنك آثرت، على ما تراءى لي، أن تتدثّر بهذا الغموض الذي لفّ غيابها. كيف عساي أرافقك إلى حيث التقيتَ وجه الله، من دون أن تكون مررت، في أثناء سردك

تفاصيل حياتك، بمحاذاة سرير الرضيع الذي كان يشي ببكائه جريمة التخلّي، الأكثر بشاعة من جريمة القتل؟»

قام عن كرسيه ومضى سارحاً بين الأشجار، يستعيد كلمة، كلمة هذه المحاكمة القاسية من ابنة فارس رستم:

«كيف عسانا ننشد السعادة وفي قعر حياتنا ثفل يابس لم نستطع اقتلاعه؟ رشا واقفة في طريقي لتحاكمني، لا لنبدّد معاً غيوم الماضي. لقائي إياها توضّح الآن. جئت إلى عين الشمس كالابن الشاطر، تائباً، وفي رأسي مشروع بناءٍ يعود بالنفع والخير على البلدة، فإذا بدين فاق حساباتي، كان يترصّدني، هدى. كيف أنساها، والمشروع الذي عدت إلى البلدة لبنائه يحمل اسمها، إيفاء للجريمة التي ارتكبتها أمّي بحقّها، بترحيلها فوراً إلى البرازيل بعد مقتل رفيق».

جلس على صخرة يتأمل القرى المتراصّة، بعضها على بعض، كجزر صغيرة، ببيوتها المسقوفة بالقرميد الأحمر والبساتين الخضراء الفاصلة قريةً عن أخرى. تمنى من هذه المناظر الخلاّبة أن تمنحه السلام. رشا فتحت السد المقفل وشرّعت سيل الذكريات القاتمة. ليتها منحته الوقت لتستمع إليه:

«في السجن حيث أمضيت عقوبة جريمتي، كانت تصل إليّ الشائعات التي كان لسان أمي، الماكرة، يلعلعها في البلدة «هدى فقدت عقلها». كان مقتل رفيق المخرج الوحيد ليوسف شيبوب وزوجته رفقا، لإبعاد ابنتهما الطائشة عن هذه العائلة الفلاحية التي لم تكن من مستواهما الأجتماعي. ثراء عائلتي

كان له صوت صاخب، فجميع الأخطاء التي اقترفناها كانت مسموحة لنا، بل أكثر من ذلك، كانت تزيد في احترام الناس لنا وتقديرهم لنفوذنا. كنت أنا وهدى في سن الطيش، تدفع بنا غريزتانا إلى رغبات خطيرة، لم يكن من سقف يحدها أو من رقيب يلملم ثغراتها. كان والدي يكيّل الأرباح من زراعة الحشيشة، وأمّي بعد سنوات العوز والحرمان، شمّت رائحة المال فأدمنت على هدره بلا ارتواء، في العطور والملابس والحلى. غياب الأم كان فرصة سانحة لهدى. الزريبة التي أقامها رفيق لتربية الأبقار صارت مكان لقائها السرّي به، فيما كنت مع كريم رفيقي، نتقاسم أرباح تجارتنا بالمخدرات في الأسواق العموميّة في بيروت، كما كنا نتقاسم الرذيلة والفسق في علاقتنا بجيهان، المومس المحنّكة في التقاط فريستها وجعلنا أكثر إدماناً عليها من الكوكايين والأفيون. بغياب الأهل عن ذنوبنا، لانشغالهم بذنوبهم، صرت أكثر انغماساً في نشوة الجسد والمخدرات التي منحتها لنفسي بمال أبي، وهدى في زريبة البقر، تعيش إدماناً آخر بين ذراعي رفيق. هذه العلاقة السريّة التي كان فراش التبن الشاهد الوحيد عليها، لم تعد سرّاً حين أثمرت بذرة الحب في بطن هدى. أمي، وإن غطّت الفضيحة بالزواج، غير أن كبرياءها ظلّ رافضاً زواج ابنة شيبوب من هذا الراعي، كما كانت تسمّيه. لم تأت لزيارتها في بيت العقد، لم تحضر ولادتها. فهدى في طيشها الذي لا يُغتفر، لوّثت إسم العائلة. لم أقصد قتل رفيق بطعنة سكين كما اعتقدت والدتي، لأشفي غليلها. كنت في قتال شرس مع كريم، حين دخل رفيق بنخوته لفضّ النزاع بيننا، الطعنة دخلت سهواً في خاصرته. دفع والدي أموالاً طائلة للمحامين وللقضاء لتبرئتي. والشاهد الذي قدّم نفسه للاستجواب في المحكمة، كان مفاجأة كبرى لي. كريم رفيقي

وخصمي اللدود، استمعت إليه المحكمة، وبناء لشهادته انخفضت عقوبتي إلى سنتين. في زنزانتي وُلدت إنساناً جديداً. كرهت أمّي حين أخبرني والدي بأنها اغتنمت البلبلة التي نشأت بسبب الجريمة وتسليم نفسي إلى العدالة، لتدخل بيت سلمى وتجبر هدى على مرافقتها. بعد ذلك، خيّم سرّ على اختفائها، إلى أن شاع خبر جنون هدى، وإرسالها إلى العائلة في البرازيل لمعالجتها، فتعود معافاة إلى ابنها. كان كل ذلك نفاقاً ورياءً. لم تعد هدى».

عكّرت الأفكار السوداء مزاج الكأس. قبل دقائق، كان في كل جرعة منها شعور بنشوة التفوّق على ما مضى. بدت رشا له صفحة بيضاء ناصعة، تدعوه بنبل قلبها إلى أن يقص عليها حياته. لم يتسنّ له أن يعرف عن حياتها ما كان ينتظر منها بشوق أن تخبره به، ما دامت غايته أولاً، أن تعرف كل شيء عنه. الهواء العليل الآتي من بين الأغصان منسّماً على هذه السعادة الكاذبة، هبّ فجأة على المائدة كرياح خمسينية و قشّ معه اللقمة التي خالها خبزاً للجياع.

في قعر معدته حموضة حارقة، لم يقوَ على تحمّلها. وقف على حافة الشير وأفرغ وليمة البريّة من أمعائه.

لما وعى على حاله لم يجد رشا. بحث عنها في كل مكان والقلق يتيه بفكره إلى احتمالات مرعبة، قد لا تعود منها رشا سالمة. انحنى فوق الشير يناديها. صدى صوته سمعه مرّات، يرجع إليه مرتجّاً، خائباً، لا يبشّر بأمل.

دفع فاتورة الوليمة المُرّة وهام في سيارته، صعوداً نحو المرتفعات ونزولاً إلى الوهاد، بحثاً عن ظلها، من غير جدوى.

«كيف عساي أجد تفسيراً منطقياً لاختفائها المفاجئ. هل كانت وهماً عندما التقيتها بين أكوام الكتب؟ أذكر أني حملتها كالريشة بين ذراعيَّ إلى أن أوصلتها إلى البيت الذي كنت سبب مأساته. ماذا كانت تعني حين رفعت كأسها وقالت:

«هذه هي السعادة التي سألتني عنها، ألوان وروائح ومذاقات من جنة الله؟»».

ما سرَّ اختفائها؟ لم يستطع كبت دموعه. حارّة، مالحة، شعر بها تكرج بين تجاعيد وجهه. رشا حفيدة هدى، كان من حقّها أن تسأل عن هذه الجدّة، كأنها بذلك تعيد تركيب عائلة حُرمت إياها كما حُرم والدها أمه. كان مصمّماً على ترويض هذه المتوحّشة، الغريبة في وصفها علاقتها بالسعادة:

«سأجدها، سأروي لها قصة هدى ورفيق كاملة، سأروّض الغربة المتأصّلة فيها، سأرافقها إلى مدفن العائلة وأصلّي معها لخلاص نفسيهما... ماذا أقول؟ لنفسيهما؟ بينما نفسي هي في حاجة إليهما ليعتقانها من جحيمها. من مغفرة كل منهما أحيا وأخلص».

المساء لم يكن كشح بعدُ آخر فصول النهار، حين وصل إلى وادي القصب. ركن سيارته بلصق جذع سنديانة، ومضى يسأل عن التائهة المتنزّهين على ضفّتي النهر وفي الدكاكين. مع ذوبان الثلوج عن المرتفعات، فاضت مياهه بين أثلام الزرع، ترويه وتعيد إليه حيويته. نظر إلى السماء تحضّر مسودّة قمر لم ترتسم أساريره البهية بعد. قال في سرّه، هنا الجنّة التي تكلّمت عنها رشا، فلا بد من أنها غامرت بحياتها مذ بانت لها من مطعم الشير.

لاح خيالها من البعيد. لم تخطئ عيناه. كانت هي، رشا، تغتسل في النهر. تباطأ في وصوله إليها حتى لا يزعزع الرؤية. وقف على بعد مسافة قصيرة منها، يتأمل مذهولاً ما يرى. سمعها تغني، ما إن يعلو صوتها حتى يتكسّر على زبد المياه الغزيرة. معطفها الصوفي وحقيبة يدها كانا ملقيّين على العشب. أدرك أنها نزلت إلى المياه بثيابها. من هي رشا؟ كلما ازدادت غموضاً ازداد تعلّقه بها.

ناداها بصوت خافت حتى لا يباغتها، لا كما حين أخذ يصرخ اسمها على حافة الشير، حين توارت عن الأنظار، يناديها ولا يتلقى سوى صدى صوته. لم تتفاجأ به. كأنها كانت عارفة أنه سيبحث الأرض عنها حتى يجدها. شعر بأنه لعبة تلهو بمرمغتها ثأراً بين أصابعها. انتفضت كبرياؤه حين عبرهذا الشعور في رأسه، تصنّع اللامبالاة بوضعها أمام خيارين:

«أتودين البقاء في النهر، أم تأتين معي إلى عين الشمس؟»

«سأبقى هنا ما دام يطيب لي المناخ. لا داعي لأن تقلق بشأني يا أمين شيبوب».

«منفاي الحقيقي، هنا في داخلي». كم من المرّات حاول أمين شيبوب أن يضع حداً لحياته، في تلك الأثناء التي كان هارباً فيها من ذاته، ومطارداً في آن معاً منها. يتنقّل بين بلد و آخر، لعلّه في الغربة ينسى من هو. كان العالم يرتسم في خياله، سكّةً دائرية، تعيده دوماً إلى المحطة التي انطلق منها، يوم مقتل رفيق بطعنة من سكينه في خاصرته، وشرود هدى في المجهول.

«المال بتدفّقه، غيّر سلوك حياتنا»، تذكّر أمين شيبوب.

من عائلة متواضعة، إرتقى آل شيبوب وكيرواني إلى المظاهر التي تشمئزّ منها النفس. هل نسيت أمّه، والدها، الذي كان يعبر القرى على بغلته منادياً، لبيع مورده القليل من الزيت والزيتون؟ أما عادت تتذكّر رفقا الصبيّة في أوّل طلعتها، لّما كانت ترافق أمّها إلى دار الشيخ فريد، وفي انتظارهما الثياب المكومة والشراشف، لغسلها ونشرها؟ المال رفع شأن رفقا، أعطاها فرصة

الانتقام من ماضيها. برفقة منتهى، زوجة أنيس كيرواني، قرعت محترف الخياطين الكبار في بيروت. تغيّرَ الهندام وبان البذخُ في الثياب الحريرية، والتطريز على الماكنات الحديثة، حتى إذا جاء موسم الاصطياف، كانت خزانة رفقا مجهّزة بما يرمي الغيرة في نفوس نساء عين الشمس، وأولاهن نزيهة، زوجة الشيخ فريد، التي كانت، بنظراتها المتعجرفة، تذكّرها بمكانتها الأجتماعية الوضيعة. بمال الحشيشة وسمومها ترشّح يوسف شيبوب وأنيس كيرواني مرّات للمختترة والبلدية بهدف ستر المال القذر في عباءة الوجاهة.

اللعنة التي انصبّت على شجرة العائلة كانت هدى ضحيّتها. كم شعر بضرورة لمّ فُتاته المبعثرة هنا وهناك وإعادة اللحمة مع من لم يبق له من العائلة سوى حفيدتها رشا. هل إلتقاها صدفة، أم هي عين القدر الرقيبة التي دبّرت هذا اللقاء بين غبار الكتب؟ ذنوب الماضي التي خالها اضمحلّت من ضميره، عادت تنزّ حين أوصلها إلى بيت العقد و علم من هي. دعته إلى الدخول، لكن الفتى الذي كان، منذ أكثر من نصف قرن، تسمّر بشيبه وشقاء العمر أمام القناطر الثلاث الواقفة بشموخ، ينتظر من صمت كبريائها، محاكمته.

رشا القريبة من بنات الأساطير، بخفّتها وشفافيتها، كانت هي محكمته. لم يتسنَ له ما كان في ودّه أن يعرفه عنها في تلك الجلسة الحميمة في مطعم الشير. تركت له الكلام، بينما لم تكن في حاجة إلى الأستماع إليه. حول المائدة تحلّقوا. من الهناك أتوا، أرواحٌ مكسوّة بوشاح الموت، لا

للمشاركة في الوليمة، بل لاستثارة الثورة القابعة في صدرها. كالجمر الغافي ثورتها. هذه المتوحّشة أغرته بذكائها ومفهومها للسعادة، وفي آن معاً، لاحظها في حال من الانخطاف، تائهة عمّا كان يرويه لها ليُفضي بما في نفسه، حتى إذا حكت كان صوت آخر يتكلّم عنها. فهل بينها وبين العالم الآخر صلة؟

من البعيد صار يتفقدها لعلّه يرى خيالها، إلى أن لمحها ذات صباح باكر في الكرم، تشذّب الأغصان اليابسة وتجمعها في كيس من الخيش. لم يبال بردة فعل شرسة قد تبادره بها، فشق طريقه بين الأثلام، وراح يلمّ الأوراق الصفراء ويكوّمها على الأرض كمدعو إلى هذه السخرة.

«الأوراق اليابسة تنعى في سقوطها حشرجة الموت». هذا ما أحسّت به كرعشة موجعة في مفاصلها، قبل أن يتراءى لها أمين شيبوب بين الجفنات، معتمراً قبعة القش. ها هو ذلك العائد من غربته، ولديه ما يقوله. ظلّت صامتة، وقلبها يقرع امتناناً لمطاردته لها. فهي، بقدر ما تشعر بحاجتها الكتومة إليه، باتت واثقة، كل الثقة، بأنها ليست في حاجة لأن تصغي إليه، فهي تعرف مسبقاً ما يودّ أن يهمسه في سمعها.

هذا الحوار الجوفي، قرّب المسافة بينهما. معاً، سارا جنباً إلى جنب، كجد وحفيدته، ونور الصباح يلفّهما بصفائه. ما إن وصلا إلى القناطر المثلّثة حتى شعرت به يتسمّر في مكانه في انتظار أن تقوم هي بالخطوة القادرة على أن تدمل الجرح البليغ. غلّت في صدره. أهذا ما كان ينتظره منها ليغمرها بين ذراعيه ويُطمئن شكوكها؟

«لكم تمنّيت أن أكون كسائر الناس، أروي لأحفادي قصصاً ترافق رقادهم. فأي حكاية تريدين يا رشا أن أرويها لك؟»

فوراً أجابت، والقطة الناعمة عادت إلى أصلها، قطّةٌ شرسة. بخراميشها، قالت:

«قصة تلك الأم التي...».

لم يدعها تكمّل ما في نيّتها من تعمّد ضارٍّ بها وبه. أطبق بكف يده على فمها حتى لا تُفسد هذا اللقاء الثاني بينهما:

«أين تريديننا أن نجلس، لأروي لك قصة هذه الأم؟»

أجابت من دون تردّد:

«في الغرفة التي حدث فيها التخلّي بين الأم وابنها»

هذه اللعبة السادية، وهو في لحظة تردّد بين الانسياق في مزاج رشا المتقلّب أو الرحيل، شجّعته على الأستيضاح منها:

«أجيبيني يا رشا، ما الهدف من لعبة المراوغة هذه؟ من أنت؟ عجيب أمرك! أراك في كائنتين مختلفتين، متسامية تارة، مشرّعة قلبك على التسامح ونسيان ما مضى، وتارة، تتلذّذين في غمس إصبعك في جروحنا معاً. هل أنت في مسرحية دائمة، لا نهاية لها، تؤدين دوراً يخدم مازوشيّتك، أم هي عودتي إلى أرضي وفي نفسي نذر يغسلني من خطيئتي، حرّكت ساديتك النائمة، فاستللتها سلاحاً للانتقام؟».

لم يترك لها مجالاً لأن تحاكي ضميرها. بثوان معدودة، كانت عجلات سيارته تستثير بسرعتها غبار الدرب الجاف. راح فكره يمرجحه في غير اتجاه إلى أن وصل إلى البيت. هنا في بيت الطفولة قرّر العائد من غربته الطويلة أن يستقيم في حياة جديدة بما بقي له من العمر. الأرض التي أصبح وريثها الوحيد، خرجت أساساتها إلى النور ومعها يتحقّق نذر الرجل الهارب من ماضيه، فيعلو على جبين البناء «مستوصف عين الشمس الطبّي المجاني». مشروع لم يسبق له مثيل، وافقت وزارة الصحة وبلدية عين شمس عليه بعد دراسة وافية لكامل بنوده، الهندسية والصحيّة والإنسانية. أمين شيبوب طلب من البلدية أن يظل اسمه مستتراً. لمن يسأل تقولون «من مال الاغتراب وُلد هذا المستوصف».

وقف على شرفة بيته المشيّد بالبذخ والترف على تلة خضراء، والمطلّ بتحدٍّ ووقاحة على بيوت عين الشمس المتواضعة. تفاجأ بالانقلاب الجذري الذي غيّر حياته. هذا البيت الذي تربى فيه وأحبّه، بات الآن يثير خجله. سوف يجد له هدفاً يفيد البلدة، كما المستوصف المجاني الذي سينهض قريباً ليمحو، برسالته، خطيئة عائلته.

ليته يعود طفلاً هانئاً، مدلّلاً، حين لم يكن طعم الترف تحت لسانه يتعدى قطعة الحلوى. الآن، وقد خرج منها، يتألّم من أجل العودة بحنينه إليها. طفولته مرّت بسرعة، حاملةً معها طائرة الورق التي كان يصنعها مع كريم من قضبان القصب وورق الكرناش الملوّن. تذكّر جناحها المزخرف المحلّق وراءه. الخزائن فارغة سوى من لُعَبه، الكلل البلّورية الملونة، البلبل الخشبي

والقيطانة. الولد المنسيّ في أعماقه استفاق. فالعائد من جبهته الخاسرة مع رشا، التقى في غرفته ابن السابعة. أخذ القيطانة ولفّها حول البلبل بيد مرتجفة، وسعى لتحريره منها، عساه يراه كما بالأمس مجنوناً في دورانه، لكن من غير جدوى. البلبل الذي كان طيّعاً بالأمس في مجاراة رشاقة الولد، فقد، بين يدين عجوزتين، قدرته على الزوغان.

عاد أمين شيبوب إلى الوطن وفي نفسه مشروعٌ خيري، يقدّمه عن روح هدى، هذه الأخت التي كان لانتحارها شنقاً بمنديلها الطويل، رسالةٌ لشقيقها قرأ في جسدها المتدلّي من غرفتها، عقابه الأبدي.

بعد خروجه من السجن، قرّر والده إبعاده عن عين الشمس وشتيمتها، التي باتت على كل لسان تلاحق الابن كما الأب. شعر، وهو في أرض المطار على أهبّة السفر، بأن الحقيقة التي صمت عن البوح بها، آن أوانها:

«أنت أصل الخراب يا يوسف شيبوب، أنت من زجّني في الخطيئة التي مهما أبعدتني وهجّرتني عنها، فستظل تلاحقني».

في البرازيل، أهل وأقارب رحّبوا به، ولاسيما خاله ضومط، الذي هاجر صغيراً مع والده، وصار يُعرف بدومنغو. بالكدّ الطموح والمثابرة، صار دومنغو من كبار أثرياء ريو دي جانيرو. حنينه إلى الوطن، كان يستفيق بين الفينة والأخرى، فيعبّر عنه برسائله إلى أمه لبيبة وأخته رفقا، رسائل طافحة بالزجل المقفّى على أوزان الشوق والذكريات، إلى أن أتته الرياح السامة من وطنه، لتنبّهه إلى أن ما كل شيء هناك شِعْر ومواويل. على متنها

وصلت هدى، الصبيّة المسكينة، بتيهها وشرودها، بمعيّة بطرس شاهين، الكاهن الذي صار معروفاً في أوساط المغتربين اللبنانيين الأثرياء. يأتي إلى البرازيل مرّتين في السنة، ويجمع من كرمهم وثقتهم به، هباتٍ يؤمّن بها الغذاء والكساء والعلم للأولاد المشرّدين، ولا من يرعاهم سواه.

بيت دومنغو الشاسع، لم يَضِق بهدى. تحت جناحه أخذها، ولدى كبار الاختصاصيين بالأمراض النفسيّة عرض مصابها، حتى أتاه التقرير الطبي واضحاً لا لبسَ فيه:

«هذه الصبيّة، كما توضّح من الكشف الطبي على حالتها النفسية، لا تعاني خللاً في عقلها. كل ما تريده لتتعافى من صدمتها، هو رجوعها إلى ابنها».

هذه الشهادة التي أبعدت شبهات الجنون عن هدى، كما ادعت رفقا في رسالتها، أوقعت دومنغو في حيرة. فهو غير مولج بإعادتها إلى عين الشمس حيث ابنها الرضيع، لكنه بدأ يشتم قصّة غامضة، تفاقمت مع وقوع الجريمة. حاول استدراج أمين لعلّه يعلم منه بما حدث لأخته، لكن أمين ظلّ متمسّكا بإفادة أمه، بينما هدى المتقوقعة على حالها، صامتةٌ صمت الأموات.

ترك أمر هدى إلى حين يصل يوسف شيبوب ورفقا إلى ريو دي جانيرو ويتأقلمان مع عالمها الجديد، فأمين، الخارج للتو من السجن، كان مسؤولية كبرى على كاهله. بدأ أمين يتكيّف مع محيط خاله، من منطلق الخطة التي رسمها له، عاملاً في معمل الإسمنت، مع عشرات العمّال، يتقاضى أجره

الأسبوعي مثلهم. بعد العمل الشاق نهاراً، كان يبيت ليلاً في غرفة وحدانية مستقلة عن منزل خاله، في انتظار يوم الأحد، المناسبة الوحيدة للانضمام إلى العائلة ومشاركتها في مائدتها. هذا البرنامج المسنون على أسس رجل اختبر قساوة الحياة، ساعد أمين على لملمة ذاته المبعثرة. فهل كان على يقين بأن شقاء أخته لا يقل فظاعة عن مقتل رفيق وتيتم فارس؟

إضرابها عن الطعام والأدوية، لم يليّن قلب رفقا. وضعتها تحت رحمتها، يساندها أمين في هذا المعتقل الذي زجّت فيه اخته. فبينما كانت تنوص كقنديل بدأ يفرغ زيته، كان يوسف شيبوب يعلن، بموته المفاجئ داء أقسى ضراوة من لوعة ابنته على ابنها: داء الغربة.

الليل لم يكن لرشا استراحةً. تسمع صمته يسرّع دقات قلبها. في الليل يخال إليها أن الأشجار تخشى العتمة وتنتظر الفجر حتى تستعيد ألوانها. رشا، كالأشجار، تنتظر ضوء النهار لتشرّع أغصانها على الحريّة. عين الشمس أطلقتها من غشائها وعلّمتها الفرق بين الظل والضوء، وفتحت قلبها على حب الأرض. وصيّة يونس لسلمى، انتقلت بفعل الوراثة إليها. حياتها باتت نسيج نقيضين، الإرث الذي يتطلّب تضحيات جمّة ليزدهر وينتج، والمسرح الذي قادها إلى قمة الأسطورة، فكان أقوى مفعولاً من عين الشمس في تحريرها من غشائها. فبين الأدوار التي يكتبها ضياء لها، من وحي تلك العلامات الغامضة التي تكوّنت منها في رحم أمّها، وانتظارها اليائس في الكرم، عمّالاً اتكلت على وعودهم ولم يفِ أحد بوعده، بات في إمكانها أن تلمس هذا الانفصام الوراثي الذي وضعها بين قطبين. ثريا لا شك ساكنة فيها.

كطير يعبر البحار والوهاد، عادت من الأسطورة إلى عين الشمس، وفاءً للوصيّة. وقع المطارق الممعنة تدميراً في البيوت القديمة، طغى على صوت المناجل. و أمين شيبوب؟ الصدفة في ورشة بيت ماجد مزرعاني لم تكن عابرة. قدّم ذاته جدّاً لها، وبقيت حذرة. أوصلها إلى البيت ولم يدخل «هذا البيت الذي كنت سبب مآسيه»، هذا ما قاله، فضاعت بين كائنين، أمين شيبوب، المسالم، الخدوم، العائد لإصلاح أعطاب اقترفها فتيّاً، وذلك الذي ارتسم في فكرها، بما كانت سلمى تعيده على مسمعها، كوصيّة الأرض حتى لا تنسى:

«ابن يوسف شيبوب لا يمكن أن يكون صالحاً، هو من ذريّة والده. على المال القذر نبت، شقيّاً، رذيلاً، مستهتراً بوصايا الله، لا تقتل، لا تزنِ». وتكرّ حبّات هذه المسبحة كلّما عاد جمر اللوعة يشتعل في رحمها.

كيف عساها تنسى؟ بين جفنات العناقيد التي أيبست الواوية ماويتها، رأته واقفاً بتجاعيد العمر والكتفين المنحنيتين، ينتظر إعادة نظر في علاقة، ما إن تلتئم حتى تفرط كحبات العنب اليابسة. على جبينه كتابة مغبّشة لو أحسنت قراءتها لكانت ربما لاحظت أن هذا التائب، العائد بمشروع إنساني، خيري للبلدة، لم يخلص من ذنوب ماضيه.

«جئت لأودع والدي من دون أن أدري أن «دورا طير يغني في الليل» كانت سبب مصرعه على خط التماس. كم الأحداث التي أمرّ بها تنعى سواداً. المسرح العلاجي، جهاد المصلوب، أمين شيبوب، عين الشمس التي تستبدل ثوبها الأخضر بالباطون، أما لكفي حمامة سلام تغلّ فيه؟»

شلحت عنها عزّة النفس ومضت تبحث عن أمين. فليكن، سأتبنّاه جدّاً لي، إذا كان هو ما زال على الرغم من تصرّفي الشرس حياله، مستعداً لهذه المعمودية».

لم تلمحه. العمّال ناشطون في رفع الأنقاض عما كان خلوة المعلّم، ومكتبة لطالبي العلم. سألتهم عنه. السؤال تلقّاه وكيل الورشة منها غصّةً من صوت قلق:

«اسألي المختار عنه، هو من تولّى نقله إلى مستشفى أوتيل ديو. يبدو أن وضعه صعب لا يخلو من الخطر». مكتبة

نادت شحادة لإيصالها فوراً إلى بيروت. وجدت أمين في العناية الفائقة. الطبيب المعالج قال لها إن حياته باتت الآن في يد القدر بعدما قام الطب بما عليه لإيقاف النزف في دماغه وإبعاد شبح الموت عنه.

«إجلسي إلى جانبه، كلّميه، لعلّه يسمعك فيطمئن. هل أنت من أقربائه؟»

«حفيدته»

بهذا التعريف عن نفسها أثبتت انتسابها إلى أمين شيبوب. مضى النهار وهي شبه ملتصقة بسريره، ويده الحرّة من حقنة المصل في يدها، تخلق معها حسن جوار. قال لها الطبيب، كلّميه. لم يكن أفضل من قصّة حياتها ترويها له. فكلّما تقدّمت في مراحلها، تتصوّر تفاعله بها. في الساعة السادسة ودّعته بقبلة على جبينه، واعدة إياه بمواصلة، الفصل الثاني من سيرتها غداً، وبعد غد، إلى أن يستيقظ من سباته.

وصلت إلى البيت وفي إخراج قيدها جدٌّ، لم يكن اسمه مسجّلاً حتى الآن في شجرة العائلة. كان لديها ما تخبر روزا به. لكن روزا المكفهرّة عادة، العاتبة على الحظ، استقبلتها بالقبلات والعناق. اشتمّت حدثاً سعيداً طرأ ربما على حياة خالتها، في أثناء غيابها في عين الشمس.

«اجلسي، واستريحي، سآتيك بكوب الليموناضة ثم أخبرك بما حدث»

الليموناضة بفوح قشر الحامض والماء الزهر كانت دوماً من طقوس الأفراح في بيت جدّتها نهلا. عادت روزا، وعلى صينية، كوبان من هذا الإكسير المنعش، وقطعتان من الحلوى. انتظرت أن تستمتع رشا بجرعتها الأولى، بعدها تعزفّ لها الخبر:

«نديم، طلب مني أن أعود إليه. أبديت رفضي في البداية ليعلم بأن روزا اليوم ما عادت العاشقة العمياء التي أعطته كل شيء في مقابل حفنة من التبن».

الليموناضة، من مذاق طيّب، يستثير الحواس، انقلبت في حلق رشا إلى حموضة لاذعة:

«أيّ بداية يا روزا؟ والبدايات مع نديم تعرفينها أكثر مني. نديم أذلّك، قتل الأنثى فيك، عوّلتِ على كرمك وحبك الجنوني له لتعالجي شذوذه ولم تفلحي. استغلّ سذاجتك وأنت هائمة به. أسّست له مكتب هندسة، جاء زوجاً إلى منزلك من دون أن يخفي عنك شذوذه. كان صادقاً، أمّا أنت، فهل كنت صادقة مع ذاتك؟»

«حبي له فاق كل منطق و مساومة، إلى أن اكتشفته في فراشي مع عشيقه. وقفت عند باب غرفتي من دون أن أحدث صوتاً، أتفرّج على هذا الشقي الماهر في إشعال غرائز نديم، بأساليب سوقية، شبقيّة، تشمئزّ منها النفس التائقة إلى الحب السامي. الطلاق كان لا بد منه. رحل نديم من حياتي تاركاً فيّ مخزوناً من الحب، لم ينطفئ، بل ظلّ متوقّداً لأغمركما به، أنت وسناء، بعد رحيل ثريّا».

«مكان الأم الغائبة كنتِ، ومن رحم الحب والتفاني لأجلنا أنجبتنا. ثلاثون سنة مضت وجرحك لم يندمل، كأنك فيها تخبرينه إياي اليوم، كنت طوال هذا الزمن الذي قرض نضارة شبابك، تحلمين بنديم. فهل شُفي إبن الخمسين من شذوذه ويطلبك الآن، ترميماً لما أفسده في عمر الطيش؟»

«بل هو مصاب بالسيدا. المرض بات يتفاعل في أنحاء جسمه. اسمعي ما قاله لي:

«ليس لي سواك. أنا على يقين بأنك ستكونين إلى جانبي في هذه المرحلة الصعبة من حياتي. اتركيني أمت بين ذراعيك».

«روزا، من المستحيل أن أقشع في هذه الظلمة نوراً يهديني إلى ما أنت تعتبرينه حدثاً كبيراً. على هذا الخط الفاصل بين الشباب والشيخوخة، أراك وقد وجدت دعوتك. من زوجة منبوذة إلى ممرضة. لقد تبنّيت نديم بشذوذه وتتبنّيه اليوم بمرضه. وأنت يا روزا، أين أنت؟»

جوابها لي كان صاعقاً:

«أنانية ثريّا معشّشة فيك يا رشا، ورثتها عنها كما فستانها الأسود. من المستحيل أن تدركي مدى فرحي في السهر على الرجل الذي أحببته. أجل، لقد نبذني وعاد ووجدني».

فجأة وجدت رشا نفسها شريكة في سر هذا الفرح بينما فكرها يحلّق إلى حيث أمين يصارع الموت. الأنانية التي ورثتها عن أمّها وتلقتها منذ هنيهة شتيمةً من روزا، تعرّت منها على غفلة حين علمت بمصابه، فأسرعت إلى الوصول إلى المستشفى لتكون قربه، وتعرّف عنها بأنها حفيدته. اختلفت الحكايتان، بالزمان والمكان، وعادتا لتلتقيا على مفترق طريق واحدة. روزا لم تقطع صلتها بنديم، بينما رشا التي لم تحفظ من قصص سلمى سوى كارثتين، الجراد وأمين شيبوب، لم تتردّد في إعادة ترميم الجسر المقطوع بينهما؟ أمسكت بيد قاتل جدّها وميتّم والدها، وراحت تروي له حكايتها لعلّه يستفيق من غيبوبته. فهل من حقّها أن تلوم روزا؟

عناقها لخالتها في تلك اللحظة، عناق عرفان واعتراف بروحها المترهّبة للعطاء من غير حساب:

«ها أنا في الطريق ذاتها يا روزا، أطلب الشفاء لمجرم تائب، عاد كالابن الشاطر إلى بلدته يطلب الغفران ممن أساء إليهم».

«أنت يا رشا لم تذوقي مرارة الفشل، لقد كنتِ كحيوان أليف، محميّة في غشاء التوحّد، معفاة من تراجيديا الموت التي حلّت على بيت فارس رستم. أين كنت في ذلك الزمن الذي حدثت فيه مأساة سلمى؟

بحكاياتها المزنّرة كأوراق النعي بالسواد، أخرجتك من قمقمك لتُريك حقيقة الشر ومنبعه، وبإصبعها تدلّك على الذي حرمها ولدها وترك رضيعاً بين يديها، بينما مذكرات والدك منارة تقشعين منها سموَّ الحب والتعالي فوق الأحقاد».

«بين سلمى وفارس، تهتُ، لا أعرف إلى أي من الاثنين أستمع، أأرفض سعي أمين للتقرّب منّي، أم أشرّع له ذراعيّ، حفيدةً له مكان هدى جدّتي؟».

«أنا لم أتردّد ثانية في أن أكون قرب نديم والتخفيف من عذاباته الجسدية والنفسية، وبتعالٍ عما اقترفه بي. أردت أن أنسى لأخدمه بنيّات حسنة، بينما كنت أنتِ، كما أخبرتني على الهاتف، تتلاعبين في أمين، هذا الرجل العجوز، بسادية لا ترحم. بربّك، مَن دعاك إلى أن تشهري سلاح الثأر انتقاماً لأرواح ما عاد لها على هذه الأرض موطئ قدم؟ من يرحل إلى الهُناك يا رشا يدخل في زمن النور الأبدي».

حملت الصينية والكوبين الفارغين إلى المطبخ، وعادت وفي يدها ظرف أزرق:

«هذا ما كنت تنتظرينه من ضياء العجمي».

أخذت رشا الظرف ودخلت غرفتها وقلبها يخفق كعصفور في قبضة صيّاد. ولما خرج النص من غلافه تفاجأت بعنوان لم يخطر في بالها. «قتلت أمي لأحيا «وبه استهلّ رسالته:

أيتها العزيزة

هو دورك الثاني الذي أراهن كثيراً على نجاحه اقرئي النص، لك كامل الوقت لتكوني جاهزة مع بدء التمارين في شهر أكتوبر وبها نفتتح موسم المسرح في أوروبا. اسمك لن يكون مغيّباً على اللافتات، بل سيكون ساطعاً، مكتوباً بأحرف من نور. تطاولت بالخفاء على دفترك النائم تحت وسادتك، وقرأت سرّاً بخطّك المتعثّر. الفتاة المتوحّدة فتحت أمام ذهولي، قنواتٍ معتمةً، تصب في ماء هوجاء كنت تسمّينها الجحيم. فاسأل نفسي، من أين لهذه القابعة في توحدّها أن تتخيّل الجحيم؟ ولم أكن أتجرّأ على زعزعة صمتك، بل من هذا الصمت أستنبط عالماً ميتولوجياً. فمن سواك باستطاعته أن يقوم بهذه التجربة العنيفة القائمة على طقوس الموت؟

ضياء المشتاق إليك.

قبل أن تباشر قراءة المدخل إلى صلب المسرحية، خرجت من غرفتها لتُطلع روزا على مضمون الرسالة. لم تجدها. الكلمات القليلة التي كتبتها على جناح السرعة كانت أكثر من وداع:

«عدت إلى البيت لأكون مع نديم للاعتناء به والتخفيف من آلامه. سأعيش معه أيامه الصعبة إلى حين يجد الراحة في الموت. عندئذ يحق لي أن أكون أرملته بثياب الحداد، ما لم يحق لي أن أكون زوجته بثياب الفرح. روزا».

إعادة إعمار بيروت، مشروع كبير، شملت جرّافاته خربة التماس، الإطار المتواضع الذي حطّت فيه رشا حلمها. باكراً، كانت هناك تتابع بين شلعات الغبار، موت مسرح علاجي، لكم راهنت عليه لأن يكون في هذا المكان الذي لقي فيه والدها مصرعه، رمزاً تلتئم عليه البيروتان. تذكّرت شريف عامر الذي وصف مسرحها، بمغامرة «أوتوبيّة».

مشهد الخراب الذي أحدثته الراجمات على أحياء بيروت السكنية لم يُثن رشا عن تشييدها على هذا الخط الفاصل فضاءً حرّاً يمنح الأصوات المكتومة هواءً للتعبير الصحيح. خربة التماس كانت أصبحت، خلال وقت قليل، ملتقى أيادٍ امتدّت للمصافحة وإفراغ الذات عالياً من الشكوك والمخاوف الواقفة عثرة أمام حلاوة الدنيا. والآن، كيف في إمكانها أن تجد بديلاً لها يعيد الشمل إلى هذا المختصر عن وطن يحلو العيش فيه. مضى فكرها إلى جهاد وزينب ونور.

في طريق عودتها إلى البيت، شعرت بقشعريرات برد تلذع مفاصلها. فكّرت في حمام ساخن يغسلها من غبار المدينة، وربما يعيد إلى نفسها المضطربة، السلام الذي تتوق إليه. السلام، مرّات ردّدت هذه الكلمة على إيقاع خطواتها المسرعة، لعلّها، في تكرارها، تعزّم الشعور بالفناء أمام مشهد الركام. إنتقلت بفكرها إلى أمين. ستكون بعد قليل إلى جانبه. وستقرأ له بعضاً من نص المسرحية.

«ليت قلبي جمراً حارّاً، لأشعلته بالصلوات، كجدتي سلمى التي استطاعت، على عدد حبّات مسبحتها، أن تقهر الموت. لكن قلبي مسكون بالبرد، يخترع بأقلام التلوين شموساً يتدفّأ بها».

سحبت يدها بهدوء من يده وفتحت الصفحة الأولى من نص المسرحية، لتبدأ بها نهارها معه. عبرت عن العنوان حتى لا تثير قساوته ردّة فعل قد تفاقم وضعه الصحي.

«ظننتهم رحلوا عن الدنيا، فهل يردّون التحية إذا ناديتهم؟ هذه أمي في طليعتهم، رقيقة، باهرة بجمالها، من صورها عرفتها، ماتت وهي تلدني من رحمها. أعود إلى هذا البيت الصامت منهم، مسكونة بأصواتهم، يزورونني في منامات مفكّكة لا يبقى ذرة منها عند اليقظة.

النائم لم يأت بحركة. تفرّست في تكاوين وجهه لعلّها تلتقط إشارة منه. أقفلت هذه المقدمة من الفصل الأول وراحت تُسمعه إياها غيباً، كما لو كانت بثياب المسرح، كما لو كان مشاهداً.

دخلت الممرضة لتستبدل كيس المصل بآخر. انتقلت بعينيها من رشا إلى نص المسرحية، ويد المريض في يدها تفحص نبضه.

«لمن كل هذا الإلقاء البديع؟ أتظنّين أنه يسمعك؟ وفّري على نفسك مجهوداً لا جدوى منه». فيما للطبيب رأي آخر:

«كلّميه، فمن يدري؟ الأمل، العامل الوحيد في هذا الانتظار».

تابعت القراءة، غير مبالية بالممرضة التي ازدادت مشاويرها إلى الغرفة، لا لتتفقد نبض مريضها بقدر اندفاعها إلى جس نبض تلك الجالسة قربه، تؤدي دوراً لمشاهد واحدٍ، راسٍ على فراشه بين الحياة والموت.

فجاة سكتت رشا عن الكلام. سمعته يطلب منها أن تذكره في كتابها. هلع قلبها حزناً. ركضت تطلب إسعافاً. رأتهم حوله، يحاولون المستحيل لإنعاش قلبه. تقوقعت على حالها تنتظر معجزة. على السرير رجل، مات وحيداً، اعتقدت أنها إلى جانبه، لكنه ترك جسده على سرير المستشفى وعاد إلى صحرائه حيث تنسّك سنوات، لعلّه ينسى المنديل الذي تدلّت منه هدى لتستريح من عذابها. صوته حفر في نفسها أثلاماً مالحة كالبكاء، في حين كان صراخها يملأ الكون.

في عين الشمس انتظروا وصول أبناء خاله وأولادهم من البرازيل، ليقوموا بمراسم دفن الرجل الذي عاد من الغربة ليبني على الأرض التي يملكها مستوصفاً مجّانياً للمعوزين، كشمعة دائمة عن روح أخته. الكاهن، في تأبينه، عدّد فضائل أمين شيبوب نجل يوسف شيبوب، الرجل العصامي

الذي تتذكّره البلدة، رجل الخير الذي جنى ثروته من كفاحه وإيمانه بالله، وها هو ابنه، المشتاق إلى الأرض، أبى إلاّ أن يترك على هذه الأرض المباركة أثراً طيباً منه.

مسحت رشا دموعها حين شعرت بكوع جدتها سلمى تنكعها. صوتها الصلب كالوتد، لم تنسَه، من الهُناك جاء ليذكّرها بما لا يجب أن يبرح فكرها أبداً:

«ما يقوله هذا الكاهن يا رشا غشّاً ورياء، قبض ثمنه ليبيّض صفحة هذه العائلة السوداء. اعرفي أن عائلة شيبوب هي سبب مأساة عائلتك. ارحلي عن هؤلاء القوم، مكانك ليس هنا».

انسحبت رشا من المأتم الأحتفالي من دون أن تُحدث صوتاً. سارت على خطوات هذه المرأة الملسوعة في صميم رحمها وقلبها، إلى أن وصلت إلى بيت العقد، حارس الذاكرة. ارتمت على فراش جدتها وأجهشت بالبكاء على حالها، لا تعرف من هي وإلى من تنتمي. كلمات ضياء عادت توسوس في ذهنها:

«من رحم المسرح وُلدت. خشبته أرضك وهويّتك». فلمَ هذا البكاء وجواز السفر في حقيبتها والمارد الأسود في انتظارها.

«أيكون المسرح مرساتي، هناك في بلاد الغربة، أم في بلدي؟» السؤال كان له فوراً جوابه.

«عدت وفي نفسي اقتناع بأن فارس يطلب مني أن أحيي ذكراه بمسرح يحمل اسمه».

الماضي والحاضر رياح، ساخنة وباردة تلفحها، ولا تدري أي منهما الاتجاه الصحيح الذي عليها اتخاذه. أجراس الموت سمعتها من خلوتها. وقفت احتراما لرهبة الرحيل، هوذا الشعور المريع الذي تلقته في مفاصلها عندما رأت النعش يرحل بوالدها إلى الأبد.

لم تمش وراء نعش أمين. صوت سلمى نهاها عن أن تقترف ببكائها عليه، مصالحةً بين عائلتي رستم وشيبوب.

هناك في بستان الزيتون الظليل، خلقت رشا خلوة بريّة لمراجعة مسرحيتها. الأغصان المتدليّة بحملها، جمهورها الصامت، الشاهد على تحوّلها من نغفة في شرنقة، إلى فراشة:

«أين أرضي؟ غريبة ولدت من رحم أمي، غريبة سأظلّ، فأينما أحط أشْتَقْ إلى مكان آخر لا وجود له على الخارطة. فهل يكون الوطن، الحلم، حيث ليس لنا فيه وجود؟»

تخيّلت رشا الأغصان تصفّق. الأشجار لا تمشي، متجذّرة في تربتها هي، تمنح أغصانها جواز سفر، تبكي حين تمطر السماء لوعة. تلتف على حالها من رهبة الليل. الأغصان ساعي بريد، توزّع أوراقها اليابسة على الأرض مراسيل، يلمّها الهواء ويسلّمها إلى من هم في الأنتظار.

«أجل! سمعت الأغصان تصفّق. كنت في حاجة إلى جمهور يشمخ بي إلى قمة الشجرة، ويصرخ باسمي عالياً. لم أكن على قدر أن أعلو لأقشع الشمس وتقشعني. في هذا المكان الظليل، وقفت بعربي أتلو دوري في صمت ذاتي،

وحولي حفيف الأوراق المتساقطة، تقطع سيل كلماتي لوشوشات مدوزنة على دقائق رحيلها إلى المجهول. لعلّها هي، هذا الصوت الخارجي الذي لمّح إليه ضياء في رسالته، صوت من الهُناك يجاورني من دون أن أرى صاحبه. من تُراه يكون؟»

لملمت رشا أوراق المسرحية المبعثرة بين الأوراق اليابسة وأعادتها إلى الظرف. شكرت شجرة الزيتون لحسن استقبالها:

«رائحتك مقدّسة كرائحة القديسين»

أجابتها: «هي رائحة الصباح».

الورقة الملتصقة على باب البيت رمقت رشا من البعيد. سرّعت خطواتها على إيقاع خفقات قلبها، بينما آلاف الصور السوداء تدفق في رأسها.

الرسالة موقّعة من مختار عين الشمس، تُعلمها بأن عائلة الراحل أمين شيبوب تتقبّل التعازي في باحة الكنيسة وتتمنى حضورها لكونها النسيبة الوحيدة الباقية للعائلة في الوطن.

قال، «اعتبريني جدّك، سأكون إلى جانبك ما دمت أنا على قيد الحياة». لكنه رحل وبقيت أمور غامضة، معلّقة على هذا الجسر المهدّم بين عائلتي رستم وشيبوب: هدى. في عرف شجرة العائلة التي لعنتها سلمى، أنا حفيدتها، ولا أعرف عنها شيئاً سوى أنها تركت والدي رضيعاً واختفت عن الوجود.

جلست بعيداً عنهم. فشخت عن تحذيرات سلمى، ارتدت الأسود لون الحداد، لونها الميتولوجي على الخشبة. أبناء خال أمين وأولادهم أتوا من البرازيل لوداع كبير العائلة. كانوا يتكلّمون اللغة البرتغالية في ما بينهم، ولمامات من لغة الوطن بلسان قارض حين يتوجهّون إلى أعيان البلدة.

«كنت تلك الغريبة المدعوة إلى مناسبة ليس لي فيها مكان. شاب وسيم قارب الأربعين، عرّفني عن نفسه حالما قام عن مقعده وجلس بالقرب منّي:

«رونالدو ابن هدى، شقيقة أمين».

ردّدت في سرّها «رونالدو ابن هدى، رونالدو ابن هدى» لتتحققّ من صحة ما سمعته. لوهلة رأت أمام عينيها صفحة حمراء مكتوبة بدم رفيق، كانت مغلقة حتى الآن في كتاب هذه العائلة. ومن غير أن يدري معيار إصابتها، أطلقها رونالدو رصاصة في قلبها. تزوّجت هدى ورزقت ابناً، بينما فارس يسأل سلمى:

«والأم يا ستي؟»

حاولت أن تضبط الرغوة التي صارت تتدفّق في فمها وتنذرها بغيبوبة لا مفرّ منها. الصدمة كانت أقوى من محاولاتها اليائسة. بلمحة أخذتها الرؤيا إلى برج بابل في سِفْر التكوين. سمعت الناس يتكلّمون كل اللغات، بألسنة مبلبلة، لم تفهم منها شيئاً. سمعت صوتاً من العُلا، كالسوط يشتّت هؤلاء القوم الماكرين في كل اتجاه. تود الخروج إلى الضوء لكن الظلمة تزنّرها، تشلّ حركتها. كم دام هذا الكابوس؟

كانت ممدّدة على سجّادة حين استعادت وعيها. الأصوات التي سمعتها في غيبوبتها كانت لا تزال تهدر في رأسها. المعزّون تحلّقوا حولها، إلى أن وصل الطبيب وفرّقهم عنها. فرغت القاعة منهم، قال، والسمّاعة على أذنيه: دقات القلب بطيئة تستدعي نقلها إلى المستشفى. تمكّنت من أن تشرح له أن ما أصابها لا يستدعي عناية فائقة، لقد اعتادت أن تجاريها بالراحة والسكينة:

«هذه الغيبوبة العابرة تعاودني كلّما تفاجأت بصدمة لم أكن أتوقّعها. أحاول تفاديها حين تنذرني بقدومها، لكني لم أكن هذه المرّة على قدر تلافيها».

ماذا أدرك رونالدو مما اعترفت به للطبيب؟ اقترب منه وقال:

«كنتُ أنا السبب».

مدّ يده وساعدها على الوقوف. مشى معها وهي متأبّطة ذراع شحادة سائق والدها، إلى أن وصلت إلى السيّارة. الحادثة ذاتها تذكّرتها حين أوصلها أمين إلى البيت بعد أزمتها في بيت ماجد المعلّم. رفض يومها الدخول إلى بيتٍ، متذرّعاً بأنه كان سبب مآسيه. والحكاية تتكرّر، تحوك خيوطاً لا تعرف أين طرفها. جلس إلى جانبها في المقعد الخلفي، صامتاً، ثابت العزم، من دون أن تتنبّأ بأن لمجيئه إلى عين الشمس عقدة قديمة أتى على خطى خاله أمين لحلّها تكفيراً عن غلطة تمادت مفاعيلها في الزمن منذ ذلك اليوم الذي قتل فيه رفيق. فلكم ردّد أمين على مسمعه، وكان ما زال طفلاً، «الأباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون»، إلى أن علم بأنه هو المقصود بهذا المثل أكثر منه.

في الرسالة التي وصلت إليه منه قبل وفاته، علم بأن لهدى حفيدة غريبة الأطوار، متوحّشة، ومن الصعب ترويضها، عالمها المسرح والكتابة، ويقال إنها مصابة بداء التوحّد. إلى هذه الوحيدة الباقية من أسرة اختارها القدر مثالاً للتراجيديات الكبرى، جاء، وفي حقيبته رزمة الرسائل التي كانت تكتبها هدى إلى فارس ولم تصل إلى غايتها. فبينما مضى يفكّر في الأسلوب الذي عليه اتخاذه للدخول في ملحمة ما زالت فصولها تتفاعل بين قارتين، كسرت رشا الصمت فجأة وقالت:

«أنت هنا في سيارة شقيقك فارس».

وقعت كلمتها كالصاعقة على شحادة السائق، الوفي، الذي لازم والدها على مدى ثلاثين عاماً، ورثاه كما يرثي الأب ولده الوحيد. توقف قي محاذاة القناطر، أطفأ المحرّك، وقبل أن تنزل رشا من السيارة.

قال:

«رشا ابنتي، من حقي أن أعرف. من هو هذا الغريب المتطفّل على عائلة رستم؟ جدّتك سلمى رشقت عائلة شيبوب بلعنتها. فارس ليس له أشقّاء، إيّاك أن تقعي في مخالبهم».

ماذا استوعب رونالدو من تحذيرات شحادة لها؟ ظلّ صامتاً إلى أن سمع رشا تقول له:

«ذات يوم، يا شحادة، ستخرج حكايتنا الطويلة من ليلها الدامس،

وستكون أنت أولّ العارفين بحبكاتها. أمهلني الوقت وابقَ إلى جانبي».

تقدّم رونالدو منه متقبّلاً النعوت التي رماه بها، وأمسك بيده وقال بكلمات متعثّرة:

«لقد جئتُ ولو متأخّراً لأصحح أخطاء كانت هدى هي أيضاً ضحيّتها. أمين خالي سبقني إلى هذه المهمّة المفروضة عليه وعليّ، وبموته المفاجئ لم يتمكّن من إتمامها».

جبين شحادة، المغضّن غضباً منذ هنيهات، تلاشت تجاعيده في إثر استماعه إلى هذا الشاب. حملق طويلاً في وجهه، وقال مودّعا:

«فليكـن. رشـا امـرأة ذكيّة ومثقّفـة، لكنّ، أيـن كانت حـين وقع رفيق مضرَّجاً بدمائه؟

ظلّ رونالدو جامداً في مكانه، يلاحق بنظراته السيارة، سيارة فارس، الشقيق الذي يكبره بخمس عشرة سنة، إلى أن غابت وراء أشجار الكينا. سمع بكاء طفل آتياً من هذا البيت؛ بكاءً ظلّ مع الزمن ينزّ من الداخل. تخيّل هدى المرغمة على التخلّي عن رضيعها. كشح رهبة الموت من فكره. لا يريد أن يتذكّر أمّه معلّقة في وسط الغرفة بمنديلها. غمره حزن لم يستطع لجمه. اتكأ على عمود القنطرة وبكى. تمازجت دموعه بدموع الطفل الذي لم يفهم يوماً معنى التخلّي، ولا هو.

رشا الواقفة إلى جانبه، قرأت ما تقوله دموعه. على قمّة شجرة الدردار

المواجهة للقناطر، حط غراب وأنشد لحن الموت. هذا هو الغراب الذي جعل منه فارس كائناً واقعياً في كتاباته. كان يزوره على حافة النافذة ويدرّسه معنى الحياة. فيهرع فارس إلى معلّمه ماجد، حاملاً حذافير الرؤيا لعلّه يستطيع أن يفك ما تحتويه من ألغاز.

بصوت خافت دعته إلى الدخول إلى ذلك الماضي الذي احتضنته في أوراقها حتى لا يموت مرّتين. هل في باله الهرب منه كما قيل عن هدى أمّه؟ لفّ صوتها بذراعه، مستعيناً به في عبوره إلى هذه الضفة المنكسة بأعلام سوداء.

العائدة لتوّها من غيبوبتها، تحاملت على الوهن المكبّل أفكارها ليكون استقبالها رونالدو شقيق والدها، على قدر المهمّة التي جاء من أجلها، فلا تفوّت فرصة التلاقي التي أضاعتها مع أمين. تركته يجول بعينيه في صمت المكان ودخلت المطبخ تحضّر ما في استطاعته أن يحط بينهما جوّاً حميماً. عادت بإبريق تفوح منه رائحة الزيزفون، وبصحن من الكعك المعجون باليانسون. البخار المتصاعد من الفنجانين قرّب المسافة بينهما. أخرج من حقيبته رزمة رسائل قرض الزمن حفافيها، سلّمها إيّاها وقال:

«ها هي تصل متأخرّة إلى المرسَلة إليه».

شعرت بيدها ترتعش وهي تفض الرزمة. عشرات الرسائل زلقت دفعة واحدة منها، كمياه كانت محبوسة فتحرّرت. حدّقت في العنوان المتكرّر على كل ظرف:

«المهندس فارس رفيق رستم. بلدة عين الشمس».

كان يا ما كان... القصة في بداياتها لم تكن غريبة على رشا، فجدّتها سلمى لطالما أعادتها على مسمعها حتى تبقى الذاكرة حيّة، نابضة بلعنتها على بيت شيبوب. لكنّ للقصة تابعاً. سافرت إلى عالم الاغتراب وظلّت خيوطها تتفاعل بين القارتين. فلو لم يأت أمين إلى عين الشمس وفي نفسه نيات ترميمية لما حدث ما حدث. وهل يرمّم الغبار؟ عادت الحكاية تتفاعل من جديد، تتلقّاها في تلك اللحظة من صوتين متشابكين: صوت آتٍ من رزمة الرسائل التي لم تفضّها بعد، وصوت رونالدو، يروي حياته مع أمّه، كما اللازمة الرهيفة، المتكرّرة في كونشرتو راخمانينوف، هكذا كان أسلوب الراوي، مطابقاً لما عرّف به عن نفسه:

«قائد أوركسترا ساو باولو الفلهارمونية. الموسيقى وحدها جديرة بأن تتكلّم عن الموت».

وأنتِ؟ سألها:

«من داء التوحّد إلى المسرح الذي كان علاجي. ها أنا في صدد مراجعة دوري في المسرحية المقبلة «قتلت أمي لأحيا»، كتبها المؤلّف والمخرج ضياء العجمي من وحي سيرة حياتي. أما هنا فبعد مصرع والدي بيد قنّاص، وجدت في المكان الذي قُتل فيه خربة، شيّدت فيها مسرحاً علاجياً للنفوس المتألّمة».

لكل من رشا ورونالدو حكاية لا تروى ببضع كلمات. رفع المايسترو عصاه مستهلاً السمفونية من فصلها الثاني، «الأداجيو» حين تلتقي الكمانات والنايات في نشيد عاطفي، حزين:

«صغيراً كانت أمي تناديني سهواً باسمٍ ليس لدي به علاقة. «فارس»، أسمعه ناطقاً من قلبها، ثم تعتذر وتجهش بالبكاء، فلا أدري لماذا يسبّب لها هذا الأسم البعيد عن دنيانا كل هذا الشجن. حين أصبحت في سن الشباب عرفت من خالي أموراً أخفتها أمي عنّي:

«كانت رفقا في الخمسين حين ترمّلت. بالمال الوفير الذي تركه جدي أدخلت إلى البيت شاباً يصغرها بعشرين سنة، لا مكانة اجتماعية لديه سوى ابتزاز نساء ثريات يشكين من الوحدة. ريكاردو ألنزو كان عازف غيتار في الملاهي، رقيق الحال، إلى أن استهواه الثراء الذي أغرقته فيه جدتي، ومن اختباراته في الفحش والرذيلة أعاد إلى أرملة يوسف شيبوب، روح الصبا. «الأرملة الطروب»، صارت كنيتها في مجتمع شقيقها الضيّق، إلى أن بدأت تشعر بابتعاد ريكاردو عنها. بطغيانها عليه ودعامتها المادية

السخيّة له، أرغمته على الزواج من إبنتها. تزوّجته هدى. تذكّرها أمين، تمسح دموعها يوم زفافها بطرف طرحتها، بينما ريكاردو الماكر يرقص بين المدعوين فرحاً. لقد استولى على مال الأم وابنتها معاً. بعد مضي تسعة أشهر على هذا الزواج، ولدتُ من ثمرته الكاذبة. ريكاردو المحنّك، كان يعرف من أين يجني المال، فبين ليلة وضحاها، زوّر إمضاء أمّي واختفى مع حسابنا في المصارف. جدّتي الظالمة حطّت اللوم على هدى. في حساباتها كانت هي بغبائها وجسدها المحنّط، السبب. في كل مناسبة كانت تعود إلى الماضي وتعيّرها براعي البقر الذي لحقته إلى الزريبة ومارست معه العار على فراش التبن. بدأت صحة هدى النفسية تتدهور إلى أن تجاسرت وروت لي قصة من الماضي:

«في عين الشمس حيث لم نكن نمضي العطلة الصيفية لأسباب ترفيهية، كنت أشارك المزارعين في موسم القطاف ولمّ الزيتون. كانت أمّي تعتبر هذه التسلية متنافية مع وضعنا الاجتماعي.

خفق قلبي للمرّة الأولى حين التقى العنقود الذي كنت أهم بوضعه في السلّة، عنقود رفيق. لم أكن دخيلة على موسم القطاف، فسلمى رحّبت بي، أعطتني مقصّاً وسلّة وعلّمتني تقليم الأوراق اليابسة بتأنٍّ وتحرير العنقود عن عرقه من دون أن أسبّب خدشاً في حبّاته. هذا الأحتفال بقطاف العنب خلق قصة حب بيني وبين رفيق. في زريبة المواشي، المسقوفة بالأغصان اليابسة والمحاطة بالأوتاد، صرنا نخفي حبّنا. حين يعم الغسق وتتلوّن السماء بتنويسات ليلكية، ورديّة، برتقالية، كنت أعرف أنه في انتظاري، فأتخفى

وراء الأشجار لملاقاته. في أول لقاءاتنا كان الخوف من اقتراف خطيئة الزنى هاجسنا. غياباتي عنه لم تكن لتدوم، إذ أراه يحوم حول البيت وبعجو الزيتون يراشق زجاج نافذتي، فأعلم أن الدغوش بتلاوينه يدعونا إلى الزريبة. ومع كل مرّة عهد جديد بأن أكون له. كان هو المتردّد دوماً، بينما كنت لا أعرف من خطايا الحب سوى القبلات التي كان يزرعها في جسدي، كمن يغرس في التربة شتول البطاطا والجزر. صرت مدمنة على رائحة الزبل. لم يكن أحد في البيت في ذلك اليوم. مع بوادر الليل مضيت إلى الزريبة. كان رفيق شبه سكران، يكرع النبيذ المعتّق من فم الزجاجة مباشرة. أعطاني الزجاجة وطلب مني أن أتساوى به في النشوة. لم نخجل من عرينا، النبيذ كان دليله على أسراري، كما المحراث دليله على ليونة الأرض وقساوتها. شعرت بالدم ينساب من شقوق التربة، نهراً يسقي الحقول. حين استيقظت من سكري كان الليل نائماً فوقي وآلام مبرحة تبكي بتوليتي المهدورة بشراسة كسّار الحجارة. لم أر رفيق بعد هذا القداس الأسود. لعلّ فراش التبن المجبول بدمي أخافه. قمت إلى الجرن الذي تشرب منه الماشية وأغتسلت من عاري. نظرات البقرة الحلوب المتفرّسة فيّ، جعلتني أعي أني لست مختلفة عنها. كنت وحيدة أمضغ مأساتي. مرّت أيام، وأنا منزوية في غرفتي، إلى أن دفعت بي قوى الشر إلى الزريبة. كالمروبصة عدت إلى سلاّخي. كان في انتظاري، أرضاً عطشى للفلاحة. رائحة الزبل هيّجت حواسّي. المدمن يطلب أكثر، وهل أكثر من أن تُعلمني العادة الشهرية المنقطعة عني منذ ثلاثة أشهر بأني حبلى؟ الكارثة تلقّتها أمي عقاباً عما وصلت إليه العائلة من جاه واحترام. والدي اقترح فوراً الزواج حلاً، يُسكت ألسنة الناس المبغضة

عن تلويث سمعته ونجاحه. سلمى رحّبت بهذا الحفيد من أي رحم ولد، ما دامت البذرة من جنى هذه الأرض المباركة.

يوم زفافي من رفيق، ألبستني سلمى فستان عرسها الذي مال بياضه إلى اصفرار. كنت ابنتها تكفكف دموعي المنهمرة بزغاريدها المستورة في الغرفة، تعويضاً عن نكران عائلتي لي. لم يشهد عرسنا سوى عائلتي وسلمى. لم تُقرع في ذلك اليوم الحزين، أجراس الفرح، ولم تُرشّ الورود على الخاطئة. صار بيت العقد، مسكني، أتلقى من سلمى، هذه المرأة الجبّارة، ما تعلّمته من الحياة. كنت في حمايتها، ساهرة على تطورات حملي، أشعر بخشونة يدها على بطني، تتحسّس تكوّراته، فيزداد حبي لها، بينما رفيق تائه عني، يخرج باكراً إلى واجباته الفلاحية ولا يعود إلاّ متعباً، يستحم وينام. كنا غريبين أحدنا عن الآخر، فما حدث في الزريبة كان نتيجة سُكْر وشرود. بتردّدي إليه وإغوائه على فراش التبن، مهّدتُ له الوقوع في التجربة. تلك كانت اتهاماته لي يوم أعلمته بحملي. ردّات فعله كانت أكثر ضراوة من عنف أمّي. وُلد فارس بعد سبعة أشهر على زواجنا. الأمومة بثت فيّ قوّة، فالرضاعة كان فيها طعم السعادة، سعادة لم تدم، حين رأيت أمي تدخل كالزوبعة عليّ، وتحضّني على مرافقتها:

«اتركي ابنك حيث هو، وتعالي معي قبل أن تراك سلمى، فأمين قتل رفيق بطعنة سكين».

اقتلعتني عن ابني وأنا شاردة فيما جرى. بعد يومين على الكارثة، وأنا تحت تأثير المسكّنات التي كنت بلا مقاومة أتلقّاها حقناً في عروقي، استقبلني

خالي دومنغو على أرض مطار ريو دي جانيرو، مرفقة برسالة من أمّي تفيد أني بحاجة إلى طبيب نفساني يعالجني. كنت أطلب من أمين مساعدتي على العودة إلى ابني، ولا أجده. بعد فترة، جاءت أمي مع والدي للاستقرار في البرازيل. صرت أسيرتها، تمارس طباعها الشرسة عليّ، ومقود تعذيبي في يدها. عقابها كنت».

رشا الساهمة في هذا الصوت الآتي إليها من البعيد، كانت، ورونالدو يروي سيرة أمّه هدى، تسمع صوت امرأة مذبوحة، جف دمها على فراش التبن ولم تصارع قدرها. هل جاء فارس خطأً إلى الوجود من زلّة سَكْرة بلهاء؟

دخل رونالدو في صمتها، يشاركها في تحليلها الموجع لهذا الأخ الذي لم يعرفه:

«رشا، جئت إلى مأتم خالي أمين وفي يدي وصيّة من أمّي إلى فارس، وصلت متأخرّة، رسائلها التي اكتشفتها في دُرج جدتي بعد وفاتها، لم تكن تحمل عنواناً بريدياً، أمين وعد أخته بأن يتكفّل بما يلزم لإيصالها إلى عنوانه، لكنه خنث بوعده، لتواطئه مع جدتي كي تبقى خطيئة هدى مطمورة في عين الشمس. لعلّه وعى الظلم الذي اقترفته العائلة بحق هدى يوم اتخذت القرار الوحيد الذي تسنى لها أن تتخذه في حياتها، موتها، مشنوقة بمنديلها. هام أمين في الدنيا يبحث عن سكون له، وجده في صحراء موريتانيا، متزهّدا، متنسّكاً، إلى أن كاتبني بعد سنوات طوال، وكنت أصبحت قائد أوركسترا ساو باولو الفلهارمونية، ليُعلمني بأنه انتقل إلى عين الشمس حيث شرع في بناء مستوصف مجاني عن روح هدى، على الأرض التي لوّثها

جدي بزراعة الحشيشة. ففي اعتقاده، كان هذا الثمن كافياً ليكفّر عن آثامه وآثام عائلة شيبوب وينال التوبة؟»

تريّثت رشا والقصّة تدخل مسامها كلذعات الجمر، إلى أن قالت:

«هل هذه حكاية يا رونالدو أم هي كومات من الوجع اقترفها كل فرد من هذه العائلة على ضحية واحدة: هدى؟ أيكون موت أمين المفاجئ هو الدافع الذي أتى بك إلى عين الشمس للبحث عن هذا الأخ الضائع وتسليمه رسائل أمّه».

الصمت الذي فرض نفسه في هذه المسارّة المؤلمة، كان أكثر سلطاناً عليهما من نبش القبور ودعوة الأموات إلى محكمة العدل. سألته، لعلّها تكشح الغمام الذي عمّ في الغرفة و تعيد بناء ولو حجر من هذا الجسر العائلي المهدّم، وكم حاولت ترميمه في المستشفى، بعد فوات الأوان:

«ألم تحاول العثور على والدك؟»

الموسيقى يا رشا، رئة تضخ الحياة، لولاها لاختنقت. تسأليني عن هذا الوالد. في الأرجنتين، كان لقائي ريكاردو ألونزو. بدعوة من الأوركسترا الفلهارمونية الوطنية، جئت إلى بوينس ايرس، لأقود «ريكوييم «موزار. قبلت فوراً بأن أكون قائد هذا الشلاّل من الدموع، الذي لطالما قرأتُ في نوطاته، قشعريرات خوف من الموت، ونوراً من الرجاء والحب. كنت، ويداي ممدودتان على كامل أفراد الأوركسترا، في حال من الانخطاف في

عظمة موزار، أتحسس في عروقي ذلك السرَّ الخفي في موسيقاه. في ذلك اليوم المميّز في حياتي الموسيقية، كنت أقود تحفة طوباوية، هي أشبه بصياغة الأساطير العجيبة. وقف الناس خشوعاً أمام رمق الموسيقى الأخير، إلى أن غاب موزار في زمن الموت، عندها علا التصفيق كزخّات مطر كانت محبوسة، فانفرجت.

دخلت مقصورتي لأجد رجلاً قد سبقني إليها. ظننته معجباً، آثر التعبير عن مشاعره لا بالتصفيق بل بحضوره مباشرة إلى مقصورتي. وبدا، على الرغم من فارق السن بيننا، مرتبكاً، لديه ما يقوله، وفي آن خلته عاجزاً عن البوح به، إلى أن بقّ البحصة العالقة على لسانه:

«ريكاردو ألونزو. هل يعني لك هذا الاسم شيئاً؟»

«ربما اسم العائلة، لا أكثر».

حدّق فيَّ طويلاً وعيناه تقدحان شرراً، ثم قال:

«لا سبيل إلى المراوغة يا رونالدو، إعلَم بأنك لولاي لما كنت اليوم على هذه المنصّة».

«لم أفهم، أبعصاك السحرية كنت ستقودني إلى المنصّات العالميّة؟»

«بل بإفراغي ذكائي ومواهبي وشطارتي في بطن هذه المحنّطة أمّك. فأنت وريث ذرّيتي. لو لم يغرّني المال، لما قبلت التنقّل بين رفقا الفاسقة و هدى التي قبلت بي زوجاً رغماً عنها، ورغماً عنها حملت بك».

تذكّرتُ أنها كانت تناديني باسم فارس، ثم تعتذر وتجهش بالبكاء. هذا الرجل جاء إليّ في غفلة ليضيء ما كان راسياً في عتمة الحقيقة. سألته:

«ما الغاية من مجيئك إليّ بعد خمس وثلاثين سنة؟»

«كي تعترف بي أمام العالم الذي يصفّق لك، وتقول عالياً هذا أبي. ثق بأني لن أتخلّى عنك بعد أن وجدتك».

«وهل وفى بوعده؟» سألته رشا

«ذات يوم علمت، من مدير المصرف، بأن مبلغاً من المال أُودع في حسابي مع رسالة موقّعة من ريكاردو ألنزو إلى ابنه رونالدو ألنزو. لم تكن الرسالة مرفقة بعنوان أم برقم هاتف. كان هذا وعده بألاّ يتخلّى عني. قدّرت سرّيته».

«هل رجوعه إليك، حرّك حنيناً إلى الأب الغائب فيك؟»

«هذا الرجل لم يترك منه أثراً يستثير اشتياقي إليه. كان على حق حين قال إني ولدت من رحم محنّط. وما دمنا نتكلّم على الحنين، ثقي يا رشا بأني سأشتاقك، سأرحل وأنت جمرة في نفسي تهب شرارات منها كلّما عدت بالذاكرة إلى عين الشمس. فأنتِ ابنة الأخ الذي كانت هدى تناديني باسمه. لعليّ بعد اليوم، وأنا واثقٌ بما أقوله، أن أفيك ولو ذرّة مما ضاع فوُجد. المسافات البعيدة التي وقفت سدّاً بين هدى وماضيها في إمكاننا أن نربّي عليها مواعيد، تعيد اللحمة بيننا».

المسافات التي تحدث عنها صارت تتلاحم شيئاً فشيئاً. صرت، في سرّي، أتمنى لو تطول إقامته في عين الشمس.

قرأ في سطور جبيني ما في نفسي. أسرع وقال:

«لدي الوقت بكامله كي أشعر بأن لي في هذا البيت غرفة وركوة قهوة. هنا أريد أن أسكن في انتظار أن تتم المعاملات على وفاق بين ورثة الراحل و بلدية عين الشمس. فبموجب الوصية التي تركها أمين، أعطى أنطونيو، ابن دومنغو، بتوقيع منه، الكفالة كاملةً لرئيس البلدية للسهر على إتمام مشروع المستوصف بتجهيزاته الكاملة، مع تسديد جميع النفقات من المبلغ الذي رصده أمين في مصرف لبنان لهذا المشروع. أما أنا، فجئت لأودّع خالي، وفي حقيبتي رزمة رسائل من أمي إلى فارس. هنا على سرير هذا الأخ أريد أن أستريح».

قامت أمامه، تدلّه على الغرفة التي ولد فارس فيها وظلّ ينام فيها إلى أن غدره القنّاص. وقف مستطلعاً كأنه يعيد عقارب الوقت إلى الوراء، ثم أجهش بالبكاء. تركته في هذه الغرفة التي كُتب لها الأحزان، وخرجت إلى القناطر تتنشّق هواء الليل لتتعادل مع الطبيعة.

عاد إليها، وفي يده «يوميات سجين» و «لما كنت»:

«ليتني أجيد هذه اللغة فاقرأ ما كتبه».

«مثلما أهديتني رسائل هدى إلى فارس، سأهديك باسم فارس «يوميات سجين» الكتاب الذي كتبه في السجن».

رحل رونالدو مع طيور الصيف، تاركاً على سرير فارس ظلّه. عدت إلى وحدتي في صمت المطبخ، والوقت يتمهّل في فنجان القهوة. نص المسرحية فطوري في هذا الصباح الساكن، أعيد استظهارها بعدما كفّ أمين عن الاستماع إليّ. أترقّب من النافذة جوقات أخرى من العصافير، آتية من البعيد لتمرّغ منقادها بكبوش التوت. بعد ثريا لم يمتد فمٌ إليها، وحدها فصيلة المناقيد كانت تحوم على أغصانها وتحوّشها.

الشعور بالتحرّر من مسؤوليات الحياة نشّط عزيمتها. مشت على هدي شرودها بافكارها إلى أن خرقت أنفاسها رائحة الزبل العتيق وأعادتها إلى رشدها. وقفت كتمثال من ملح في محاذاة الزريبة المهجورة منذ مقتل رفيق، تستعيد ما روته هدى لابنها. «لم يفرّق رفيق بيني وبين الأرض. استباح جسدي كما تعلّم الفلاحة في تربة عاصية. كنت مستسلمة لسكره».

تراكمت الصور في خيال رشا. استلقت على جذع تينة بريّه حين شعرت برائحة الزبل تستقوي على همّتها:

«هنا كان دم هدى سابحاً في فراش التبن. تخيّلته كدم أبيها فارس على خط التماس. الدم لا يُنسى. يعتق ولا يهجر الأمكنة التي هدر فيها».

عند الدغوش، قصدتْ شحادة في منزله لتُطلعه على ما في فكرها للموسم الآتي. كان جالساً تحت العريشة مع زوجته وأمامهما، على طاولة القش، عرمةٌ من الحمّص الأخضر، يأخذان القلب ويرميان القشور إلى الدجاج. لم يُبديا ترحيباً بها. فشحادة ما زال مغتاظاً منها لإيوائها غريباً في بيت

سلمى. أخذت شلحاً من الحمّص وراحت تنقيه حبّةً، حبّة وتمضغ مذاقه المالح، النديّ، في انتظار أن يرد لها التحيّة. انتبهت نجلا إلى هذا الإهمال ودعتها إلى الجلوس، بينما بقي شحادة يغطّي انزعاجه منها بسرعته الفائقة في تعرية الحبة تلو الأخرى من كسائها الأخضر. تركته يمجّ حقده في حبّة حمّص ومضت بسلامها الداخلي إلى بيت العقد توضّب حقيبتها وأوراقها تمهيداً للرحيل. فهذا الرجل، الذي أصبح بحسن نياتها، سائقاً على سيارة فارس، وشريكاً في مواسم الزيتون والكرمة، ظنّ أن من السهولة استملاك حياتها.

«جئت إليه بقرار جريء، نقل الإرث إليه، هدية من فارس في قبره إليه. الواوية يا شحادة أحق منك في سَكْرة من عنقود عنب سلمى».

ماذا حقّقت مذ عادت إلى الوطن وفي خيالها مشاريع تثبت انتماءها إليه؟ كل ما أمسكت به سقط غباراً، مسرح خط التماس، جهاد الذي هاجر مع الطيور التي لا مأوى لها، الأرث الذي أصبح علفاً للواوية، أمين الذي لم تمنحه الوقت ليفضي بكل ما في نفسه، بيت العقد الذي بهجرانها له تساوى مع مقبرة العائلة... الرحيل بات خلاصها.

وصلت إلى ستراسبورغ وكلّها أمل في أن يكون ضياء في انتظارها على أرض المطار. تطلّعت من حولها كتائهه في أرض غريبة إلى أن لاحظت يداً ممدودة عالياً تلوّح لها. ما إن قرّبت المسافات حتى تفاجأت بشريف صافي، لا أحد سواه، في استقبالها. ترحيبه بها كان حارّاً، حميماً، أعاد إلى ذاكرتها فوح باقة الورد قبل أن تذبل:

«سررت عندما كلّفني المعلّم بهذه المهمة، وأملي أن تنسي سوء فهمي مشروعك الإنساني».

أوصلني بمتاعي أمام الباب وقال:

«لعلّك ستتفاجئين بي شريكاً لك في لعبة الظل والضوء. لم أكن أتوقع أن يعرض عليّ ضياء دور شخصية مبهمة، هي أناك الأخرى. كأنك تتحاورين مع ذاتك. هذا العفريت أسكنكِ في خياله، صرتِ هاجسه بعد فراقكِ عنه. إلى أن بدأ يكتب «قتلتُ أمي لأحيا «وحلمه أن يعيدك بها إليه. بين الرفاق في متحف المسرح الحديث، راح يبحث عمن في استطاعته أن يقوم بدور الظل، كنت في أثناءها اراجع دوري في مسرحية «هاملت». كلمة واحدة قالها لي، جعلتني أقبل بأن أكون ظلّك فوراً:

وهاملت؟ هل ستتخلّى عنه كما تخلّيتَ عن كاليغولا؟»

«أرجوك، لا تفتحي قبور الماضي. هاملت هو الدور الذي لطالما حلمت به، وسأكون هو».

قبل ليلة الافتتاح بأيّام أرسلت بطاقة دعوة إلى رونالدو، وأملها أن يكون حاضراً كي يبقى الخيط الذي تواعدا عليه، رابطاً بينهما. الجواب تلقّته كرشة ماء على شتلة حبق عطشانة:

«يا لفرح هذا اللقاء. اطمئنّي يا رشا، لن يباغتني قنّاص وأنا في طريقي إليك. سوف تريني جالساً في المقعد الذي كان البارحة مخصّصاً لفارس أخي.

على نغم حميم بين كمان وهوبوا، دخلت امرأة في حزمة الضوء، كائنةً خرافية، تبحث في خيوط الموسيقى عن رداء يؤنسنها ويحتويها بملمسه. الصمت الذي عمّ فجأة في القاعة، احتوى، بنفوذه، الحوار المتبادل بين الآلتين. حوار، تلقّى رونالدو، الجالس بين الناس، مفاعيله الإنسانية في كيانه. في كل جرح وتر وتنهيدة هوبوا، صار هذا الواهب حياته لموزار وبيتهوفن، يتمعّن في لغز الحوار ويستنبط منه ما تعجز الكلمة أن تقوله. الفتى، الذي تفوّق بالموسيقى على مآسي حياته، من غير أن يغيب لحظة عن فكره ذلك المشهد الرهيب، أمّه هدى متدلّية من السقف بمنديلها، كان في تلك الليلة التي دعته فيها رشا إلى مسرحيتها، يقرأ ما في سوناتا باخ من خواطر خلاصيّة للروح المعذّبة، ترافق المرأة الواقفة في الضوء في ما ستقوله بعد حين.

من مقعده راح يتابع تحوّلات روح مسجونة في عتمة شرنقة، مزّقت غشاءها وطلعت إلى الضوء. شيئاً فشيئاً بدأت هالة الغموض تتلاشى من حول المرأة. صوتها كالريح آتٍ من أزمنة مضت:

«لا بيت لي سوى في الخيال. حدود عالمي مزنّر بالوحدة».

يعلو من الظل صوت ذكوري، يقول:

كلمات بسيطة أودّ أن أرويها. حكاية وقعت في مكان ما، تحت سلطة الضوء وصخب العالم. الولادة، بعد تعثّر في مضيق الحياة، انفجرت كدويّ ذرّة، تاركة حولها رماداً معجوناً بالدماء. حملتكِ وعبرتُ بك فوق أنقاض

هيروشيما لأنقذك من الموت. في غشاء التوحّد قمّطتك، لكني نسيت اسمك. كنت أسمعك ترندحين اسماً بقي هناك في دنيا الأموات».

هي: «غريبان أنت وأنا على هذه الأرض، ومن أنت سوى أناي القابعة في الظلمة. كائنان مقتلعان من جذورنسيت اسمينا».

هو: «لك نافذة تطلّين منها على الهُناك، دائماً الهُناك».

هي: «قتلتُ أمي لأحيا. هلوسات أم حقيقة؟ أبحث عن فستانها، ألبسه فتستفيق رائحتها في مسامي. هذه الرائحة العنيدة التي بها شيّدتُ لها مكاناً في ذاكرتي، آويها فيه».

هو: «كنت تتكلّمين وأنا في ظلّك أحاورك بلغة صمتي. بكلماتِك المقشورة خلقتِ عالمين، فيما بقيتُ في ليلك أحوك روابط بينهما، ولا أدري في أيّ من الاثنين أنت».

هي: «كالفرس الجامحة تركتُ قشوري ومضيتُ إلى البعيد، أبحث عن حب يُعيدني إلى طفولة حُرمتها. رأيتك في الظلّ صامتاً، بيني وبينك حوارٌ مفكّك بين لغة الحكي ولغة الصمت. بين ذراعيك كان ليلي».

هو: «الليل قصيدة كتبتها حباً بك. كنت أسمعهم يتكلّمون بصوت هذه الغريبة، وأنت تغزلين حولك غشاءً يعزلك عنهم».

هي: «أمّا صوتي، فلعلّك في بحثك عنّي تجده في قلب الكلمات التي تعلّمت أن أسيّر بها حياتي».

هو: «جميعهم رحلوا، وبقيتْ ذكراهم في كفِّ يدك تقرئين غيبهم. أَمَا مللت الانتظار؟»

هي: «الطيور التي لم تغادر، تنتظر على غصنها عودة المهاجرين إليها. هذا قَدَري».

هو: «أين أنت يا امرأة على هذا الحد الفاصل بين الحياة والموت؟».

المرأة الواقفة أمام نافذتها تُحصي عدد العابرين:

«هذه النافذة باتت الورقة التي تحرّر قلمي من الغشاء الذي وُلدت فيه. شاردة بين الهُنا والهُناك كالسفر إلى أوطان لم تعد غريبة عنّي. أفتحها وحبري ينزّ شوقاً، أنتظر موكب الموت السائر على الرصيف. أقول في سرّي، ظننتهم رحلوا، هل يردّون التحية إذا ناديتهم. هذه أمّي، لم ينل الموت ذرّة من سحرها. ماتت وهي تلدني، أنا قتلتها لأحيا. وسناء التي تخلّت عني، عابرة أمامي، ويدها بيد حبيبها ماهر، لم يفترقا حتى في الموت. هذا والدي في يده حقيبة سفر، كان آتياً إليّ، حين باغته القنّاص...».

هو: «بل هي حقيبة الفراق، ملأى بالذكريات».

هي: «أرى جدّتي سلمى في يدها عنقود عنب. فتاة صغيرة تركض في اتجاه الغروب، هي أنا، عرفتها من فستانها الأبيض المطرّز بالفراشات».

هو: «ما بك تلحقين بهم، استديري يا امرأة نحو شروق الشمس، ففي سرّها ما ينهاكِ عن التوغّل في الليل. اتركيهم يرحلوا. فكّي رباطك

بهم، ففي دفترك أوراقٌ بيضاء في حاجة إلى حبر المعاناة والعذاب كي تنتفض».

هي: «الكتابة مكّنت وحدتي، لكنها لم تفصلني عنهم. أتلقى رسائلهم في مناماتي، تحذّرني من قطع الروابط بيني وبينهم. بقلمي أعمّر عائلة وأطفالاً، ومن مسام ورقتي يفوح عطر الزيزفون. برحيلهم أصبحت النافذة موعدي معهم، أسمعهم ينادونني، وكلّهم شوق إليّ. الورقة ضاقت بهم، بينما يُوسعون لي مكاناً بينهم، في هذا الهُناك الذي أتخيّل ألوانه ولا أجد بين أقلام التلوين تنويسات تفي بما هو، ينتظرونني. ولن اخلف وعدي لهم».

الحوار الحميم بين كمان وهوبوا، تراجع في تلك اللحظة التي تكلّمت فيها المرأة على أقلام التلوين، تاركاً للطبول أن تنعى موتاً. أمام فاجعة الإيقاع، تخيّل رونالدو أرض المسرح تنزف برمق الحياة الأخير. جالد على نفسه حتى لا يعم صراخه في القاعة. صوتها ما زال يتردّد في ذاكرته وهي تروي له رثاء والدها على خط التماس:

«الدماء على الطرقات، تعالوا واشهدوا، الدماء على الطرقات».

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

المؤلفة

- بدأت حياتها المهنية مع بدايات تلفزيون لبنان عام ١٩٥٩، مذيعة ومعدة «برنامج نساء اليوم» وبعده «حرف على طريق الزوال».
- العام ١٩٦٩ التحقت بجريدة النهار وكتبت في الصفحة الثقافية. ناقدة أدبية وموسيقية وفنية، وما زالت في هذه المؤسسة حتى اليوم.
- ديبلوم في الأدب الفرنسي من المدرسة العليا للآداب.

مؤلفاتها:

- العام ١٩٩٨: أوراق من دفاتر شجرة رمان، دار النهار
- العام ٢٠٠٠: أوراق من دفاتر سجين، دار النهار.
- العام ٢٠٠٢: المشهد الأخير، دار النهار.
- العام ٢٠٠٥: «Dans le Jardin de Sarah»، كتاب بالفرنسية صوّر صفحاته بالألوان المائية إميل عضيمي.
- العام ٢٠٠٦: أنتعل الغبار وأمشي، شركة رياض الريس للكتب والنشر.
- فاز كتابها أنتعل الغبار وأمشي، مع خمس روايات أخرى بالمرحلة الأولى من اختيار أفضل عمل روائي من بين مئات الروايات المرشحة لنيل الجائزة العالمية للرواية العربية («البوكر» العربية) للعام ٢٠٠٧.
- العام ٢٠٠٨: الساعة الرملية، شركة رياض الريس للكتب والنشر.
- العام ٢٠١٠: حين يشق الفجر قميصه، شركة رياض الريس للكتب والنشر.
- العام ٢٠١٢: ماكنة الخياطة، شركة رياض الريس للكتب والنشر.
- العام ٢٠١٤: تماثيل مصدعة، دار الساقي.

مي منسّى

قتلت أمي لأحيا

مكتبة ٣٧٩

منذ الصباح شعرت بيد القدر تقتلعني من عزلتي المزمنة وتحثّني على الانتصارعلى علّتي. فما خطر في بالي ليلاً، قمت ودوّنته على ورقة حتى لا تخذلني ذاكرتي أمام اللّجنة.

متدثّرة بفستان أمّي الأسود بدوت كما في مذكّرات والدي، على مثالها، ثريا الهاربة دوماً من واقعها من أجل أن تكون كائناً آخر. سمعتهم ينادونني. كان لي اسم. نويت في تلك اللحظة أن أفجّر الغلالة المقيّدة جناحيّ.

«إسمعوني، أنا قتلت أمي لأجل أن أحيا. الخيوط المسيّجة حرّيتي هي عقابي. سوف أعود إلى رحم أمّي وأطلق سراحي منه. فبولادتي الثانية ستكون لي الحياة التي أستحقّها».

ISBN 978-9953-21-674-4
9 789953 216744 >

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS